فاروق الأول

الملك الذى غدر به الجميع



عادل ثابت



الملك الذى غدر به الجميع

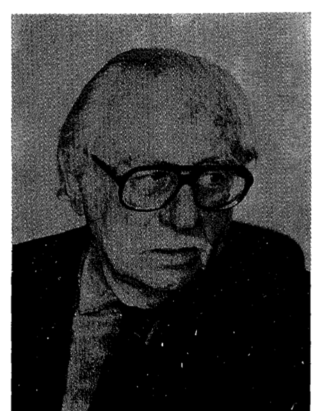
عادل ثابت

نقله إلى العربية : محمد مصطفى غنيم



ادارة الكتب والمكتبات

الغلاف بريشة : ---------------------- مصطفى حسـين
الإخراج الفنى : ---------------------- سـعيد إسماعيل
الماكيت : ------------------------ أسامة أحمد نجيب



عادل ثابت ـ مؤلف هذا الكتاب ـ كما يبدو حاليا فى هذه المرحلة من العمر .. وهو من مواليد ١٩١٩ ووالدته هى ابنة خالة الملكة نازلى واقرب صديقاتها إليها ..

الطبعة الثالثة

إلى ذكرى جد الملك فاروق محمد شريف باشا

١٨٢٦ - ١٨٨٧

الذى لو طبقت اصلاحاته لما كان لهذا الكتاب ضرورة

مقـــدمة

ليست هذه سيرة ذاتية لحياة الملك فاروق ، بل هى أقرب فى طبيعتها الى تقرير شخصى عن تجارب المؤلف عن علاقته مع الملك ، والتى بدأت عندما كان قريبا له من بعيد ، وانتهت بعد أن أصبح معاونا مقربا ووسيطا للملك وعبدالرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية خلال السنوات الحرجة التى سبقت وأعقبت كارثة حرب ١٩٤٨ فى فلسطين .

ولقد تعمدت تجاهل الكثير من القصص المروعة والمثيرة التى أحاطت بذكرى فاروق ، إذ انها إما زائفة وإما مبالغ فيها الى حد بعيد ، وهى قبل كل شىء لا صلة لها بقصة الأحداث الرئيسية خلال فترة حكمه ، وعلى أية حال فإن مطاردى النساء ، والمقامرين ، والناهبين كان منهم قادة بارزون أيضا فى التاريخ .

وسوف يلاحظ القراء أن لهجة الكتاب ليست انتقادية فى قسوة ولا هى تضفى هالة من القداسة . ولقد افترضت أن فاروق كان ضحية سلسلة لا نهاية لها من أعمال الغدر ، الى أن غدر هو بنفسه فى النهاية . لقد بدأت الاساءات اليه فى مطلع شبابه عندما كان ضحية لأم قوية الشكيمة ، تحكمت فى سنواته الأولى وإدارتها ، ومررت بسرعة على الغدر الأكثر خطورة الى أقصى حد لحيدر باشا القائد العام لجيشه ، والذى قد يعتبر علامة على المرحلة الأولى التى أدت الى تنازله عن العرش ، ومع ذلك فان هناك تفسيرا أكثر تعمقا قد يعلل ما أصاب فاروق من محن .

لقد كان فاروق ضحية تجربة ، فقد سعى والده الملك فؤاد لان يجعل ابنه مصريا يتميز عن أى ملك عثمانى أو فى الشرق الأدنى ، ومن ثم فقد تلقى الأمير الشاب تعليما مصريا تقليديا ، واللغة التركية التى كانت تمثل ولاء أسرة محمد

على الراسخ للسلطان العثمانى بعد أن سلب منه . وقد ظل الملك فؤاد فى الواقع يعرب عن عداء ملحوظ تجاه استانبول وحكامها لفترة طويلة بعد اختفاء امبراطورية البوسفور ، وورث فاروق هذه المشاعر ، وابدى طوال حياته روحا وطنية مصرية حقيقية قوية ، وما تسبب بدوره فى صدام مع السفير البريطانى السير مايلز لامبسون (لورد كيلرن) الشخصية البريطانية بالغة القوة .. وما تبع ذلك من عواقب مشئومة ..

غير أن النفوذ البريطانى أخذ يتراخى ، بينما كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها ، وقد اضطلع فاروق بمهمة تحدى الوضع البريطانى فى الشرق الأوسط ، مع السعى خلال ذلك لضم الأمريكيين الى جانب مصر ، وفى عام ١٩٤٨ ، وبعد سنوات قليلة من السيطرة على الجامعة العربية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ ، وجد فاروق نفسه الزعيم المعتدل المقبول للعالم العربى ، فى مواجهة أول اختبار كبير له .. وهو الحرب الفلسطينية الأولى . ورغم أن المسئولية الرئيسية والواضحة عن سوء ادارة الحرب وهزيمة مصر ، قد القيت على أبواب المؤسسة العسكرية ، فإن فاروق هو الذى واجه اللوم .

وقد قوض القائد العام للجيش المصرى محمد حيدر باشا محاولة فاروق التالية لاسترداد مكانته عن طريق اصلاح القوات المسلحة ، باستخدام الضباط الألمان لاعادة تدريب الجيش ، وكان من نتائج ذلك ايضا أن فاروق فقد تأييد الأمريكيين ، الذين يبدو انهم اتخذوا قرارا بالعمل ضده بنشاط ، وارسلوا « فريقا ضاربا » من وكالة المخابرات المركزية لانشاء اتصال مع العناصر المناهضة للملكية .. لقد كانت حماسة فاروق الوطنية ، وولاؤه لالتزامات مصر الفلسطينية هى التى كلفته عرشه فى النهاية ، ومع ذلك فإنه لو كان قد تصرف بصورة حازمة ضد انقلاب القاهرة فى ١٩٥٢ لاستطاع أن ينقذ حكمه فى النهاية ، ولكنه فضل أن يترك الأحداث تسبقه ، وأدى ذلك الى انه اكتسب لنفسه رحيلا مخزيا من مصر .

لقد كان فاروق كغيره من الوطنيين المصريين المتحمسين يعانى عدم قدرة على التخفيف من مشاعره الوطنية الملتهبة بحس سياسى وحرص يتسم بالتعقل . وقد شاركه نفس هذا العجز قادة مصريون مختلفون ، مثل محمد على الذى أثارت مغامراته المنتصرة رد فعل عالميا ضده فى ١٨٤٠ ، وعرابى باشا الذى كانت مواقفه الوطنية المتطرفة هى الذريعة الرئيسية للاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ ، وكذلك الخديو السابق عباس حلمى عم فاروق ، الذى فقد عرشه عشية الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤ بسبب تقريعه العلنى وصدامه مع لورد كيتشنر .

ولعل أكثر الجوانب شذوذا فى تنازل فاروق عن عرشه ، أنه أبعد عنه بواسطة ذلك العنصر المصرى الذى ربما كان من المتوقع أن يقدم له التأييد السياسى الرئيسى وهو العنصر الذى يعتمد أساسا على الطبقة المصرية المتوسطة ذات النزعة المحافظة ، والتى كان يمثلها مجموعة من ضباط الجيش الذين كانوا قد وصلوا الى رتبة اليوزباشى أو البكباشى ، والذين ينتمون فى مصر الى قطاع من المجتمع بارز اجتماعيا .

فما الذى جعل هؤلاء الذين يعتبرون أقارب للمؤسسة الفاروقية الحاكمة يتمردون ؟

ان الرد - فى رأى المؤلف - يكمن فى عدم الوحدة المتوطن فى جسم السياسة المصرية ، وعدم وجود أية أداة دستورية قادرة على كبح التجاوزات السياسية لزعمائها ، والتدخل الذى لا ينتهى ابدا فى شئون البلاد بوساطة أيد دخيلة ، عززها دستور ١٩٢٣ الذى أخطأه التوفيق !

غير أنه فوق كل ذلك ووراءه ، وككلمة أخيرة فإن السبب الحاسم للتخلى عن العرش هو غياب أى حوار بين الملك والضضباط لشبان المتحمسين ، الذين كانوا أضواء الجيش الصاعدة . وقد يعزى سبب ذلك بصورة مباشرة الى نظام القصر الذى خلق حاجزا بين الملك ورعاياه . وقد كان الكاتب أحد الأشخاص القلائل فى مصر الذى استطاع اختراق هذا الحاجز لفترة ما ، وإلا لما أتيح لهذا الكتاب أن يظهر ابدا ؟

القاهرة - فبراير ١٩٨٩

عادل محمود ثابت

تمهيـــد

« سأكون ملكا لبافاريا ، وهكذا سوف يشعر هنا انه فى وطنه » .

هذه الملاحظة غير المتوقعة ، أدلى بها الملك فاروق فى ١٩٤٩ ردا على استفهام من الجنرال أرتور فيلهلم شميت بالفيلق الافريقى سابقا ، وباللواء البافارى الملكى لحراس الحياة سابقا ، وكان الجنرال قد سألنى قائلا : « عندما أقدم لصاحب الجلالة ، كيف ينبغى أن أحييه . إن الأمر فى ألمانيا سيكون شيئا معتادا بالنسبة لأى ضابط حيث يعرف نفسه عند تقديمه للملك بصيغة خاصة ، ثم يضع نفسه تحت أوامر جلالته ..

وكان يقال أن المكتب الملكى مجهز بباب مسحور يقع فى مواجهة مكتب الملك مباشرة ، وعند الضغط على زر موضوع فى مكان مناسب ، يستطيع الملك أن يبعد أى ضيف غير مرغوب فيه ، ليجد نفسه فجأة مستقرا فى البدروم . وتنفيذا للتعليمات الملكية بعدم احراج الجنرال ، اهملت ابلاغه عن الوجود المحتمل لهذا الأمر غير العادى . وكان وجود الجنرال فى مصر قد أحيط بسرية تامة ، بعد أن تم تهريبه من ألمانيا تحت أنف قوات الاحتلال المتحالفة ، وكان الفرنسيون الذين ساعدوا هذه العملية بهدوء بطريقة خفية ، هم وحدهم الذين يعرفون .

أما عملية النقل ذاتها ، فقد دبرها الحرس الحديدى الخفى ، الذى يبدو أن وظيفته الاساسية فى ربيع ١٩٤٩ كانت وضع الضباط الألمان السابقين وشخصيات النازى فى أجزاء مختلفة من الشرق الأوسط وأمريكا الجنوبية . وكان صديقنا الودود فرانز الكولونيل فى الحرس الحديدى والوسيط فى العملية ، يقوم فى تلك اللحظة تماما بتشكيل فريق ألمانى استشارى للأمن لخدمة اللواء حسنى الزعيم دكتاتور سوريا فى ذلك الحين .

وقد تبين أن الجنرال شميت صغير الحجم ، عسكرى صارم النظام ، حليق الذقن ذو عينين زرقاوين شاحبتين ، يصفف شعره بالطريقة الألمانية المعهودة ..

كان نموذجا حقيقيا لضابط ألمانى من طراز روميل .. عسكرى تماما ، وكانت آراؤه عن كل شىء ذات طابع عسكرى ، تعتمد على فلسفة أكاديميته العسكرية ، مما يضفى على آرائه حول مجموعة واسعة من الموضوعات ، الايجاز ، والدقة والوضوح التى تجدها فى نشرة الأركان العامة عن عمليات اليوم .

كان الجنرال يقول لى : « عزيزى السيد ثابت لقد اعتدنا دائما أن نقرأ كل شىء من اليسار الى اليمين ، ومن ثم فإنك تستطيع أن تتأكد عندما تذكر مكانا على الخريطة ، انه يبدأ من الغرب متجها الى الشرق . وهكذا فإن باريس تأتى دائما قبل برلين ، وهذا يساعد ضباطنا على تحقيق منظور لأوامرهم .

ولم يكن هناك شك كبير فى أن الجنرال كان يرد على أغلب الأسئلة بنوع من الاجابات التى يمكن توقعها من كومبيوتر مستنير ، وأى شىء لا يكون قد تمت برمجته عليه بواسطة الأكاديميات العسكرية المختلفة والدراسات التى تلقاها ، مثل السلوك الغريب لفتاة أمريكية متهورة نوعا ما ، كان يوقعه فى حيرة وارتباك ولقد ظل الجنرال حقا يساوره قلق عدة أيام ، بعد أن قبلته « ليثا » وهى الفتاة التى أشرنا اليها ، علنا وهى تقول : « انك تجعلنى أقهقه .. تجعلنى أضحك .. وأنا أحاول الحصول على توقيعك على أوتوجرافى » ..

وقد أوضح الجنرال ذلك بقوله : « سيد ثابت .. هذا أمر لا يفهمه أى ضابط ألمانى .. نحن لا نسمح لسيداتنا بالتصرف بهذه الطريقة ! »

ولقد صدم الجنرال بصورة أكثر حتى عندما أخذته الى دار الأوبرا ، حيث كان باليه جان بابيل يعرض علينا راقصة تنتحر بطريقة الهاراكيرى على موسيقى اللحن الجنائزى لبيتهوفن فى احدى ابداعات الرقص الفرنسى التى كانت ذات شعبية بالغة فى ذلك الحين .

واحتج الجنرال قائلا : « سيد ثابت .. أريد أن أغادر هذا المسرح فورا .. اننى أعتبر المشهد الذى رأيناه تدنيسا بشعا للمقدسات ، واهانة لبيتهوفن العظيم » ..

وعندما وصلنا معا الى القصر ، وأدخلنا أحد الأمناء المتحفظين وكانت السرية هى الطابع السائد يومئذ ، فلم نر أحدا من الخدم ، وكانت العيون المتفحصة للبريطانيين أو غيرهم من العملاء المندسين بين العاملين فى القصر مقصورة على بعض الخدم فى بدروم القصر أو الطوابق العليا . وهكذا كنا بمفردنا مع صاحب الجلالة من كل ناحية .

كان الأمر بالوجود فى الحضرة الملكية قد وصل الينا دون انذار ، وعلى الفور كان الجنرال الضئيل الحجم قد قفز الى وضع انتباه ، واتجهت ذراعاه نحو الأرض فى تصلب وان كانتا منفرجتين قليلا نحو الخارج . وقد تمدد جسمه

القصير الممتلىء ولكن فى أقصى قوة ، واتخذ رأسه ذو الشعر القصير وتكاد تكون بلا عنق زاوية بدقة رائعة .

ومشينا بخطوة الأوزة خلال الباب المفتوح الى الحضرة الملكية ، بين صوت الحذاء العسكرى ، وقعقعة عدد لا يحصى من الميداليات الخيالية ، وصليل سيف فرسان بافارى وعلى مسافة متر واحد بالضبط من مكتب الملك ، حيث كان يجلس صاحب الجلالة الذى أذهله المنظر نوعا ما ، توقف الجنرال فجأة ، وتبع ذلك دقة بالقدمين ، ثم ارتفع صوت الجنرال وكأنه فى ساحة استعراض : « الجنرال أرتور فيلهلم شميت ، القائد السابق لقلعة بارديا ، والقائد السابق فى ليبيا ، وقائد الميدان السابق لجيش فون كلوج أمام موسكو ، والحاكم العسكرى السابق لستراسبورج ، والقائد السابق لمجموعة معركة دولمان ، يقدم نفسه لصاحب الجلالة ، يقف فى وضع استعداد لتلقى أوامر جلالتكم الأخرى ! » .. وكان هذا كله مصحوبا بتحية سلام رائعة ، أعقبتها وقفة انتباه صارم !

واستجمع الملك فاروق ، الذى لم يربكه هذا العرض من الأبهة العسكرية غير المألوفة لحظة واحدة ، شمل نفسه وقال : « اننى مسرور للغاية لرؤيتك ياجنرال .. هل تتفضل بالجلوس » ..

وفى هذا الحديث والمحادثات التالية ، أظهر الملك فاروق تفهما ملحوظا للعجز العسكرى المصرى ، الناتج أساسا عن عدم كفاءة الرتب العليا من ضباط مصر الذين دربهم البريطانيون ، والتى كشفت عنه بعد ذلك هزيمة مصر فى حرب ١٩٤٨ ضد دولة اسرائيل الجديدة ، وقال لشميت : « اننى أريد منك أن تساعدنا على بناء الجيش المصرى لكى يصبح قوة مقاتلة فعالة ، تتمتع بكل المزايا والخبرات التى اكتسبها الجيش الألمانى خلال الحرب العالمية الثانية » . وقال الملك : « فسوف ننشىء قيادة للتدريب تتولاها هيئة مشتركة من الضباط الألمان والمصريين ، الذين سيضعون معا الأسس لتنظيم جيش نموذجى جديد ، سنطلق عليه اسم « النظام الجديد » .

كان هذا التعبير الذى يعنى نظاما جديدا قد استخدم أصلا لوصف جيش الجد الأكبر لفاروق ، الذى شكله الضباط الفرنسيون على النمط النابوليونى القديم فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، وقد هزم جيش النظام الجديد المصرى فى ذلك الحين الوهابيين ، وقمع الثورة اليونانية فى انتصارات متتابعة ، انتهت بإبادة الجيش العثمانى فى نزيب ، مما وصل بالقوات المصرية الى أبواب استانبول . وكان أحد قواد أجداد فاروق ، وهو سليمان باشا الفرنساوى ، أحد ضباط نابليون وهو الذى حقق فى عشرينات القرن التاسع عشر ما كان فاروق يرغب أن يقوم به شميت بعد هزيمة ١٩٤٨ .

وقد وضعت خطة رئيسية بين فاروق وشميت فى سلسلة من الاجتماعات ، واقترح شميت اسم الفيلد مارشال جودريان ليكون حلقة الاتصال المقيم فى ألمانيا لتجنيد الضباط المناسبين من الجيش الألمانى القديم للجيش المصرى (ومن المهم هنا أن نسجل أن شميت اقترح اسم الجنرال شبيدل كرئيس لأركان قيادة التدريب المصرية ، إذ أن شبيدل أصبح فيما بعد رئيسا لأركان حلف الأطلنطى) وكانت الفكرة التى اقترحت كنتيجة لمناقشات شميت / فاروق هى تشكيل جيش عصرى متكامل على قدر كبير من القدرة على التحرك ، كان متوقعا أن يحدث فيه اندماج للمدفعية المدرعة ، وقوات المشاة المتنقلة . وفى ذلك الحين ، كان الجيش المصرى لا يزال يقدم على أساس قوات منفصلة للمدفعية والمشاة والمدرعات ، بل انه كان يفكر فى تشكيل فرقة للمدفعية ، وهو أمر أثار فزع شميت .

وقال لى الجنرال : « ياسيد ثابت » هذا هراء عسكرى . اننى لم أسمع قط عن فرقة للمدفعية حتى فى جيش فردريك العظيم . انه جنون . ان كل التجارب تشير الى استنتاج أن القوات يجب أن تكون مندمجة ومدربة على التعاون الكلى مع بعضها البعض . ان فرقة البونزر جرنيادير الألمانية تحمل رجالا الى المعركة على ظهور الدبابات ، وتظل المدفعية قادرة تماما على التنقل باستخدام هيكل الدبابة ..

ومن الجوانب الهامة لهذه الخطة ، أن الملك فاروق كان موافقا تماما على اقتراح شميت ، بأنه ينبغى اختيار الضباط الذين أظهروا قدرة على القيادة بعناية على أساس أدائهم فى ظروف القتال الحقيقى ، وكانت الحرب العربية الاسرائيلية فى ١٩٤٨ قد وضعت فى الحسبان ، على أن يوضع الذين أظهروا قدرة على الزعامة فى مراكز قيادية ، ولو تم ذلك ، لكان من المحتمل الى حد بعيد أن يثبت جمال عبدالناصر وصلاح سالم وغيرهما من الضباط الذين شكلوا نواة حركة الضباط الأحرار الثورية كفاءتهم ، ولو وجدوا مراكز مناسبة ومرضية تماما فى الجيش الجديد . ومن سوء الحظ أن الدسائس حول الملك ، والجدل الذى كان يدور حول الخطر السياسى بين الضباط الأكفاء ، وربما الخوف من أن يستخدم مثل هؤلاء الضباط فعلا فى جيش جديد ، هو الذى جعل الحرس القديم بزعامة حيدر باشا القائد العام فى ذلك الحين يعملون على ابعاد عدد من أفضل ضباط مصر الى حاميات نائية بعيدة عن القاهرة وعن الملك فاروق قدر الامكان ، وهكذا كانت بذور ثورة عبدالناصر فى ١٩٥٢ قد أخذت تنبت فعلا .

ومن المؤسف أن الاتفاق بين فاروق وشميت لم يتم التصديق عليه قط ، أو حتى يعترف به حيدر باشا وشركاؤه . وأصبحت المسألة برمتها مسألة

سياسية داخلية بين أولئك الذين يريدون التخلص من حيدر باشا ، وهو شخصية سياسية تحيط بها الشكوك ، والذين يسعون لأغراض مختلفة ، للأبقاء عليه ، ولكن تلك قصة أخرى ، وقد ألمحت اليها هنا ، لأننى أعتقد أنها تلقى بعضا من الاضواء على شخصية ومشكلات الملك فاروق .

ولعل فاروق هو أكثر ملوك منتصف القرن العشرين تعرضا للافتراء وسوء الفهم . اننا نعيش اليوم فى عالم اتصالات فورية عن طريق الاذاعة والتليفزيون وجرائد الأخبار السينمائية ، والتغطية الصحفية : عالم من المرئيات والسمعيات ، تتاح فيه علانية لم يسبق لها مثيل لكل حدث خبرى هام ، وحيث تسيطر الاثارة على نشر الأخبار الصحيحة .. بينما يجرى الترويج لأخبار الجنس ، والماسوشية السادية ، وغيرها من الأخبار الأخرى عن الانحرافات والشذوذ . وكان فاروق باعتباره شخصية معرضة للهجوم والتجريح لا يفلت من اهتمام صحافة الاثارة العالمية ، التى راحت تجعل منه صورة لشخصية الغول الخيالى لحاكم مسلم من العصور الوسطى ، وزاد من تعقيد الأمور أن الصحف الموالية لاسرائيل فى الولايات المتحدة ، والتى تأثرت بشدة بالصورة التى كان يقدمها الممثل اليهودى الكوميدى ادى كانتور فى هوليوود عن الشرق وزعمائه ، مما جعل الصورة الكاريكاتيرية أكثر تطرفا بصورة كريهة . وفوق كل شىء آخر فإن العداء لفاروق داخل الجالية البريطانية ، وخاصة السفير السابق مايلز لامبسون (الذى أصبح فيما بعد لورد كيلرن) ألهمت العديد منهم حبك عدد من السير الذاتية الكاذبة عن حياة فاروق الشريرة بصفة خاصة فيما بعد . وقد بلغ من مدى الافتراء على فاروق أن المرء يتساءل عما اذا كان من الممكن الوصول الى رأى موضوعى معقول عنه .. حتى الآن !

لقد عرف الكاتب فاروق جيدا وشخصيا ، وكانت له بالأحرى علاقة خاصة مع الملك ، فقد كان من أقاربه ، ومعاون له ، ومن ثم فانه يمكن أن يتوقع منه تحيزا لمحاباته بطبيعة الحال ، غير أن التقارير المتحيزة ليست لها أية فائدة كبيرة لأى شخص . وكاتب التراجم الأحمق بصفة خاصة هو وحده الذى يحاول صقل موضوعه بصفة خاصة . وباعتبارى واحدا ممن استمر ارتباطهم بالملك منذ ١٩٣٦ وحتى عشية تنازله عن العرش ، وهى فترة تشاجرت خلالها مع جلالته بعنف ، أبعدنى عن دائرة الملك عدة شهور ، فلعلنى كنت فى وضع فريد لمراقبة الأحداث عن كثب . كانت علاقتى به قوية للغاية ، بحيث كان لها بالتأكيد تأثيرها على اعتقالى فيما بعد لسنوات عديدة حيث قدمت للمحاكمة بواسطة نظام عبدالناصر (وكان بين التهم التى وجهت الىّ يومئذ) (أ) التآمر مع العناصر الرجعية فى الجيش لاعادة النظام القديم و(ب) التخابر مع العدو ، و(ج)

اننى كنت مستشارا لسفارات أجنبية بشأن تجنيد جواسيس مصريين ، كما وصفونى بأننى صنيعة الأسرة المالكة ، واننى تربيت فى قصور الرجعية ، وما الى ذلك .

وفى كل أنظمة الحكم ، يكون الأشخاص ذوو القرب المباشر من مراكز السلطة فى وضع يتيح لهم القيام بأدوار وممارسة نفوذ يتجاوز كثيرا أى منصب آخر . وكانت تلك هى تجربتى لفترة قصيرة . ونتيجة لذلك فإننى أعتقد اننى استطعت النفاذ الى داخل فاروق عن كثب كأى شخص آخر . كان فاروق يتمتع بسحر خاص ، وهى صفة ذات قيمة كبيرة بالنسبة للملك ، وكانت عنده بساطة ، وتلك القدرة على اظهار صداقة ودفء يزيل الشكوك ، مما أكسبه أصدقاء كثيرين ، وكان بالمثل رجلا له عقل شاب ، مستعد دائما للمزاح ، ولديه الحس المصرى الحاد للمرح ، والذى يعد واحدا من أثمن أرصدة أبناء وطننا وأكثرها جاذبية ..

غير أن شبابه أدى فعلا الى اتهامه ـ وقد يكون لذلك ما يبرره احيانا ـ بالخفة والاستهتار الزائد عن الحد . فقد كان يقوم أحيانا بأسخف الحيل على وزرائه ، ويجد ما يسره عندما يضعهم فى مواقف تثير السخرية . وأذكر جيدا مظاهر الاذلال المحرجة للباشوات العجائز ، وبينهم رئيس وزراء سابق ، عندما أطار الملك ، بعد مأدبة عشاء كبرى طرابيشهم من فوق رؤوسهم بعد أن قذفها بثمار الطماطم والخيار بتصويب جيد ، وربما كانت هناك نزعة انتقام معين فى سلوك جلالته ، ولكننى كنت أعرف أنه كان يستاء غالبا من خنوع وزرائه . وكان يقول وهم ينحنون أمامه وأقدامهم الى الوراء ويتصرفون بذل زائف .. « انظر اليهم .. انهم لا يحترمون أنفسهم ، فكيف أستطيع أن أحترمهم » !

كان فاروق ملكا يشعر بإحباط .. تحيط به كل مظاهر الملكية المطلقة ، ويقدم له التبجيل الذى يقدمه الانسان لاله ، غير انه كان يعرف أن قوته وهمية ، وأن اخلاص حاشيته مسرحى الى حد كبير . وخلال الجزء الأكبر من حكمه ، كانت سلطة الحكم الفعلى تحت تصرف السفير البريطانى الذى كان يكن له عداوة شخصية ، ويتمتع بالطاعة بين وزراء فاروق ، بأكثر مما كان يمكن أن يتوقعه لنفسه الى حد معقول . وسوف نرى أن حادث عابدين الذى وقع فى وقت صراع الحلفاء ضد قوات رومل فى الصحراء الغربية عام ١٩٤٢ ، كان فى حد ذاته عملا متسرعا عجل به إذعان رئيس وزراء مصرى ، هو حسين سرى باشا لطلب من السفير البريطانى بإبعاد الوزير الفرنسى لحكومة فيشى فى القاهرة ، فقد قبل سرى باشا طلب لامبسون ، رغم أنه كان يدرك جيدا أن فاروق عارض هذا الاجراء ، واعتبر الاذعان لطلب السفير البريطانى انتهاكا للسيادة المصرية ، وكانت كذلك فعلا ..

وفى اقتناعى أن الآمال الكبار التى وضعت فى فاروق عندما تولى العرش ، كشاب جذاب يتمتع بشعبية واسعة ، كان لها ما يبررها تماما فى ذلك الحين ، إذ كان الملك الشاب الذى يمتلك كل الصفات الضرورية التى يَعيشَ وفقا لها . وكان الشيء الذى ينقص فاروق هو الخبرة والمشورة ، ونوعا من فن ادارة سياسة الدولة الذى كان لدى أبيه من قبله . ولو أن الملك فؤاد عاش فترة أطول ، وكان موجودا بشخصه ليعلم ابنه فنون الملك ، لكتب التاريخ بصورة مختلفة تماما ، ولظل فاروق حيا وحاكما إلى اليوم .. ولكن لنبدأ من البداية ..

الجــزء الأول
ملك فى الانتظار

١ ـ دادات ومربيات :

كانت دادتنا تقول : « ان الملكة نازلى أشبه بملكة البجع فى كتابك الرمادى للقصص الخرافية ، وهى شخصية محبوبة تقرأ الشعر طوال اليوم » ..

وقد أصبحت « سيدة البحيرة » المحبوبة الأثيرية ، بالنسبة لنا بطبيعة الحال ، سيدة كريمة ترسل لنا هدايا فاخرة ، وسأشعر دائما بالامتنان لها على جهاز العرض السينمائى « باتيه بيبى » وآلة التصوير السينمائية ، والمجموعة المعدنية الرائعة المفصلة لتجميع سيارة من طراز ستروين التى بعثت بها الى ، وسلسلة متتابعة كاملة من الهدايا التى تلقيتها عبر السنين بسرور ، والتى بلغت ذروتها بعلاوة شهرية بمبلغ كان يعتبر سخيا يومئذ ، وهو عشرة جنيهات لمساعدة فتى « دون العشرين على شق طريقه » ..

وكان أبغض الأشياء لدى الملكة نازلى هى المربية الانجليزية للبلاط الملكى مسز نايلور . ويبدو أن الملك فؤاد كان يسعى لوضع زمام محكم حول أسرته ، ولهذا الغرض استخدم مهارات مسز نايلور الصارمة ـ التى كانت تحكم الجزء المخصص للأطفال بيد من حديد ، والتى فاقت سلطتها التى يؤيدها الملك سلطة الملكة نازلى .

والمفترض أن مسز نايلور فرضت نوعا من عنابر سجن بريكستون على الأمير الشاب فاروق وشقيقاته الأربع ، ويبدو أن الملكة نازلى لم يكن لها أى رأى فى التعليم المبكر لأطفالها ، وكان يسمح لها فقط برؤيتهم لمدة ساعة تقريبا كل يوم حتى لا تقاطع دراساتهم .

وقد قيلت أشياء كثيرة متناقضة فيما يتعلق بمسز نايلور أو كتب عنها ، حتى

أنه من الصعب تحديدها . كانت بالنسبة للبعض شمطاء مخيفة سليطة اللسان فى منتصف العمر تكره الملكة ، ويشجعها الملك الغيور الذى تقدمت به السن على الابقاء على سيطرة محكمة على الأطفال ، وإبعادهم قدر المستطاع عن تأثير أمهم .

(وقد علمت فيما بعد أن الملكة نازلى كانت قد حاولت وهى فتاة أن تهرب مع عمى الوسيم شاهين ، وربما كان هذا سبب قلق الملك فؤاد) . وكان آخرون يرون أن مسز نايلور هى أداة لهذا التشبث الشرير للسلطة والدسائس والنفوذ فى مقر المندوب السامى البريطانى فى قصر الدوبارة ، والذى يفترض أن مسز نايلور كانت ترسل تقارير سرية عن الأفعال والأعمال السيئة لأطفال الأسرة المالكة .

ومن الضرورى محاولة تصور كل ذلك فى ضوء الحياة بالقاهرة فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، عندما كانت هناك اضطرابات عديدة ، تصحبها تغييرات مفاجئة للحكومة ، حيث كان مسرح السياسةالداخلية المصرى سريع التقلب ، بصورة خاصة . وكان تبادل الاتهامات المرير يعقب أصلامعاملة البريطانيين الفظة للوطنيين المصريين المتحمسين ، بعد أن تمكنت هوايت هول (الخارجية البريطانية) من إثارةما لم يستطع الحكم المطلق لحوالى ٥٠٠٠ عام أن يحققه : وأعنى الانتفاضة الشعبية للجماهير . وهذا الحدث الذى وقع فى عام ١٩١٩ يرمز ، كما سوف نرى ، إلى العجز الفريد للبريطانيين عن البت فى وضع العلاقات بينهم وبين المصريين ، إذ أن مصر لم تكن مستعمرة ولا مستقلة ، بل كانت بالأحرى خليطا ، أو زمالة فراش لا يمكن تعريفها ، وقد عبر عنها فى ذلك الحين بأنها « محمية وراء الستار » وهو موقف زاده سخطا خلع الخديو المصرى خلال الذعر الذى تفشى فى عام ١٩١٤ عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت الحماية على مصر بواسطة لورد كيتشنر العسكرى الصارم الذى كان موضع الإعجاب رغم أنه مكروه .

وقد نشأنا نحن الأطفال ونحن على اقتناع قوى بأن هؤلاء الأشخاص الإنجليز الذين يبدون و دودين ، ليسوا إلا شياطين متنكرين بشكل ما ، وذلك رغم ما كانت تقوله داداتنا ، وأشخاص مثل مس ستونتون المرحة (وهى مربية زائرة متقاعدة ، وكانت سيدة رقيقة دمثة من العصر الادواردى ، كانت تدخل فى محادثاتها عبارات فرنسية دخيلة وتعطينا هدايا تفوق طاقتها) . وكن بالنسبة لبعضنا أعضاء فى أجهزة المخابرات السرية ، وهو تعبير كان ينطق بالطريقة الفرنسية مع تشديد النبرات فى المقطع قبل الأخير .

كان هناك تناقض وغموض دام سنوات طويلة وهو : كيف يتسنى التوفيق بين الأوضاع والمزاعم السياسية البريطانية وبين الأشخاص المحبوبين الذين نعرفهم وشببنا معهم ؟ وبالنسبة لى لم أجد ردا حتى بعد ذلك بسنوات طويلة .. وكان على فاروق أن يواجه نفس المشكلات ، وأعتقد أن ذلك يعطينا مفتاحا لفهمه وتطوره بعد ذلك .

وكان أبوه قد عانى على أيدى الحكام العسكريين البريطانيين المتتابعين ، الذين أعقبوا لورد اللنبى الرجل العظيم المحبوب . وفيما عدا الظروف المذهلة المبهمة التى صاحبت تولى فؤاد العرش تحت رعاية أجنبية ، فقد كان الراجا البريطانى الذى يتخفى فى قصر الدوبارة يلعب بنشاط ، وأحيانا بتلذذ خبيث ، لعبة توازن القوى ، حيث يضع الملوك ضد الباشوات والعكس بالعكس ، وكانت اللعبة تظهر فى حالات المجىء والذهاب ، والمواعيد السرية للسياسيين المصريين فى مقر المندوب السامى البريطانى .

وطوال فترة حكم فؤاد ، كان هناك نشاط اجتماعى مشبوه فى الصالون الأمريكى ، حيث يلتقى الدبلوماسيون مع أعداء الملك . وكان المناخ السائد للتآمر وسط العلاقات النسائية لا يبعث على الاطمئنان . كان لكل عضومن الأمراء فى أسرة الملك الكبيرة عذر أو آخر يمكن استخدامه مقابل الفوز بالولاء وثقة المدعين الموجودين فى كل مكان ، ذوى الثياب المصنوعة فى لندن للقيام بالضغط على ممثلى دار المندوب السامى .

وكان تولى البورجوازيين وزارةالخارجية البريطانية قد بدأ لتوه ، ولا يزال مطلوبا من السياسيين أن يرتدوا ثيابا مناسبة ، وإذا كان الملك فؤاد قد أحس بأنه الهدف رقم واحد ، فهو أمر يمكن فهمه ، لأن الشك كان أمرا طبيعيا . وكانت المناقشات السياسية تحتدم على مائدة غدائنا .

لقد كنا نعرف ، كأى شخص آخر ، أن هناك وكالة مخابرات ذات كفاءة رأسها المدبر هو كبير الخدم السودانى للملك ، الذى قام بتجنيد الجيش الذى يوجد فى كل مكان من « السفرجية » النوبيين والسودانيين (خدم المنازل) الذين يوجدون فى كل بيت ، للتصنت والإبلاغ عن آلاف المحادثات التى تجرى فى القاهرة عن الأفعال التى تحدث فى ذلك الحين .

كان الملك فؤاد على المائدة دائما هو « باسامبو » وبطبيعة الحال ، كان المندوب السامى البريطانى السير مايلز لامبسون هو « ساندرز النهر » حيث كان ادجار والاس شهيرا جدا فى ذلك الوقت . وكان الشيخ المراغى الزعيم الدينى البارز الأشيب الشعر بالنسبة للقصر هو بطبيعة الحال « راسبوتين » إذ كان البعض يعتقد أنه يرأس التحالف الذى أوحى به البريطانيون بين جامعة الأزهر الدينية وبين القصر ، على غرار موقف الكنيسة الإنجيلية والدولة ، وكان المصريون فى ذلك الحين يرتابون فى استخدام سلطات الاحتلال البريطانى للأزهر ، الذى يقوم بدور سياسى هام فى مصر لدعم ملكية غير محبوبة من الشعب (وكان الأزهر فى الواقع جزءا من الفريق الملكى فى تكتلات السياسة الداخلية)

وهكذا كان العداء للبريطانيين هو موضة العصر ، بل وأمر طبيعى ، وكانت هذه يشترك فيهاالجميع فى الجزء الخاص بالأطفال ، وما زلت أذكر بوضوح حادثا وقع بينما كانت إحدى خادمات المنزل تدفعنى فى عربة الأطفال الصغيرة أمام دار المندوب السامى ،حيث صحت بكلمة سباب أمام الحارس البريطانى العملاق الواقف أمام إحدى البوابات ، وهربت الخادم فى رعب متوقعة إجراء عقابيا شديدا . وقد أكد ذلك فى ذهنى الصغير أن الكلمة التى نطقت بها ، كانت

تعبيرا عدوانيا بشكل ما ، غير أننى لم أنجح رغم أسئلتى الكثيرة فى الحصول على التعريف الدقيق لمعناها ... كان كل ما نعرفه جميعا أنا والخادمات المصريات أن الإنجليز يستخدمون هذه الكلمة فى كل مناسبة ممكنة . وأنها كما يفترض عنصر هام فى محادثاتهم ، ولكن الدادة التى كانت تعرف معناها رفضت أن تذكره لى .

وكان هناك مجال تكون فيه اللغة الانجليزية فى وضعها الخاص ، وهو « الكتب » وكلما سأل أحد عن نوع الهدية التى ستكون مقبولة من الأمير الصغير فاروق ، كان الرد دائما « الكتب » . وفى تلك الأيام كان الناشرون البريطانيون يخرجون كتبا سنوية مطبوعة ومجلدة بصورة فاخرة . وكانت التقاليد فى انجلترا تعتبر الكتاب السنوى هدية رائعة لعيد الميلاد ، فقد كانت تلك الكتب تنتج بإسراف . وكان الفنانون المشهورون يجندون لرسم أو تلوين الصور الرائعة فيها ، وتغطى الكتب بأغلفة مصقولة لا تتلف ، وقد طبعت بألوان محبوبة . ولا تزال الكتب السنوية التى تصدرها « اوكسفورد » للصبيان والبنات ، وتحف أخرى من مكتبة الأطفال فى العصر الادواردى تنشر حتى الآن .

كانت قصص المغامرات المفيدة ، وكتب عن الشجاعة والإخلاص ، بل وكل فضائل العصرالفيكتورى العظيمة التى ساعدت على بناء الإمبراطورية البريطانية ممكن الحصول عليها ... موكب حقيقى من مواد القراءة ترمى إلى زيادة وتحسين النصائح النبيلة لكتاب كبلنج « إذا » ... لقد تعرفنا على كابتن ماريات ، وروبرت لويس ستيفنسون ، وجيمس فيمنيمور كوبر ، و ج. ا. هنتس ، وتشارلز كنجزلى وكثيرين غيرهم . لقد تخرجنا ونحن من بعض النواحى على قدر من المعرفة عن بياتريس بوتر عن طريق بيتريان لجيمس بارى ، وكريستوفر روبن وبوه للكاتب ا. ا. ميلنى ، وإلى هربرت سترانج ، وإبداعات بيجلز للكاتبة و. ا. جونز .

وكان فاروق بطبيعة الحال قد قرأ كل ما أمكن الحصول عليه فى هذا الحقل الخصيب للثقافة البريطانية ، وعندما تجاوز العاشرة ، كان قد حصل على معلومات شاملة عن وسائل البريطانيين ، وقد أثمر ذلك نوعا من تكافؤ الضدين ، مماثل دون شك لما مر به أبناء مهراجات الهند ودوقات استراليا ، الذين كانوا يقدرون الدادات الإنجليزيات ، ويتعرضون لنفس تدريبات الحضانة الإنجليزية فى عصر الملك إدوارد . وقدكتب الكثير عن هذه السلالة المتميزة للغاية ... الدادة الإنجليزية . وعندما أصبح المرء أكبر قليلا ، كانت هناك امرأة إنجليزية أكثر تفوقا تصل إلى المسرح : إنها المربية ... وكانت وظيفتها أن تحدث تنويرا ثقافيا للعقول الصغيرة التى عهد بها إليها . وكان جزء كبير من جهدها موجها إلى استئصال اللهجات الشعبية التى نشرتها بينهم بعض الدادات الأقل « نبلا » وقد شعرنا بشىء من ذلك الانتماء للصفوة الذى قدم بصورة مثيرة للغاية للعالم الحديث فى المسلسلين التليفزيونيين « الناس اللى فوق » و « الناس اللى تحت » .

كانت مربيتنا أو مدرستنا ـ كما كانت مس برودينت تفضل أن تسمى ـ موجودة أساسا من أجل أختى ، التى كانت ستتلقى كل تعليمها فى البيت ، وقد أرادت أمى ، التى كانت تخشى الآثار المفسدة ،والأمراض الشائعة فى المدارس ، أن تتلقى ابنتها نوع التربية الذى مرت به هى فى صغرها . والحقيقة أن مربية أمى السابقة الهزيلة التى كانت تشبه كيتشنر ، وتدعى مس ويتمان هى التى كلفت بإحضار سيدة مناسبة لأسرتنا ، وقد وجدتها فيما يمكن أن يكون بيت راع لإحدى الكنائس فى سافولك ، وباستثناء أن أسرة مس برودينت كانت متدينة ، تعتنق فرعا غامضا نوعا ما من البروتستانتية ، فإنهم كانوا يعتنقون آراء شديدة تتعلق بأى شىء ضد البابوية . وكانت تحفظاتهم تمتد إلى البابا نفسه وإلى الكنيسة الإنجيلية ، وأى شىء يرتدى فستانا سواء كان كاثوليكيا أو غيره .

كان والد مس برودينت ـ هايمر ـ برودينت ـ كاتبا للموضوعات الدينية ،وكان ناشروه بيكرنج وانجلز يرسلون إلى ابنته بالقاهرة نسخا من أحدث كتبه مثل كنيسة المهاجرين وجيرمياه ، وكان السيد برودينت يحظى بإعجابنا عندما صور بنجاح تام أسلوب أهل الملايو فى تسلق شجرة نخيل بأقدام عارية ، بشبك أصابع القدمين فى الأجزاء البارزة من الشجرة ... وكان رجلا صغيرا ذا لحية ، فى عينيه بريق . وقيل إنه استأصل زائدته الدودية بنفسه وهو يعمل فى رحلة للجمال عبر صحراء جوبى ... لقد كان رجلا غير عادى للغاية !

وقد جاءت مس برودينت ، واسمها الأول دوروثى إيثيليون ، إلينا وهى فى عقدها الثالث ، ولم تكن قد تزوجت بعد ، ولكنها كانت تضع إلى جوار فراشها علما بريطانيا مزينا بصورة خطيبها جيفرى ، الذى قتل خلال الحرب العالمية الأولى . ولم تكن تبكى كثيرا لفقده ، ومع ذلك فقد كانت مخلصة بشدة لذكراه . ورغم أنها كانت جذابة إلى حد يكفى لإثارةاهتمام الذكور ، فإنهالم تكن تسمح لأحد بالدنو منها ، وبدلا من ذلك كرست نفسهاللمسيحية وكانت تجد فى شقيقتى وأنا ، وفيما بعد فاروق وشقيقاته أهدافا لأنشطتها لتحويلنا عن ديننا .

ولم تكن لتخفى نواياها ، وقد ذكرت لأمى بوضوح تام ، أنها سوف تلقننا دينها لأن ضميرها لا يسمح لها أن تفعل غير ذلك . ولما كنت فى ذلك الحين معرضا لمساعدات من الآباء الجيزويت فى المدرسة ، فقد اقتنع أبوانا المسكينان بأن طفليهما فى خطر من التحول إلى المسيحية ، وهو مصير أسوأ من الموت فى رأيهما . ولما كانت أمى غير ملمة بالتعقيدات والمنافسات المذهبية للكنائس والعقائد التى تواجه بعضها البعض ، فإنها لم تدرك أن جهاد مس برودينت المتزمت الكرومويلى سوف يقضى على الأرجح على أى تقدم يمكن أن يأمل باباوات الجيزويت أن يحققوه ، ومن ثم فقد هرعت إلى الشيخ شندى المدرس العجوز بالأزهر لنجدتها .

وجاء الشيخ شندى ليعطينا دروسا فى القرآن الكريم لمدة ساعةبعد ظهر كل خميس . وكان يبدأ بتوزيع الحلوى علينا .. ثم يشرع فى ترتيل كلمات رائعة بصوت رخيم ،وكان علينا أن نعيدها بعده ، ولكن التدريب كان عادة أكثرمما

يحتمله . وعلى أية حال ، فقد كان الدرس يبدأ بعد الغداء مباشرة ، وسرعان ما تنحنى رأس الشيخ شبندى ويستغرق فى نوم القيلولة بعد الظهر . وكانت شقيقتى وأنا نتنفس الصعداء ، ونتحول نحو هوايات أكثر جاذبية ... ولا حاجة للقول بأن هذه التجربة جعلتنا مسلمين ثابتى الإيمان .

وكانت دروثى بروديت صغيرة الحجم ، ولكنها قوية العضلات ، ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبى طويل . وقالت لنا إن الإنجيل يشير إلى شعر المرأة بأنه المجد الذى يتوجها . وكان من الممكن لهذا السبب أن تولى مس بروديت شعرها اهتماما كثيرا ، وكانت تقول : « يجب أن يغسل بالمـاء » وكبديل لذلك كانت تستخدم زجاجة بها سائل ذو لون بنى باهت له رائحة نفاذة ، غير أنها كانت تشطف شعرها بعد ذلك بالمـاء ، ثم تجلس وتمشط الخصلات الذهبية الرائعة فى الشمس . وكانت لها ملامح منتظمة لطيفة من النوع الذى يمكن أن يجعلها جميلة للغاية لو أن لديها الرغبة أو الميل للعمل شىء بشأنه ... ولكن يا للأسف ، فبعد موت جيفرى فقدت « ديب » كما كانت تسمى نفسها كل اهتمام بالجنس الآخر ، فيما عدا أنها كانت تعتبرهم منافسين لكى تتفوق عليهم ببراعة كبيرة فى فضائل بناء الامبراطورية .

وكانت مس بروديت رائدة لا تبارى لتحرير المرأة ، فقد كانت تزعم أنها تستطيع أن تقذف كرة الكريكيت إلى أبعد ما يستطيع أى رجل ، وكانت على استعداد لأن تتحدى أيا من الذكور فى المصارعة الرومانية ، أو أكثر الرياضات الإنجليزية شعبية المعروفة باسم « العصا الواحدة » كما كانت رئيسة أول فريق لهوكى الأحد عشر بمدرسة هينستر هاوس . وكانت ترتدى بفخر أول سترة للفريق فى المناسبات العامة . وكانت سترة بديعة بيضاء اللون ذات حواش ذهبية ، وقد طرزت على الجيب بالأحرف الأولى لاسم الفريق بزركشة ذهبية تتألق أمامنا ، مما يجعلنا متأثرين للغاية .

وفى المناسبات الأقل شأنا ،كانت مس بروديت ترتدى السترة ذات اللون الأزرق الداكن لفريق الهوكى ، أما فى عيد الامبراطورية أو يوم الهدنة ، فكانت ترتدى الشعارات الملكية لمرشدات الكشافة ، وتتكون من زى المرشدات تعلوه قبعة من طراز « ديجر » من النوع الذى ترتديه المرشدات ، على غرار أحد ألوية الجيش الهندى القديم . وكانت تضيف إلى الثوب والقبعة صفارة ، وحبالا قصيرة ، وقطعا أخرى رشيقة من معدات المرشدات . وكانت « ديب » كلما خرجت للسير ، حملت معها دائما بوصلة ، وصفارة وحبلا إن كان السير فى الريف ، ودوبارة إن كان ذلك فى المدينة . وبطبيعة الحال مطواة الكشافة ذات الأغراض المتعددة ، وهكذا فإنه حتى فى نزهاتها الهادئة على الأقدام فى شوارع المدينة الحافلة بالحوانيت ، كانت تبدو فى مظهر شجاع وكأنها فى رحلات استكشافية فى الأدغال !

وكانت الروح النشيطة بمدارس « أوت وأرد باوند » التى ذهب إليها دوق ادنبره ، وأمير ويلز فى أيامهما ، تجدها دائما حول مس بروديت وكان من الواضح أننانحن أيضا مقدر علينا أن نتدرب وفقا لتقاليد بناة الامبراطورية

البريطانية الشبان . وإذا كانت مس بروديئت قد حظيت بقدر من الاهتمام هنا ، فإن ذلك كان بسبب انه كان مقررا أن تتسلم تنشئة أبناء الأسرة المالكة من مسز نايلور . والفروق النشيطة للروح البريطانية التى تعرضنا لها ، وجهت بالمثل للملك فاروق وشقيقاته . والقول بأنه لو أتيحت الفرصة « لديب » لتفوقت على الآباء المهاجرين ليس فيه أية مبالغة .

لقد شرعت منذ البداية فى العمل باستمتاع شديد على ما كانت تسميه أرواحنا ، وكانت الحياة مع مس برودينت مشوقة ، مستنيرة ومتحدية ، وكنا عقب دروس الصباح نتناول الغداء مع أبوينا بناء على طلب مس برودينت وكانت تقول : « ان الأطفال ياسيدتى يجب أن يتعلموا الجلوس على المائدة وتبادل الحديث ، وأن يكونوا مؤدبين ويراعوا آداب الأكل فى صحبة الغير » .

وهكذا فإننا ابتداء من سن العاشرة وما بعدها ، كنا بفضلها نتناول طعامنا مع الكبار ، فى وقت الغداء على الأقل ، وحتى عندما يكون هناك ضيوف ، فقد كنا نتوقع أن نشاركهم ونشاطرهم الحديث ، مادامنا نستطيع تجنب أن نكون « بلهاء » .

وفى المساء تنتقل الحياة الى قاعة الدراسة ، التى كانت مزدوجة كغرف للعب الأطفال ، وبعد الحمام والعشاء ، كانت مس برودينت تقرأ لنا لمدة ساعة أو نحو ذلك لمؤلفين لا من العصر الفيكتورى فحسب ، بل انه فى مناسبات أكثر بهجة كانت تقرأ من كتاب « وليم » للكاتب ريتشماك كرومتبون ، وهذا الأخير كان شيئا صغيرا لا يعتد به بالمقارنة بكتاب « لم يفت الأوان بعد للاصلاح » بقلم تشارلز ريد ، وهو كتاب ثقيل وطويل من المغامرات ، وكان كما قالت مس برودينت شكل عاملا كبيرا فى اصلاح لتغيير نظام العقوبات البريطانى . وكانت الكتب الأخرى من النوع التقليدى بشكل أكثر مثل « هو » الى الغرب » تحية للمغامر ايفانهو ، آخر الموهيكان ، وهو القوت الفيكتورى للأطفال ، وبعد أن تنتهى من قراءتها الليلية ، كانت مسز برودينت تقودنا الى الفراش ثم تركع للصلاة فى صمت الى جوارنا ..

وكانت تقول لنا فى تحذير أنه عندما يكون مقدرا للأشخاص الذين نكون قريبين منهم أن يرحلوا الى المكان الآخر ، فإنى أصلى من أجلهم » ..

وعقب انتهاء الصلاة ، كانت تتجه الى غرفة المعيشة ، وتعزف سلسلة من الترانيم بصوت خافت على البيانو . ومازلت أذكر « زهور الجليل » « وأمكث معى » وكثير غيرهما . وكانت بين حين وآخر تخرج كمانها الثمين للغاية وتقول لنا « انها أماتى » .

وكانت تعزف عليها ترجمة كريزلر لمقطوعة « هيومريسك » لدفوراك وتنتهى عادة بأغنية « هدهدة الطفل » لشومان .

وكانت مس برودينت شديدة الاهتمام بالطيران ، وقد علمت فى ذلك الحين أن هذه الرياضة ميسرة فى مصر ، وكان الحصول على دروس فى الطيران على طائرات باكسر « الطالب » ذات المقعدين مقابل حوالى ٥٠ قرشا للساعة . وقد انغمست فى هذا النشاط بطاقة متميزة ، واجتازت كل الاختبارات اللازمة

للحصول على تراخيصها المختلفة ، وحققت خلال السنوات التالية إمنيتها فى أن تصبح مؤهلة كطيارة لطائرة ذات محركات متعددة ، ولما كانت قد شبت مع الجيل الأول من قادة الطائرات المصريين فقد كانوا على استعداد دائما لدعوتها الى كابين الطيار فى طائراتهم من طراز فايكونت وكوميت عندما كانت تسافر بعد أن تقدمت فى السن عائدة الى انجلترا لقضاء عطلاتها الصيفية هناك . وفى احدى المرات كتبت صحيفة صانداى تايمز عنها باعتبارها من شخصيات الجالية البريطانية التى بقيت فى مصر حتى أواخر الستينات .

هذه هى السيدة التى تولت العمل بعد مسز نايلور المربية ، عندما قامت الملكة نازلى بعد وفاة الملك فؤاد فى ١٩٣٦ بفصل دادتها المزعجة ، واضطلعت مس بروديت بعملها فى القصر بطاقتها المعهودة ، وقد جلبت اليه امدادات من مواد الدعاية الايفانجيلية من الكتب المقدسة والاناجيل لتوزيعها على جلالة الملك وموظفى القصر . وكانت المهمة التى قامت بها كفيلة بأن تسخر من أكثر الآباء المهاجرين عزما ، وذلك بإضفاء الطابع الانجيلى على قلعة الاسلام الحصينة بقصر فاروق ، ولكن مس بروديت كانت تؤمن يومئذ بالمعجزات .

وكانت تتمتع بعلاقة ودية مع فاروق ، وإن كانت مهمتها الأساسية مع شقيقاته ، ولكن لاشك فى أن خلفية الملك الشاب ، الذى تولى الملك فى الوقت الذى وصلت فيه مس بروديت الى القاهرة ، خلقت روابط بين الاثنين ، وإن لم تصل الى مستوى ما فى قصة « أنا وملك سيام » ولكن كان هناك شىء مألوف بشأن المواجهة بين المربية (أو المدرسة) الانجليزية وبين ملك شاب كان لايزال مفعما بالأمل .

●●●

٢ ـ الأمير طالب الكلية العسكرية

حدث لقائى الأول بفاروق فى صيف ١٩٣٦ بعد عودته من الأكاديمية العسكرية فى انجلترا عقب وفاة أبيه الملك فؤاد فى ابريل من ذلك العام . وكانت الملكة نازلى بعد وفاة زوجها قد فصلت مس نايلور فورا ، وسألت أمى عما اذا كان فى استطاعتها أن توفر لها بديلا واقترحت مس برودينت ، وكذلك مس ليندساى ايليس ، التى كانت حتى ذلك الحين رئيسة للحكيمات فى مستشفى قصر العينى . وكانت الأيام الأخيرة من حياة الملك فؤاد زاخرة بالأحداث ، وعندما كان الملك العجوز يحتضر فعلا ، اتصلت الملكة نازلى بأمى تليفونيا .

وقالت : « ان فؤاد يحتضر ، وهناك شائعة بأن البريطانيين سوف يضعون الأمير محمد على على العرش بدلا من فاروق ، ولابد أن نفعل شيئا بسرعة » .

ودعى مؤتمر للانعقاد على عجل فى بيتنا بقصر الدوبارة ، مع شريف صبرى باشا شقيق الملكة نازلى ، ووكيل وزارة الخارجية فى ذلك الحين . وتقرر ارسال برقية الى فاروق للعودة للوطن من انجلترا فى أسرع ما يمكن ، وأن تطلب الحكومة المصرية رسميا من السلطات البريطانية اعادة وريث العرش الشاب من أكاديمية وولوتش العسكرية بطريق الجو وتم تنظيم الدعاية المناسبة فى الصحف .

ويحتمل أن يكون البريطانيون قد أخذوا على غرة قبل أن يتاح لهم الوقت حقا تنظيم بديل لترتيبات صنع الملك ، ولعل هذه الترتيبات كانت ستتخذ شكل بلاغ يصاغ بصورة مناسبة ، يوحى بأن فاروق صغير للغاية ، وانه سوف تتاح له فرصة انهاء تعليمه ، وانه على أية حال فانه لما كان الحق الالهى لوراثة الملك لم

يكن له وجود فعلا فى بلد اسلامى ، فإنه سيكون من الأفضل لكل من يعنيهم الأمر ، لو أن رجلا أكبر سنا وضع على العرش ، وانه ليس هناك مرشح أفضل من الأمير محمد على توفيق الذى يبلغ التسعين ، والذى كان الوريث صاحب الحق دون منازع ..

وقد يعن لنا أن نتوقف هنا لنستطرد قليلا . لقد كان الملك فؤاد تواقاً منذ البداية لأن يجعل من ابنه ملكا مصريا يختلف عن أى ملك عثمانى أو تركى . وقد تزوج هو نفسه فتاة من عامة المصريين هى نازلى التى كانت ابنة عبدالرحيم صبرى باشا . وكانت دراسة فاروق ، فيما عدا اتمامها فى أكاديمية عسكرية بريطانية ، معهودا بها الى ضباط برتبة لواء ووزراء مصريين ذوى مشاعر وطنية مصرية ثابتة ، وكان الفريق عزيز المصرى باشا ، وهو من كبار العسكريين الملتهبين حماسة فى ذلك الحين هو المرشد العسكرى الخاص للأمير الشاب فى وولوتيش مما كان لا يرضى عنه مقر المندوب السامى البريطانى بالقاهرة على الأرجح . وعلى النقيض من ذلك كان الأمير محمد على توفيق ، الابن الكهل للخديو توفيق والذى يعيش مع عشيقته الفرنسية فى قصر المنيل ، مولعا الى حد كبير بممارسة هوايات العصر الادواردى الأنيقة للسادة المهذبين ، مثل قتال الديكة والبيلياردو ، وكان أبعد ما يكون عن نوع الشخصية السياسية الوطنية ذات السحر الخاص ، التى ربما كان البريطانيون يعتبرونها مزعجة .

ولعل دار المندوب السامى البريطانى قد ساورها الشك فى أن الملك فؤاد كان يربى فاروق ليكون أميرا مصريا وطنيا من النوع الذى سوف يصطدم معهم حتما ، وهناك ما يبرر ذلك ، ولا سيما اذا كان للفريق عزيز المصرى باشا أية صلة بذلك ، ولهذا كان مناخ « سجين زندا » يسود دوائر البلاط المصرى فى ذلك الحين . ولعل الحقد الذى لا يمكن تفسيره الى حد ما والذى نشأ على الفور بين المندوب السامى البريطانى سير مايلز لامبسون والملك الشاب فاروق قد عززته الظروف التى وصفناها ، إذ انه لم يكن هناك أى سبب واضح لعدم حب لامبسون « للغلام » كما كان يسمى فاروق ، الذى كان فى ذلك الحين تلميذا فى السادسة عشرة من عمره ، والذى كان يستحق قدرا من المعاملة الأبوية والودية . ومن المحتمل أنه كان لدى سير مايلز احساس قوى بملاءمة الأمير محمد على توفيق ، من حيث المصالح البريطانية ، وان فاروق أصبح دون أن يدرى رمزا للفشل الدبلوماسى للرجل الذى سيصبح سفيرا فيما بعد ، فى محاولته لصنع الملوك بطريقة حكيمة . وكان من العوامل التى سرعان ما أصبحت ظاهرة ، ذلك التأييد المثير الذى استطاع فاروق الشاب أن يولده بين الجماهير المصرية . هنا ، ولأول مرة ، كان هناك عضو فى أسرة محمد على يتحدث العربية بصورة عكسية ، كما أصبح بالمثل وطنيا مصريا متحمسا فخورا بذلك ، وهى حقيقة كلفته عرشه على المدى الطويل .

وعندما أنظر الى الأمور الآن ، فإننى أعتقد أنه كان من الأفضل لفاروق ألا يتولى العرش وهو لم يزل دون العشرين ، وبدلا من ذلك كان من الممكن للأمير محمد على أن يتولى الحكم فترة ، كملك لا لون له ، ولا ضرر منه ولا يثير

الجدل حوله ، والذى كان اهتمامه الرئيسى سيكون مراعاة البروتوكول الصحيح فى الحفلات الرسمية فى كل الأوقات .

غير ان ولع الأمير الأساسى كان العناية بقصر المنيل الذى أقيم على طراز عمارة البربر (وهو اليوم فندق يديره الفرنسيون) على جزيرة الروضة ، والجلوس تحت ظلال أشجار تين البنغال فى حدائقه . لقد كان الأمير محمد على توفيق متحذلقا أنيقا لا ضرر منه ، وقد أعد كتيبين طبعهما ، واللذين يتكونان كلية من قوائم طويلة للشخصيات الشهيرة التى التقى بها صاحب السمو خلال حياته ، وهى تتضمن الملك جورج الخامس ودوجلاس فيربنكس ومارى بيكفورد وكذلك شارلى شابلن ، وكان الأمير رجلا قصيرا هشا ، يتباهى بلحية أنيقة على غرار فان دايك ، ومن الممكن أن يظنه من يراه أنه نسخة مسرحية من تشارلز الأول .. وكان يضع على رأسه طربوشا ، ويرتدى رباط رقبة عريضا مثل « أوجتوس جون » وسترة صباح سوداء ، وبنطلونا أسود مخططا (بنطلون البونجور) وحذاء أسود اللون مدببا ومصقولا بينما تبدو بعض مظاهر الحزن عليه .. وقد مات فى النهاية فى المنفى بلوزان خلال عهد عبدالناصر .

وفى تلك الأيام ، كان الأمير ، رغم مرضه واصابته بالصرع وهزال جسمه ، ينتمى الى السلالة الارستقراطية التى يمكن الاعتماد على انها ستعيش طويلا رغم المرض .. كان رجلا يبصم على أى شىء دون شكوى مما كان سيجعله مناسبا للغاية لأسطورة الحكم الذاتى الوطنى التى كان تروج لها أياد أجنبية مختفية ، من أجل تنفيذ توازن دقيق لحكم استعمارى ، ولم يكن فاروق الشاب هذا الرجل ! ولكننا سوف نعود الى هذه المسائل فيما بعد ..

لقد غادر الأمير فاروق الشاب القاهرة الى انجلترا وأكاديمية وولوتيش العسكرية الملكية ، وهو يافع فى الخامسة عشرة من عمره وسط الكثير من الدموع من أمه المحبة وشقيقاته . ولماذا ذهب الى وولوتيش وليس الى كلية ساندهيرست الملكية العسكرية ؟ كان هناك سبب محتمل خفى لذلك ، وان كان من المستحيل القول عما اذا كان ذلك من اختيار الملك فؤاد ، أم أن الاقتراح جاء من البريطانيين . ان ساندهيرست ، بما لها من خلفية ارستقراطية أكثر ، كانت ستبدو انها المكان المناسب ، ولكن لعل سمعة وولوتيش فى الميادين العلمية للمدفعية وتعيين المدى جعلها تعتبر مدرسة أكثر أمانا لشخص قد يصبح ملكا شابا ووطنيا نشيطا ذا عقيدة معادية للبريطانيين . وعلى أية حال فقد كانت ساندهيرست هى الطريق الى كلية أركان الحرب ، والتعيين فى النهاية فى الأركان العامة ، حيث يمكن الحصول على المهارات التى قد تستخدم ضد البريطانيين :

كانت تلك هى الأشياء التى تشغل بال الامبراطورية ، وينبغى أن نذكر أيضا أن التعارف الوثيق للغاية بين فاروق والارستقراطيين الشبان المعادين للمؤسسة كان أيضا أمرا غير مرغوب فيه .. وكانت تلك هى الفترة التى يوشك أن يرتقى العرش البريطانى ملك معاد للمؤسسة ، وكيم فيلبى ودونالد مكلين وغيرهما يجرى تجنيدهم بنجاح ملحوظ كعملاء للشيوعيين ، وعندما اقترع شبان انجليز من ذوى الحسب فى المناقشة الشهيرة باتحاد اكسفورد ضد « الموت فى سبيل

الملك والبلاد » ؟

كانت الحياة فى الأكاديمية العسكرية ، كما قيل لنا ، لطيفة ، وكإعفاء خاص سمح لفاروق بالنوم خارج المدرسة . وقد تم استئجار منزل مناسب على شكل كيزى هاوس فى ريتشموند ، وهنا أقام الأمير الشاب أسرة يسيطر عليها أحمد حسنين باشا الدمث الخبير بالحياة ، ومرشده العسكرى الخاص عزيز المصرى باشا البالغ الذكاء ، المزعج والخطير . وباعتبار حسنين باشا النظير الدبلوماسى لعزيز المصرى فى حاشية الأمير ، كانت هناك سمعة بأنه عميل للسياسة البريطانية ، وهو أمر غير منصف للرجل ، فقد كان الى حد كبير رجلا ذا عقلية انجليزية ، مقتنعا بشدة بأن معركة واترلو تم كسبها على ملاعب ايتون ، وان ادمان البريطانيين للرياضة والحياة الصحية هما جوهر الحكم الكفء وباعتباره نتاجا لعصر « اذا » لروديارد كبلنج ، فإنه لم يكن من العسير حقا أن يصاب السيد أحمد حسنين باشا تماما بالاعراض السائدة فى دار المندوب السامى فى قصر الدوبارة .

وكان أيضا رجلا ذا جاذبية طاغية يتمتع بإغراء لا يقاوم من السيدات ، ولما كان قد تلقى تعليمه فى بريطانيا بإحدى المدارس العامة ، وجامعة اكسفورد ، فقد عين سكرتيرا للجنرال ماكسويل ، عشماوى الشهير الذى شنق زعماء عصبة انتفاضة عيد الفصح فى دبلن عام ١٩١٦ وصحب روزيتا فورمس الجميلة فى رحلتها الى واحة الكفرة السرية فى جنوب ليبيا ، وكان أحد البارزين فى العديد من قاعات الاستقبال بالقاهرة ، كان حسنين نحيلا ، طويل الأنف ، وذكيا ، ولا أريد أن أصدر أية أحكام هنا على دوافعه . وسواء كان ولاؤه الأساسى لأصدقائه البريطانيين أم أن ولاءه لفاروق كان أكبر ، فهذه مسألة تحتاج لدراسات ومناقشات فى المستقبل .

وكان حسنين ينتمى الى تلك المجموعة من السياسيين المصريين ، ومازال هناك الكثيرون منهم ، الذين يعتقدون أن مصر دولة أصغر وأضعف كثيرا من أن تمارس سياسة خارجية وطنية مستقلة ، ومن ثم فإن مصلحة الملكية تتطلب تعاونا أكثر من العادى مع الدولة العظمى المحتلة . وبالنسبة لحسنين ، كان مستقبل فاروق مثل بلاده ، يعتمد مع الوجود المستمر وصالح بريطانيا . كما انه أصبح بطلا لاتصال حظى بدعاية جيدة مع أم الملك ، الملكة نازلى ، وكان مفترضا أنه عقد زواجه عليها مما أصاب فاروق بفزع بالغ . وقد مات فى حادث مرور على كوبرى قصر النيل فى يوم مطير نادر فى ١٩٤٦ .

أما عزيز المصرى باشا ، فكان نوعا مختلفا تماما من الرجال ، كان قصيرا نحيلا ، ضئيل البنيان ، ولكنه مثل كثيرين من طرازه ، كان ما يفتقر اليه فى الجسم يعوضه الوفير من الذكاء والطاقة . وكان يستطيع أن يبدو بمظهر هادىء مخادع ، لطيف عندما يريد ، ولكن وراء هذه الواجهة المطمئنة كان يكمن عقل ثورى وطاقة لا تلين ودهاء ، وقد نشأ مصاحبا لأعمامى التسعة ، تحت رعاية

جدى محمد ثابت باشا ، ومن مدرسة الناصرية فى القاهرة ، وكانت منبتا للوطنيين المصريين المتحمسين ، توجه مباشرة الى الأكاديمية العسكرية فى استانبول ، وكان بين رفاقه هناك أنور باشا ومصطفى كمال ، الذى يعرف لدى الأجيال التالية باسم « أتاتورك » وتخرج فى كلية أركان الحرب فى ١٩٠٤ ، وعين فى أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونيا ..

ولم يكد عزيز المصرى يغادر الأكاديمية حتى أصبح عضوا قوى النفوذ للجنة الثورية للاتحاد والتقدم التى دبرت الثورة الناجحة ضد السلطان عبدالحميد فى ١٩٠٨ وكان يقود السرية التى استولت على جسر جالاته وهاجمت قصر السلطان وأقنعت حرس السلطان بالاستسلام ..

ومضى ليقوم بدور نشيط فى حرب تركيا مع الايطاليين فى ليبيا عام ١٩١٢ وسرعان ما اصطدم مع أنور باشا حول ايمانه بالوحدة العربية . وقد ظل دائما الرجل الثورى . فكان المحرض على عدد من المبادرات السياسية التى لا يرتاح اليها الأتراك ، واتهم بحق بتدبير مؤامرة لتمرد عسكرى عربى داخل صفوف الجيش التركى الرابع . وفى ١٩١٤ كانت هذه المجموعة تضم ما لا يقل عن ٤٩٠ ضابطا عربيا فى الخدمة ، كان ٣١٥ منهم أعضاء فى جمعية عزيز المصرى السرية « الأحد » . وكان دستور تلك الجماعة تثير قراءته الاهتمام .

انه تكفى اشارة الى ما كان يمكن توقعه من اى تأثير كبير كان يمكن أن يمارسه على عقل وأنشطة الأمير الشاب فاروق .. وهو احتمال أزعج البريطانيين بلاشك . وفيما يلى نص الدستور وتحديد أهدافه :

١ ـ الأحد رابطة سرية تأسست فى القسطنطينية . هدفها الاستقلال الداخلى للدول العربية ، على أن تبقى متحدة مع حكومة القسطنطينية كما أن المجر متحدة مع النمسا .

٢ ـ ترى رابطة الأحد ضرورة الابقاء على الخليفة كأمانة مقدسة فى أيدى الأسرة العثمانية .

٣ ـ تعتقد الرابطة أن القسطنطينية هى رأس الشرق ، ولا يستطيع الشرق البقاء اذا انتزعت عنه بواسطة دولة أجنبية . ومن ثم فإن الرابطة مهتمة بصفة خاصة بالدفاع عنها والحفاظ على أمنها .

٤ ـ لقد أقام الأتراك أول خطوط دفاع للشرق فى وجه الغرب طوال ستة قرون . ولابد أن يكون العرب على استعداد بتوفير قوات الاحتياط لهذه الخطوط .

٥ ـ يجب أن يبذل أعضاء « الأحد » كل ما فى وسعهم لغرس هذه الفضائل ، وحث الناس على الأخلاق الطيبة ، إذ لن تستطيع أية أمة أن تحفظ كيانها الوطنى السياسى ، اذا افتقرت الى الأخلاق الحميدة .

وليس من الصعب تصور رد فعل لامبسون العنيد ، ازاء النبأ القائل : بأن عزيز المصرى باشا القائد الذى اختير لمصاحبة فاروق الشاب الى أكاديميته

البريطانية ان عزيز يمكن بالتأكيد أن يعهد اليه بإبطال آثار أى غسيل مخ بريطانى على العقل الملكى الشاب ، وكان من الممكن ـ فى رأى لامبسون ـ أن يملأ رأس الفتى بأفكار حمقاء وخطيرة ، والواقع أنه خلال الصراع الذى تلا ذلك ، تفوقت خدع الدبلوماسى على دهاء المهارات التكتيكية للجندى . ويبدو أن حسنين شجع فاروق الذى كان يتمتع بتحرره من كبت مسز نايلور ويتذوق بعض متع الحرية ، وقد أصبح ذلك أمرا ممكنا بالاستثناء الخاص الذى سمح للأمير المصرى بعدم النوم فى الثكنات مع بقية زملائه طلبة الكلية ، بل كان يعيش فى ترف فى كيزى هاوس ..

ولقد يستنتج المرء أن الاشارة الى الابقاء على الخلافة الوارد فى المادة الثانية من برنامج « رابطة الأحد » كشف عن اقتناع فى وجهة نظر عزيز المصرى بأن مثل هذه المؤسسة رغم القضاء عليها فى استانبول فإن من الممكن إحياؤها فى القاهرة فى مرحلة تالية ، على أن يكون فاروق الشاب الواعد ، الذى يتحدث العربية هو ممثلها الرئيسى ، ولم يكن مثل هذا الاحتمال كفيلا بأن يؤثر على البريطانيين أو يرتاحوا اليه ، أو على حسنين باشا على مر الوقت ، ومن ثم فإن وجود عزيز باشا فى حاشية فاروق فى كيزى هاوس لم يدم طويلا ، وهو أمر كان من الممكن التنبؤ به . وهناك أدلة قوية تشير الى أن هناك دسيسة كانت تدبر لابعاد عزيز المصرى عن كيزى هاوس ، ويبدو أن حسنين شجع الأمير الشاب على أن يعيش فى انجلترا بصورة أكثر تحررا . مما كان لا ينسجم مع الممنوعات فى حياة أى طالب عسكرى .

وأخيرا فان استقالة اللواء عزيز المصرى عجل بها سلوك فاروق ، وكان اللواء الذى كان ينظر نظرة مبدئية محافظة إلى المتعة فى الظلام قد حاول أن يفرض نظاما عسكريا ـ على فاروق ، وقال له : « ان حقيقة أن سموك لا تنام فى العنابر كالآخرين لا تعنى انك تستطيع أن تتصرف بحرية مطلقة ، بل على العكس فإنك ستكون ملكا فى المستقبل ومن ثم فإنه ينبغى أن تضرب مثلا طيبا وتذهب الى فراشك مبكرا كالآخرين على الأقل ، أن لم يكن قبلهم » .

وكان رد فعل فاروق على ذلك هو التحدى الذى كان حسنين يتغاضى عنه بصورة خفية . وقال فاروق : « اننى لم أفلت من مسز نايلور لكى أقع فى قبضة مربية أخرى » ..

وكتب عزيز المصرى باشا تقريرا غاضبا بعث به إلى الملك فؤاد ، ضمنه استقالته التى قبلت . وأصبح عزيز المصرى خلال السنوات التالية عدو فاروق العنيد . وكان هو الذى تعهد جمال عبد الناصر ورفاقه الضباط ، ليصبحوا ثوريين قادرين ، ولم يكن هناك من هو أفضل أو أكثر ملاءمة لمثل هذه المهمة من عزيز المصرى .

وخلال إقامة فاروق فى انجلترا ، قام بأول أدواره الدولية الرسمية ، عندما مثل والده الملك فؤاد فى جنازة الملك جورج الخامس ، ويبدو أنه أقام خلالها علاقة صداقة شخصية مع إدوارد الثامن الملك الجديد لبريطانيا ، غير أنه بعد

ستة أشهر ، توفى والده الملك فؤاد ، وعاد إلى مصر من أكاديمية وولوتيش بعد بضعة أيام . وعقب عودته إلى الوطن ، حقق نجاحا فوريا ، كان الفتى الأنيق ذا الوجه النضير ، الذى يتكلم العربية ، هو الأمير الساحر بالنسبة للجميع . ولما كان لا يزال أصغر كثيرا من أن يتم تنصيبه ملكا بصورة رسمية ، فقد تم تشكيل مجلس أوصياء للحكم باسمه ..

كان المجلس يتكون من الأمير محمد على ، وعزيز عزت باشا ، وشريف صبرى باشا خال الملك . وكان عزيز عزت رجلا مهذبا ذا طلعة بهية ، من المدرسة القديمة ، ولما كان قد تدرب كضابط فى الجيش ، فقد أصبح أول ممثل دبلوماسى لمصر فى لندن ، وكان متزوجا من أميرة من الأسرة المالكة . أما شريف صبرى ، فكان رجلا أنيقا طويل القامة ، يشبه شقيقته إلى حد كبير ، وكان وكيلا كفئا لوزارة الخارجية وذواقة للفن ، حيث كان يمتلك واحدة من أكمل المجموعات العالمية من التحف الفارسية المصغرة ، وعلى ماهر .. وكان شخصية مفضلة لدى رسامى الكاريكاتير الأكفاء فى الصحف المصرية ، وكان يضع طربوشه مائلا على رأسه ، ويشبه الصورة الكاريكاتيرية « للمصرى أفندى » الصغير الحجم ، الذى كانت الصحف الشعبية تستخدمه لترمز به إلى المصرى من الطبقة المتوسطة .

ولما كان لمثل هذه الرموز أهميتها باعتبارها جزءا من الفن الشعبى ، فقد يكون من المفيد أن نلقى نظرة عن كثب على « المصرى أفندى » فقد كانت هناك قطعتان ضروريتان من المعدات ، هما طربوش مائل لا يتقيد بالشكليات ، والمسبحة التى لابد منها فى يده . وكان « المصرى أفندى » رجلا صغير الحجم ، لطيفا ، يتمتع بروح مرحة وحب للنكتة ، ولكنه مستعد لأن يتخذ موقفا عدائيا عندما يستفز . فقد كان المصرى أفندى يمثل الإنسان المصرى الحديث من الطبقة المتوسطة ، ورغم أنه رجل مسالم ، كريم ، بارع ، ناقد معتدل المزاج ، إلا أنه كان عرضة لمشاعر قوية وحماسة وطنية ملتهبة .

ومع أن على ماهر كان يفتقر إلى التأييد الشعبى الكبير الذى يتمتع به منافسوه الوفديون ، فقد كان يمثل إلى حد ما جزءا هاما من جمهور الناخبين المصريين ، ولو كان هناك إقبال أفضل على الاقتراع من الناخبين فى المدن المصرية فى ذلك الحين ، لاستطاع على ماهر أن يحقق شهرة مؤكدة كزعيم شعبى ، ولكنه كان مكروها دون ريب من دار المندوب السامى البريطانى فى قصر الدوبارة !

● ● ●

٣ - الملكة الأم

فى الوقت الذى عاد فيه فاروق إلى مصر من وولويتش إلى أحضان أمه المحبة وشقيقاته ، كانت الملكة نازلى ما زالت امرأة شابة ، تمسك بدفة الأمور بقوة . وكانت حياتها الزوجية فى حياة الملك فؤاد مقيدة بشدة ، وهى السيدة القوية الشكيمة الجميلة ، إذ كانت تعيش فى سجن فعلى وراء أسوار القصور الملكية الثلاثة الكبرى : عابدين ، والقبة ، والمنتزه ..

كان قصر عابدين هو المقر الرسمى الرئيسى ، وهو بناء كبير يذكرنا بقصر بكنجهام ، أو بواحدا من أبدع قصور الرئاسة فى أمريكا الجنوبية ، وقد أقيم على النمط المعروف باسم الباروك فى القرن التاسع عشر ، وكان العبقرى الذى أشرف على إقامة واجهاته البديعة ، والقاعات ذات الأعمدة الرخامية ، هو كارلوتشى بك ، المهندس الإيطالى العجوز ، الفاسد إلى حد ما ، وموضع ثقة الملك فؤاد ، الذى كان يعمل كوسيط خاص له بصورة ما ، أما قصر القبة فكان شيئا آخر ، إذ كان القصر ـ الذى أقيم وسط حدائق فسيحة فى ضاحية حدائق القبة بالقاهرة ـ مكانا بديعا لإقامة حريم الملك فؤاد ... وفيه قضت الملكة نازلى أفضل جزء من حياتها ..

وكانت الملكة هاوية متحمسة للتصوير الفوتوغرافى ، تقوم بتحميض صورها وطبعها بنفسها ، كما كانت رسامة جيدة أيضا تخصصت فى رسم لوحات جميلة من الزهور . ولما كانت نازلى فى صباها فتاة رومانسية قوية الإرادة ، فقد أحس الملك فؤاد بوضوح أنه ينبغى التأكد من عزلها عن بقية العالم ، حتى أن أخواتها وأعضاء أسرتها كانوا مستبعدين عن القصر ، وكان مسموحا لوالدتى فقط ، باعتبارها شخصية محترمة للغاية ، بالوصول إلى الملكة ، وذلك بطبيعة الحال إلى جانب الوصيفات المختلفات ، اللواتى كن يجندن من بعض الأسر البارزة من طبقة الباشوات .

كانت كبيرة وصيفاتها سيدة يهودية ، هى مدام قطاوى باشا ، القصيرة البدينة المرحة ، والتى كانت فيما سبق صديقة حميمة للملك فؤاد ، وواحدة من مضيفات قصر الدوبارة . وكانت مدام قطاوى امرأة حلوة الشمائل ، لها أنف معقوف وشعر كستنائى ، وهى من مدرسة بولدونى . ترتدى دائما ثيابا أنيقة ، وتعد نموذجا نبيلا رائعا لليهود الأرستقراطيين فى القاهرة فى ذلك الحين . وكان آل قطاوى من اليهود السيفاردى مع أصل أسبانى من بعيد على الأرجح ، الذين ينتمون إلى تلك الجالية المتأنقة من الأسر اليهودية هى التى أنشأت الحى السكنى الرشيق فى قصر الدوبارة ، وكانت تشمل آل عدس ، وآل رولو ، وآل توليدانوس ، وآل هرارى ، وكثيرون آخرون ممن حولوا منطقة قصر الدوبارة إلى منطقة لا مثيل لها من الفيلات الفاخرة ، والقصور الصغيرة ، وكانوا فى جوهرهم جمع من عصر ادوارد ، تتراوح أنشطتهم بين مناصب الدولة العليا ، والبروز فى دور الأعمال الكبرى . وكان قطاوى باشا وزيرا ، وابنه أصلان عضوا بارزا فى برلمان الملك فؤاد . وجاء آل عدس من مانشستر ، حيث كانوا أسرة هامة فى تجارة القطن ، فى حين أن آل هرارى ، إلى جانب كونهم من كبار المواطنين فى القاهرة ، كانوا يقومون أيضا بدور فى الهيئة الإدارية البريطانية ،وأصبح رالف هرارى الطفل المصرى ، ضابطا للشئون المالية لدى أركان سير رونالد ستورز ، واختتم حياته مديرا لأحد البنوك المهيبة فى لندن ، بينما اشتركت زوجته مانيا هرارى مع ماكس هيوارد فى ترجمة قصة دكتور جيفاجو لباسترناك إلى الانجليزية .

وكانت الحياة بالنسبة للملكة نازلى تمضى فى هدوء مريح ، وكانت تشهد الأوبرا فى موسم الشتاء ، عند بدء العروض الأولى الكبرى ، التى يحضرها أعضاء السلك الدبلوماسى وأعضاء الحكومة . وكانت دار الأوبرا صغيرة تم بناؤها على عجل ، ولكنها كانت صورة دقيقة لمسرح من طراز الباروك من النمط الذى يفضله أشخاص مثل ملك باڤاريا أو أمير هانوڤر .

والواقع أن أوجه الشبه بين البلاط المصرى ، وبلاط بعض الملوك أو الأمراء الألمان الصغار كان أمرا يلفت النظر .. وكانت ليالى الأوبرا مناسبات مثيرة تصل إلى الذروة بطبيعة الحال خلال المجموعة السنوية لعروض أوبرا عايدة

بواسطة أوبرا لاسكالو دى ميلانو .

ولا ينبغى أن ننسى أن الملك فؤاد تعلم فى إيطاليا ، والتحق بالجيش الإيطالى ، كما كان ـ وهو أمير ـ ياورا للملك فيكتور عمانويل ، وكان زميل دراسة له عندما أرسل الخديو إسماعيل إلى المنفى بواسطة السلطان العثمانى فى عام ١٨٧٩ ، ومن ثم يمكننا أن ندرك أنه كان هناك نفوذ أوبرالى إيطالى معين .

كانت حفلات افتتاح الأوبرا رائعة فيها كل مظاهر العصر الساحرة ، حيث يرتدى الحاضرون ملابس السهرة الأنيقة ، والأوسمة المعطرة ، والمونوكل وكل الحلى والزخارف التى يتسم بها العهد الإدواردى الرشيق .. وكان البعض يحمل النظارات المكبرة ، لا لكى يشهد المسرح فقط ، بل لكى يتفحص أيضا المقاصير الأخرى ، لكى يرى مالا يراه الآخرون . وليسجل الدردشة والفضائح التى تدور خلال تلك الحفلات حتى عند حضور أحد من الأسرة المالكة .

وكان وصول الملكة وسيداتها مسألة غريبة تجرى فى تكتم تام ، وكانت مقصورة الملكة مغطاة بستار مزخرف كالمشربية ، ويستطيع المرء أن يشعر بوصول الملكة ، عندما تبدأ المقصورة الصامتة بغمغمة أصوات نسائية ، وتلمح تحركات ألوان ساكنة لفترة قصيرة من خلال الفتحات الخشبية للستار . ومن السقف كان موسيقيو القرن التاسع عشر العظام يطلون على الآخرين من أعلى ، وقد وضعوا فى مقصورة من الجص المزخرف . وخلال فترات الاستراحة ، كانت الدار تتأنق بالثياب والماسات والصدور المزركشةالفاخرة

وكانت هناك مناسبات أخرى عظيمة ، هى الاستقبالات السنوية التى تقام فى أيام عيد الأضحى وعيد الفطر الإسلاميين الكبيرين ، حيث كان الملك فؤاد يستقبل يومئذ أعضاء السلك الدبلوماسى ، والوزراء وأعضاء المؤسسة الحاكمة . وخاصة أمراء ونبلاء أسرته ،وبالمثل كانت الملكة تستقبل سيدات السلك الدبلوماسى الأجانب وزوجات الوزراء وأعضاء المؤسسة البارزين ... كانت تلك مناسبات للأبهة والثرثرة !

وليست هناك قصور كثيرة فى أى مكان تجمع الأشياء الجذابة التى كانت فى القصر الملكى الثالث ، وهو قصر المنتزه بالإسكندرية ، الذى أقيم فوق سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة ، تكون خليجا صغيرا تظلله أشجار الصنوبر فى حديقة رائعة .. كان المنتزه قصرا للأحلام من النوع الذى يمكن أن يخطر ببال الملك لودفيج الباڤارى ، أو والت ديزنى . وكان على نمط إيطالى واضح مع روح قوية من البحر المتوسط .. كان خليطا محيرا من الأشكال والزخارف المعمارية ، حيث الأقواس والشرفات والأبراج التى يصطدم كل منها بالآخر بحماسة شديدة . وتشكل أحيانا تصادما متناقضا من أنماط متباعدة إلى حد كبير .

كان القصر بالنسبة للبعض مبنى معماريا بشعا ، غير أنه بالنسبة لمن أتيحت لهم متعة الحياة هناك ، كان بيتا بهيجا ، ومكانا تغمره أشعة الشمس ومياه البحر الزرقاء مع شرفات كشرفات الملاحم ، تطل على حدائق تحوى الكثير من

الزهور المختلفة الألوان والأشجار القديمة المجلوبة ، والمروج والممرات التى تؤدى إلى الخلجان المحمية ، والبحر وأصواته الموجودة دائما ... كان هذا هو قصر المتعة والسرور الذى يقضى فيه فاروق وشقيقاته فصول الصيف التى كانت تستمر فى تلك الأيام حوالى خمسة شهور ، تصبح الإسكندرية خلالها عاصمة لمصر ، حيث يعيش الملك والبلاط والحكومة ويعملون فى المدينة .

وقال لى أبى ذات يوم : « عليك أن تتأنق فى ملبسك وتضع طربوشا على رأسك ، وترتدى سترة صباح وبنطلونا مخططا وحذاء نظيفا » لقد كان أبى شديد الاهتمام بكل ما يتعلق بالملابس ، إذ كان فى ذلك الحين رئيسا للبروتوكول بوزارة الخارجية وبهذه الصفة كانت له السلطة على أشكال وأسبقيات الدبلوماسيين . ولما لم تكن لدى تلك الثياب ، ولم تكن هناك أماكن لتأجيرها ، فقد اتصلت بالأصدقاء والأقارب لمساعدتى فى الحصول عليها .

كان الوضع الطارىء قد فاجأنا بصورة غير متوقعة . فقد تلقينا أمرا تليفونيا من قصر المنتزه ، بأن على « عادل ودودى أن يحضرا لتناول الشاى مع الملك وشقيقاته فى الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين بعد ظهر غد » !

وقالت أمى .. إن الملكةنازلى تريد أن يلتقى فاروق وشقيقاته بأطفال فى مثل سنهم ، وطلبت أمى منى أن يكون سلوكى حسنا تماما .

كانت شقيقتى « دودى » أشبه بغلام صغير ، مرحة وشقية ، وبالنسبة لأغلب الناس كانت بالغة الجمال ، وإن كنت بصفتى شقيقها لم أكن أدرك هذه الجاذبية فيها ، بل كانت بالنسبة لى صديقة ومرافقة طيبة ، وإن كانت أحيانا تغيظنى كثيرا ، وقد التقطت من المربية « ديب » نفورها من الذكور ، ولكنها كانت فارسة جيدة لا تهاب شيئا ، وقد أظهرت وسط هذا الجمع النادر شجاعة أخلاقية وبدنية .

وقالت أمى : « سيكون هناك أطفال آخرون معكم .. (فافيت) ذوالفقار وشقيقها سعيد الصغير الحلو ، وكذلك (توتس) ابن الأميرة زوجة عباس حليم وسوف يسعد عادل هذا النبأ »

كنت أنا و (توتس) صديقين حميمين ، اشتركنا فى تجارب كثيرة مثيرة ، مثل المـأزق الذى وقعنا فيه يوما وسط ميناء الإسكندريةونحن فى قارب شراعى عصر ذات يوم ، ولم تكن به دفة أو ممكن إدارته ، بينما كان أسطول البحر المتوسط البريطانى يدخل الميناء فى جلال مهيب .. وكان علينا أن نهرب من تحدى هذه المدرعة الهائلة التى تقترب منا وأخذنا نلعن البحارة ، ولكننا لم نستطع الابتعاد عن السفينة الحربية « كوين اليزابيث » التابعة للأسطول البريطانى إلا بالقفز فى المـاء وسحب قاربنا الصغير الخفيف إلى بر الأمان ... كما غرقنا أيضا ذات مرة بصورة مثيرة فى النيل ونحن فى قارب صنعته بنفسى ، وتبين أنه كان أقل قدرة على مقاومة تسرب المياه مما كنت أتصور .

وكان توتس قد أعادته أمه إلى مصر بعد فترة قصيرة فى مدرسة إعدادية

بريطانية حيث التقط هناك كل اللهجات العامية الوقحة التى يستخدمها التلميذ الإنجليزى ،وقد تزوجت والدته مرة أخرى ، وكان زوج أمه هو الأمير عباس حليم ، وهو شخصية رومانسية غريبة . وخلال وجود توتس فى انجلترا ، أعجب بالأوبريتات التى كان يقدمها « جلبرت وسليفان » . وكنا نقضى ساعات نتذكر مسرحيات « محاكمة بواسطة محلفين » و « قراصنة بنزانس » خلال سباحتنا وركوب القوارب ، والانغماس فى حياة صيف الإسكندرية الجميلة خلال الثلاثينات !

● ● ●

وهكذا صففت شعرى وارتديت ثيابى ، ووضعت طربوشى بزاوية لا تتقيد بالرسميات مما جعل الكبار يحدقون فى باستهجان . وصحبنا الفتاتين إلى قصر المنتزه ، وكانت صافيناز التى يدعونهاباسم « فافيت » شيئا غير معروف ، فتاةجميلة سوداء الشعر ، ولكنها تعتبر أشبه بالريفية الشديدة الارتباك .

وكان شقيقها سعيد غلاما وسيما كريما ، كنا نعرفه بشكل مبهم عندما كنا ضيوفا خلال سنوات فى حفلات أعياد الميلاد المختلفة فى الصيف بالإسكندرية ، وكان والداهما يعيشان فى الاسكندرية ، حيث كان يوسف بك ذوالفقار يعمل قاضيا بالمحكمة العليا ، وكان سيدا مهذبا لطيفا متورد الوجه ، وقد أصبح فيما بعد سفيرا لمصر لدى إيران . أما والدتها زينب هانم ، فهى إحدى وصيفات الملكة نازلى ، وكانت امرأة ممتلئة الجسم ، رقيقة حنونا ، وهى إبنة رئيس سابق للوزراء فى عهد الخديو .

ومررنا خلال البوابات الضخمة لقصر المنتزه ... لقد دخلنا عالما من القصص الخيالية وسط ممرات الحديقة الجميلة ، وبين صفوف الحرس الملكى ذوى الملابس الجميلة والأشجار الضخمة القديمة ،وأحواض الزهور متعددة الألوان . وانطلقت السيارة على طول طرق ملتوية خلال غابات صغيرة من أشجار الصنوبر إلى أن توقفت أمام درجات من الرخام الفاخر ، تؤدى إلى أعلى نحو مدخل القصر الخرافى نفسه . وقادونا إلى غرفة كبيرة تطل على البحر ..

كانت قطع الأثاث ثقيلة ... موائد صلبة وتحف كثيرة للزينة ... وفى الخارج كانت الحدائق تبدو جذابة مغرية . بينما يتألق البحر من بعيد ، وأصوات النفير تنطلق وسط نسمات العصر ... ونظرت إلى « توتس » فقال : « هذه هى الحياة التى تهزم سيدى بشر فى أى وقت »

وكان سيدى بشر هو الشاطىء الذى نسبح فيه عادة !.

وسمعنا صوت حركة ... حفيف فساتين ... وجاءت أربع فتيات جميلات كالعرائس ، يدخلن الغرفة بخطوات رشيقة ، تقودهن مس بروديت .. كن جميعا حسناوات . وكانت الفتاة الأكبر سنا هى فوزية الزرقاء العينين ، هادئة خجولة ، وفايزة ذات العينين السوداوين ، نحيلة فى رشاقة ، وقد ارتدين جميعا ثيابا متشابهة بيضاء رشيقة ، وجوارب بيضاء ، وأحذية بيضاء ، وضفائر

« ذيل حصان » عدا الصغرى فتحية و « آفى » التى كان لها شعر أسود قصير ، ومظهر يشبه شيرلى تمبل إلى حد ما .

ولو أن بعض السحرة ألقوا بنا فجأة فوق إحدى الجزر الرملية لأفروديت ، واقترب منا أهلها الأصليون ، لكان الأثر الذى نشعر به مماثلا لما حدث لنا على الأرجح ... لقد اكتشفنا أن الأميرات نماذج للبراءة ، وإن كلا منهن تنادى الأخرى بكلمة « عزيزتى » أو « حبيبتى » ... إن الشجار شىء لم يسمع عنه فى جنة عدن هذه . إن تأثير مسز نايلور ما زال باقيا بوضوح ... كان من الجلى أنها بفضل نظام ثابت العزم تماما أحدثت عزلة كاملة عن العالم الخارجى . لقد كنا فى الواقع أول أطفال أتيح للأميرات الصغيرات رؤيتهم أو التحدث معهم من مسافة قريبة ومؤثرة ... كانت الأميرات الصغيرات ينتمين إلى عالم آخر ، لا ينقصهن شىء ، يعشن فى بيئة ريفية ، تحيط بهن خادمات محبات ، وخالات ، ووصيفات ، وأم جميلة رومانسية .. كن ساذجات ، تحوطهن حماية مفرطة ، وكأنهن ملفوفات فى السلوفان ، كالهدايا المغلفة .. بنات صغيرات من نوع قلَّ أن يوجد فى أى مكان خارج أغطية علب الشيكولاتة ..

وقادونا جميعا إلى الخارج ، لنلعب فى الحدائق ..

وقالت آتى الصغيرة وهى تقبل نحوى : « هل تحب الجرى يا عزيزى ؟ » قلت : « أجل يا صاحبة السمو » ... كنت قد تلقيت بعض التدريب السريع ، وكانت مناداتهن بصاحبات السمو جزءا منه ..

وقالت آتى : « امسكنى إذن .. »

واختفت وسط واحدة من الأدغال العديدة ..

وأحسست بارتباك كلى .. ماذا أفعل الآن ؟ كم يبدو الأمر مثيرا للهلع والشعور بعدم الكرامة ، إن يطارد رجل فى السادسة عشرة من عمره فتاة صغيرة أشبه بالعروسة خلال الشجيرات النابتة ووسط الأشجار العالية ؟ ومع ذلك كان لابد من إطاعة النظام والتعليمات .. وهكذا انطلقت وراء الحزمة الصغيرة ذات الشعر القصير ، واشتبكت ثيابى فى شجرة صغيرة بصورة تبعث على اليأس !..

كانت « آتى » التى لا يزيد حجمها عن أرنب كبير الحجم تعرف الأرض جيدا ، وقد تختفى خلال فجوات لا يمكن النفاذ منها داخل الدغل ، ثم تعود فجأة للظهور فى مكان آخر غير متوقع لكى تطلق صيحة انتصار وسخرية إلى أن عادت أخيرا للانضمام إلى المجموعة الأساسية بعد أن نجحت فى تجنب امساكى وتفوقت على فى المناورة ست أو سبع مرات .. وعدت يغمرنى التراب ذليلا « مبهدلا » . وساعدتنى الأميرات على نفض التراب عن ملابسى ، بينما كانت آتى تنظر باهتمام .. وقالت :

« إنك لا يمكنك الجرى جيدا .. أليس كذلك ياعزيزى ؟ »

وفجأة وصلت الملكة نازلة إلى المكان مصحوبة بسيداتها .. كانت ترتدى ثوبا

أبيض اللون .. شيئا له أهداب مزركشة ينبعث منه حفيف .. وجلبت معها هالة من العطر الفواح .. مازلت قادرا على تصور الزهور والورود البيضاء المتناثرة فوقه وهى تسير .. كان السكون يحيط بنا من كل جانب ، والسماء شفافة زرقاء ، والبحر يتألق بلون ذهبى من بعيد ، وسحب الصيف البيضاء تسير بسرعة ، ومجموعة من سيدات جميلات وبنات مرحات يقفن بين الأشجار الزاخرة بالأوراق الخضراء ، وسط ضفاف من الزهور .

وقالت الملكة نازلى : « وهذا هو عادل .. ياإلهى إنك تبدو مثل ادولف منجو تماما بل أجمل كثيرا ياعزيزى » !

ولم أكن متأكدا تماما كيف أرد على ذلك .. لقد كان أدولف منجو قبل أيامى بالتأكيد ، وإننى أذكره بصورة مبهمة من أفلامه كعجوز خليع سيىء السمعة إلى حد ما .

وحولت الملكة اهتمامها نحو دووى وفافيت .. كان هناك حديث ودى يجرى بشكل عام ، بينما كانت السيدات يرفرفن حول جلالتها ، وردت الفتاتان الابتسامات ، بينما كانت سيدات الأسرة المالكة يتفحصن المجموعة الصغيرة من الأطفال من الخارج ، وقد أهملن توتس الذى كان ممتلئا بعض الشىء بسيطا .

وقالت الملكة وهى تمر بجواره سريعا : « هذا ابن توحيدة .. أليس كذلك ؟ » ولم تنتظر حتى تسمع الرد الذى غمغم به .

وتحركنا نحو مأدبة الشاى ، وكانت هناك فرقة موسيقى عسكرية فى مقصورة قريبة ترقب وصول المجموعة الملكية ، وعندئذ أسرع رئيس الفرقة الذى كان يضع على رأسه طربوشا أحمر ويرتدى زيا من اللونين الأزرق والأبيض المتألقين ، وزمجر قائلا لرجاله :

« نمرة ستة »

وتبين أن « نمرة ستة » هى الافتتاحية المثيرة لمسرحية وليم تل لروسينى . وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يبدون أشبه بلعب ميكانيكية متقنة الصنع غالية الثمن ، فقد كانت تحركاتهم مثل عقارب الساعة ، ومن الواضح أنهم تدربوا على مستوى عال من الدقة العسكرية .

كانت هناك مائدة ضخمة قد مدت ، وانتشرت فوقها كميات من الكعك من كل نوع وحجم يمكن تصوره .. طورطة مغرية تثير الشهية ، مع فطائر ليمون ، وكعكة صغيرة من الشليك ، وقطع جاتوه بلاك فورست ، وميل فوت ، بكميات كبيرة ، وكريم شانتى ضخم يمتلىء بالميرنج .. وكانت هناك بطبيعة الحال تلك المجموعة المعتادة من الأصابع المملحة ، والخبز المحمص المطلى بالجبن أو الكافيار ، والفطائر اللذيذة والشطائر المصنوعة بطريقة البوربون .. وهناك شاى وعصير الليمون ، وعصير البرتقال ، وعصير المانجو ، وعصير القصب ، ومرطبات بالفراولة ، بينما انتشرت موائد صغيرة حول المناطق الخالية بين

الأدغال .

وطلبت منى إحدى الوصيفات أن أجلس مع الأطفال !

وحاولت تجنب « آتى » التى كان هناك بريق مزعج فى عينيها ، وعندما أحضرنا أطباقنا المحملة بالكعك إلى المائدة ، جلست إلى جوار فوزية ، التى كانت تبدو خجولة وتتحدث بكلمات قصيرة ، ويبدو أن لسان كل منا قد ربط ، فبحثنا عن العزاء فى التهام الكعك ، وكان السفرجية السودانيون فى أزيائهم البديعة يقدمون لنا المشروبات ، وهم يرتدون ثيابا زرقاء مطرزة بالذهب ، والبعض يضع أوسمة على صدره ، أن المرء لابد أن يشعر بالأهمية هنا : الخدمة ، وما يتضمنها من تملق كان شيئا يدير الرؤوس :

ومن حسن الحظ ، ـ والذى جاء فى الوقت المناسب ـ أننى كنت قد قرأت مؤخرا رواية « آمال كبيرة ، إذ أننى تأثرت كثيرا بإبراهام بيبسب نحو « استيل » وبدت الملكة نازلى أشبه بمس هافرشام ، وربما كانت هؤلاء الفتيات كل منهن « استيل » ملكية .. لعل من الأفضل أن أرقب تصرفاتى !

ومع اقتراب مأدبة الشاى من النهاية ، كانت الفرقة الموسيقية تعزف « نمرة عشرة » وهى تعديل لمقطوعة « الموقع الأخير » بأصوات النفير الحزينة التى كانت تبدو أنها ترحل بسرعة ، وتمتزج مع أصوات عسكرية أخرى مكتومة .. لقد انتهت مأدبة الشاى بوضوح .

وصاحت آتى الصغيرة : « حان وقت السينما .. إنها شيرلى تمبل الليلة » .

وبينما راحت الوصيفات يؤدين وظائفهن بتوجيهنا نحو مقاعدنا وفقا لبروتوكول معين . وجدنا نفسينا نحن الغلامين الأكبر سنا موضوعين على الحافة .. إن أى إجراء كامساك الأيدى أو التقرب من الفتيات غير مسموح به ، وكنت أنا وتوتس أكبر من أن يوثق بنا كما يبدو بوضوح ، ولابد من حماية الأميرة الصغيرة ، كان الاحتياط ربما كان أمرا حكيما ، ولكنهم لو عرفوا قلة التجارب التى كانت لدينا نحن الغلامين لما ساورهن أى قلق ، فنحن بالتأكيد فى غير حاجة للمراقبة ، وكانت الملكة نازلى الحكيمة على عكس سيداتها تدرك الموقف تماما .. لقد كانت تعرف بناتها ، فقد كانت مثلهن منذ وقت غير بعيد .

وجاء فيلم شيرلى تمبل ، وكانت البطلة أصغر من أن تروق لغلمان من سننا ، فقد غنت أغنية « مصاصة السفينة الطيبة » بشكل مريع للغاية .. وتجمدنا فى أدب يشوبه الألم ، ولكننا كنا نرسم على شفاهنا ابتسامة استحسان كاذبة ، بينما صاحت إحدى السيدات بعاطفة فياضة فى هيستيرية « أليست حلوة ؟ » وكانت آتى تتمايل فوق مقعدها إلى أعلى وأسفل وهى تصفق بيديها وتغنى .. كان يبدو بوضوح أنها تجد فى نفسها صورة سيدة هوليوود الصغيرة !

وقالت أمى للملكة التى بدت غير مرتاحة إلى وجوهنا الكئيبة : « لقد أمضى الأطفال وقتا رائعا ياعزيزتى » وبسرعة عدت ارسم بسمة نفاق وإن لم أستطع أن أبقيها طويلا .. وأدركت فجأة أن الملك لم يظهر قط .. ترى أين هو ؟ كان فى

الامكان الاحساس بحضوره وهو يرقبنا من نوافذ القصر . وعرفت فجأة أن الملك المسكين خجول .. ومن لا يكون كذلك وسط هذا الحشد من النساء ؟

وبينما كنا نستعد للرحيل ، وصل فاروق فجأة .. كان يقاربنا سنا ، لطيف المظهر ، فتى رائعا حقا . وكان يحمل فى يده بندقية عيار ٢٢ عرضها على ، وقال : « إننى استخدمها لقتل الفئران ، ولكن عندى بندقية للأفيال فى الطابق العلوى » .

ووعدنى أن يرينى مجموعته من البنادق ، ثم اختفى مرة أخرى ، بينما قادتنا السيدات إلى الخارج ، وكانت الملكة نازلى قد اعتكفت فى بعض أجنحة القصر ، وانصرف الأطفال أيضا .. وهكذا انتهت مناسبة لا تنسى .. وفى هذا الصيف من عام ١٩٣٦ شاهدنا بضع عشرات من أفلام شيرلى تمبل !

لقد عرفت ـ أنا وشقيقتى ـ الأميرات الصغيرات جيدا حقا . وكنت أسعد بالذهاب إلى حفلات الشاى والسينما .. كان الشاى والكعك على الأقل لذيذين ، كما كنت سعيدا إذ أجد نفسى مبعدا فترة الصباح ، عندما تذهب الفتيات للسباحة فى الميناء الطبيعى الصغير بقصر المنتزه .. وكان إبعادى يعد نموذجا طريفا للطريقة التى كان عقل الملكة نازلى يعمل بها .. وعندما وصلت إلى المنتزه ذات صباح ومعى ثوب السباحة أوقفتنى إحدى الوصيفات قائلة :

« تعال معى يا عادل .. الملكة تريد رؤيتك ! »

وقادتنى إلى غرفة كبيرة بالطابق العلوى حيث طلبت منى أن انتظر ، وبعد خمس دقائق دلفت عربة صغيرة تسير على عجلات مليئة بالأطعمة اللذيذة ، وقالت لى : « هيا إلى الأكل » وبعد أن تناولت إفطارا ثانيا شهيا ، عادت السيدة تقول : « هيا معى » .

وقادتنى إلى غرفة كبيرة ، حيث كانت الملكة نازلى تجرب أحذية جديدة ، وهناك أحد صانعى الأحذية المشهورين وقد تناثرت حولهما عشرات من الأحذية .. كانت الملكة تجرب كلا منها .. ورأتنى فقالت :

« هل تناولت بعض الطعام يا عادل ؟ »

قلت : « أجل ياصاحبة الجلالة » .

فقالت : « حسنا يا عادل .. إنك غلام كبير ، رجل تقريبا ، وتبدو شبيها بأدولف منجو .. هل ترى حقا أنه من المناسب أن تذهب للسباحة مع فوزية وفائزة اللتين كبرتا هما أيضا ؟ إنك سوف تراهما فى ثياب الاستحمام .. بلا ثياب ، ومن الممكن أن يحدث أى شىء ، ولهذا فإننى اعتقد أنه من الأفضل ألا تذهب للسباحة معهما ! »

وأحسست أن الملكة أطلقت سراحى ، وإننى أستطيع الذهاب مرة أخرى إلى سيدى بشر حيث أرى أصدقائى ، وأعود إلى عالمى العادى .. ومع ذلك فإن الأميرة جميلة جدا وعلى أية حال لا بأس .. فهناك دائما شيرلى تمبل !

٤ ـ خلفية عائلة الملكة نازلى

كان أهم أجداد الملكة نازلى هو محمد شريف باشا ، الذى كان من أبرز الشخصيات فى تاريخ مصر المعاصر ، وكان شريف باشا هوابن محمد شريف أفندى « قاضى عسكر » العثمانى لمصر فى المراحل الأولى لتولى محمد على السلطة فى بداية القرن التاسع عشر ، وكانت وظيفة قاضى عسكر أو قاضى الدفاع العسكرى بلغة العصر الحديث تقريبا ، هى أنه المندوب الأعلى للهيئة القضائية العثمانية فى ولاية مصر ، كما كانت تسمى يومئذ ، وكان بهذه الوظيفة يشترك فى السلطة مع محمد على نفسه ، الذى كان حينئذ حاكما عثمانيا للبلاد ، وكان الرجلان صديقين حميمين ، وخلال شجار محمد على مع رئيس الوزراء التركى ـ أو الصدر الأعظم ـ كان محمد شريف افندى يقف إلى جانب محمد على ويستخدم نفوذه الكبير فى العاصمة العثمانية لصالحه . ولدى عودته إلى استانبول ، أصبح شيخ الاسلام للامبراطورية ، وهى فى الواقع أعلى سلطة شرعية دينية فى العالم الاسلامى فى ذلك الحين .

وعند عودته إلى تركيا ترك ابنه شريف وراءه فى مصر لمواصلة تعليمه . وكان شريف معاصرا وزميل دراسة لاسماعيل باشا الذى أصبح بعد ذلك خديو مصر ، وكان ابنا لابراهيم باشا نائب محمد على والقائد العظيم السابق للجيوش المصرية فى سوريا والأناضول . وفى سن الثامنة عشرة أرسل شريف الى أوربا عضوا فى البعثة الخامسة للطلبة الى فرنسا عام ١٨٤٤ ، وكانت تلك البعثة التى

سميت « بعثة الأمراء » من أهم البعثات التى أوفدت إلى أوربا ، وقد اختير أعضاؤها من ألمع طلبة المهندسخانة أو « مدرسة المهندسين » كما ضمت البعثة عددا كبيرا من أمراء أسرة محمد على ، وبينهم الأميران أحمد وعبد الحليم حسين ، وكذلك إسماعيل باشا الذى كان شريف على علاقة وثيقة به .

كانت فترة دراسة شريف فى أوربا من أهم الفترات فى تاريخ التقدم الاجتماعى فى القارة ، ففى بريطانيا كان هناك عصر بيل بإصلاحاته البرلمانية الكبيرة ، وتشريعاته الموجهة للعمال التى كانت فى بدايتها ، وفى فرنسا كان عهد الملكية يحتضر خلال السنوات الأخيرة لحكم لوى فيليب قبل ثورة ١٨٤٨ . وكان الرأى العام الفرنسى قد استبد به الملل والضجر إزاء الشبهات التى أحاطت ببعض الشخصيات الكبيرة مثل صاحب النظريات الحريص فرنسوا جيزو وزير الخارجية ورئيس الحزب الملكى ، بينما أخذت البونابرتية تطل برأسها ببطء باعتبارها معارضة صريحة فى البرلمان الفرنسى ، وكانت الامبراطورية الفرنسية الثانية يجرى إعدادها ابتداء من ١٨٤٠ ، وهو العام الذى نقل فيه جثمان الامبراطور الراحل نابليون بونابرت إلى مثواه الأخير فى الانفاليد بباريس حيث لايزال إلى اليوم .

كان عام ١٨٤٤ لا يبعد غير أربعة أعوام عن عام ١٨٤٨ ، وكانت روح الثورة تغلى فعلا فى سويسرا وإيطاليا وبولندا ، بينما كان الأحرار والاشتراكيون وتلاميذ كارل ماركس يعدون للثورة الاشتراكية الكبرى بجد ونشاط ، وهى التى اجتاحت بعد أقل من قرن أغلب الملكيات الأوربية وأقتلعتها .. وكان من المستحيل أن يبقى الطلبة المصريون الشبان الذين يقيمون ويتعلمون فى فرنسا متفرجين غير مبالين بالاضطرابات والهيجان الذى يحدث حولهم . وكان المعلم الخاص لشريف فى مراحل تعليمه الأولى رفاعة الطهطاوى ، وهو عالم أزهرى بارز من جيل سابق ، حيث صحب البعثة الأولى إلى فرنسا منذ ١٨٢٨ ، حيث علم نفسه اللغة الفرنسية ، وقام بترجمة كتاب « روح القوانين » لمونتسيكيو إلى العربية ، وأصبح فيما بعد رائدا للاصلاحات القانونية العظيمة فى مصر فى عهد اسماعيل باشا ، كما كان له الأثر الرئيسى على أفكار شريف الاصلاحية الدستورية والسياسية - الاجتماعية .

وفى باريس التحق شريف بأكاديمية سان سير العسكرية ذات الهيبة ، وتخرج فى هذا المعهد بامتياز ، ثم قضى عامين آخرين فى المعهد الفرنسى العالى للعلوم العسكرية ، ومن هناك ارتقى إلى رئاسة الأركان الفرنسية العامة حيث حصل على رتبة كابتن ، وعند عودة سليمان باشا الفرنساوى « الكولونيل الفرنسى السابق انتيليم سيف » إلى مصر ، أكسبته مواهبة هذه منصبا بين العاملين مع القائد العام للجيش المصرى ، وقد تودد شريف إلى ابنته نازلى وتزوجها ، وخلال حكم سعيد باشا - الخديو التالى - وصل شريف إلى منصب

الأميرالاى قائد الحرس الخاص لنائب الحاكم .

وفى عام ١٨٥٦ رقى شريف إلى رتبة اللواء ومعها لقب باشا ، وفى العام التالى نقل من عمله العسكرى ليصبح وزيرا للخارجية ، وعقب وفاة سعيد فى ١٨٦٣ وتولى الخديو اسماعيل ، زميل الدراسة السابق ، أسند إليه وزارة أخرى هى الداخلية ثم عينه فى ١٨٦٥ قائم مقام لحكم البلاد خلال غياب الخديو الطويل فى استانبول ، مما يدل على الثقة والائتمان الذى كان يوليه إياه ، حيث كان مثل هذا التعيين لا يمنح عادة إلا لعضو من الأسرة المالكة ، إذ أنه يعنى تولى السيادة على البلاد كلها فعلا . وفى عهد إسماعيل حصل شريف على أعلى مظاهر التكريم ، حيث تولى رئاسة الوزراء فى عدة مناسبات ، وبدأ يقوم بدور فعال فى المؤسسات البرلمانية المصرية الوليدة ، وفى ١٨٦٨ ، انتخب لرئاسة المجلس الخاص الذى كان له سلطة تفوق الوزارة فى ذلك الحين .

فى تلك الأيام اتجه فكر شريف بصورة متزايدة نحو الاصلاح الاجتماعى والسياسى ، وكانت تأثراته التكوينية قد جاءت من أوربا كما رأينا خلال حالة الاختمار الكامل للتوترات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، وقد تشبع بصورة مباشرة بتعاليم وآراء مونتسيكيو وروسو وغيرهما من المثقفين الفرنسيين الثوريين ، وكان مهتما بشدة بآراء ووجهات نظر رفاعة بك الطهطاوى ، المعلم والواعظ لجيل سابق من المصريين فى باريس ، وكانت تلك الآراء إسلامية ووطنية معا . ولما لم يكن يجد أى تعارض بين الأفكار الاصلاحية الأوربية ، وقيم الاسلام ومبادئه ، فقد اعتبر أن أى تكييف بين المبادىء الأخيرة والقوانين المصرية أمر مرغوب فيه ، وهكذا كان قرار وزارة شريف بإصلاح النظام القضائى جزءا من استمرار التقدم .

كانت هناك عملية ادخال بعض النظم والأحكام ، شارك فيها رفاعه الطهطاوى نفسه الذى رأس مجموعة عمل تتكون من عبدالله بك السيد ، وعبدالسلام أحمد ، وأحمد حليم هى التى قامت بتكييف القانون المدنى الفرنسى (قانون نابليون) مع القوانين السائدة فى مصر ، فكانت تلك فى الواقع اجراءات ثورية متقدمة فى بيئة اسلامية فى القرن التاسع عشر ، حتى انها مازالت تثير الجدل الى اليوم ، وليس من المحتمل انه كان من الممكن وضع تلك الاجراءات لو انها لم تحظ بالرعاية القوية والمقتنعة من شريف ، وساندها الخديو اسماعيل ذو النظرة البعيدة ، وفيما يلى ما ذكره البروفيسور ج.ج روزنتال* نجمة فى كتابه « الاسلام فى الدولة الحديثة » :

لكى يتسنى لنا مناقشة اسهاماتهم الهامة ، يجب أن نتحدث بإيجاز عن مفكر مصرى ظهر فى وقت مبكر ، هو رفاعة بدوى رافع الطهطاوى ، الذى تركت

* ج ج روزنتال « الاسلام فى الدولة الحديثة » مطبعة جامعة كمبريدج ص ٦٥ ، ٦٦

اقامته فى باريس خمس سنوات تأثيرا عميقا على هذا المصرى ..
لقد ترجم لمونتسيكيو الذى أعجبته اشادته بروح الوطنية ، تماما مثلما أيقظ سيلفستر دى ساس اهتمامه بمصر القديمة . وقد دفع كلا الاهتمامين الطهطاوى الى تشجيع نشر الكلاسيكيات العربية ، ومن بينها أعمال ابن خلدون ، وكانت أفكاره السياسية تتفق مع النظرية ـ الاسلامية ـ الكلاسيكية عن السلطة التشريعية ، والتى ينبغى أن يحترمها الحاكم المطلق . وقد قسم المجتمع الى أربع طبقات هى الحاكم ورجال الدين ، والقانون ، والجنود ، وأولئك الذين يشتغلون بالانتاج الاقتصادى .
وبمحض المصادفة نجد نفس الطبقات الأربع موجودة فعلا فى « الديوانى » ويبدو تأثير الاستنارة الفرنسية واضحا فى كل آراء الطهطاوى التى ترى « أن مبادىء القانون الاسلامى لا تختلف عن القانون الطبيعى الذى يشكل أساس أوربا الحديثة » .
ويبدو أن مونتسيكيو وروسو كانا بالنسبة للطهطاوى مثلما كان بلاتو اليونانى بالنسبة للديوانى ، حيث مكنته موازنته من أن يقنن الرجوع الى مجموعات القوانين الحديثة ، والحصول على تفسير لوضع قانون اسلامى وفقا للطابع الحديث لمواجهة مقتضيات العصر .
ويقول أ . مورانى أن هذا المصلح المصرى كان يرى أن التعليم هو المفتاح الأساسى لحب الوطن ، الذى كان له نفس أهمية « العصبية » لدى ابن خلدون وقد وقع تطور هام خلال توسيع الطهطاوى لدائرة بناة الدولة والمجتمع المهيمن بإدخال أطباء ومهندسين وعلماء آخرين الى جانب العلماء الذين يأتون بعدهم فى الأهمية بعد الحاكم ، وأن يكون الوطن هو مصر الاسلامية .
غير أن أكبر منجزات شريف ، هو اعداد دستور شريف فى ١٨٧٩ وإقراره . وتمثل هذه الوثيقة تغييرا مذهلا فى العالم الاسلامى ، الذى اعتاد طويلا على حكم الفرد والأنظمة الشمولية ، فقد تحول الخديو من حاكم مطلق الى حاكم دستورى يملك ولا يحكم ، وهو أشبه بأسلوب الملكة فيكتوريا ، وقد فوضت سلطة الدولة الى الجمعية الوطنية . وقدم شريف دستوره الى الجمعية الوطنية فى ١٧ مايو ١٨٧٨ ، وبعد أيام قلائل قدم شريف قانونا للانتخابات الذى بدأ سريانه بعد خلع الخديو اسماعيل فى ١٠ نوفمبر ١٨٨١ ، عندما شهدت مصر أول انتخابات حرة لجمعية المندوبين الجديدة ، وقد أشرف بنفسه على الانتخابات ووجه تحذيرا صارما للموظفين من محاولة التأثير عليها .
ولم يكن دور اصلاحات شريف سهلا ، سواء داخل مصر أو خارجها ، حيث أن بعض الشخصيات الكبرى مثل رئيسى الوزراء السابقين ، وهما الأرمنى نوبار باشا ورياض باشا كانا محبين للأوربيين بحماسة ، وقد أزعجتهما تلك التطورات ، فعارضا شريف بقوة ، ايمانا منهما بمزايا التدخل الأجنبى الأكبر ،

والتدخل فى الشئون المصرية .

وقد عارضت الدول الكبرى ذاتها هذه الاتجاهات الاصلاحية بطبيعة الحال بزعامة بريطانيا وفرنسا اللتين كانت دوافعها تتراوح بين القلق على سداد الديون المختلفة التى أبرمها اسماعيل عن طريق بنوك أقراض ابتزازية ، وبين التخطيط للسيطرة على الممر المائى لقناة السويس الذى افتتح حديثا ، كما هو الحال بالنسبة لبريطانيا .

كانت كل هذه العناصر معادية للقضية الوطنية بصورة علنية ، غير انها تركت الى بيسمرك مهمة تدبير تخلى اسماعيل لصالح ابنه توفيق ، وهو شخص أقل موهبة من أبيه الى حد كبير . وقد اضطلع المستشار الألمانى بقضية الدائنين والمرابين المختلفين ، وقدم انذارا نهائيا الى الخديو اسماعيل فى مايو ١٨٧٨ بأنه يجب أن يسدد ديونه ، ولما كان اسماعيل ليس فى وضع يتيح له ذلك ، فقد قدم بيسمرك احتجاجا الى السلطان فى استانبول . وفى ٢٤ يونيو ١٨٧٩ أجبر اسماعيل على التنازل عن منصبه .

ولاشك أن الدائنين المختلفين الذين قدموا الديون لاسماعيل قد أصابهم الهلع من احتمال انتقال السلطة من أيدى الخديو الى أيدى جمعية وطنية منتخبة بطريقة ديموقراطية ، قد تمتنع عن السداد ، فطالبوا بإصدار « موراتوريوم » .

وقد يتسنى لنا جمع بعض الأفكار عن الطبيعة الماكرة لهؤلاء الدائنين ، من المعلومات الواردة فى كتاب « افساد المصريين : حكاية تتسم بالعار » للكاتب ج . سيمور كراى* الذى يقول فى مقدمة كتابه : « لقد فرض المضاربون الأوربيون على مصر دينا قدره حوالى ٩٠ مليون جنيه ، هو فى حقيقته حوالى ٤٥,٥ مليون جنيه فقط ، هو ما تم تسلمه اسميا .

ومن الممكن الاستدلال على تقييم لعمل شريف باشا من تحليل لوجهة نظره ، فقد كان الشىء الرئيسى الذى يشغل بال شريف ذاشقين : انهاء التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، وأن يدخل الاصلاحات الدستورية الضرورية التى تسمح لحكومة البلاد بأن تتصدر بشكل طبيعى داخل أسلوب ديموقراطى . ومع أن مثل هذه العمليات كانت ستؤدى حتما الى تحويل وضع الخديو الى حاكم دستورى ، فإن علاقة شريف الشخصية باسماعيل جعلت الأخير يوافق على التعاون فى العملية .

وبلغت الأمور ذروة الصدام عندما ألقى رياض باشا رئيس مجلس الوزراء الذى كان يضم يومئذ وزيرين فرنسى وبريطانى ، خطابا فى مجلس الشورى فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ ، وكان الهدف من الاجتماع هو حل المجلس ، وهو ما أعلنه رياض باشا ، غير أن الجمعية رفضته . وكانت يد الخديو مغلولة (ولا حاجة

* ج سيمور كراى : افساد مصر .. حكاية تتسم بالعار سلسلة الكتب الزرقاء كيجان بول ترنس وشركاهما ـ لندن ١٨٨٢

للقول فإنه لم يكن راضيا عن القرار) وجاء شريف الى السلطة ، ومضى على الفور فى اصدار الدستور .

كان دستور ١٨٧٩ قد روجع وأعيد اصداره فى ١٨٨٢ ، وكانت أهم أجزاء هاتين الوثيقتين أن الدستور الثانى لعام ١٨٨٢ يعد استمرارا وتحسينا للأول ، ولما كان كلاهما قد صدر تحت الرعاية المباشرة لشريف .. فقد كانا يعكسان لمسته الخاصة . وكانت المادتان ٢٣و٢٤ من دستور ١٨٨٢ تقرران اجراء تستطيع بموجبه الجمعية الوطنية أن تنقض سلطة الخديو ، وهو ما يعنى فى الواقع أن الحاكم ليست لديه سلطة فرض سياساته على الحكومة ، ولا حق الاعتراض على قرارات الجمعية ، بينما منحت المادتان ٣٠و٣١ الجمعية الحق التام للاشراف على الشئون المالية والرقابة عليها . وأعطت المادة ٣٠ بصفة خاصة الجمعية الحق فى الدفاع عن حرمة الملكية وراقبت تحصيل الادارة للضرائب .

كانت النغمة الملهمة لهذه الوسائل للاصلاح السياسى ذات نزعة وطنية قوية واضحة ، وقد أعرب شريف عن أسفه للانتهاكات التى حدثت فى مصر بواسطة مجموعات مختلفة من الأجانب الساعين للاثراء بسرعة ، والمراقبين الأجانب للدين ، والمستشارين الأجانب وغيرهم . وكان الخديو فى تحمسه لمهمة تحديث مصر قد أصبح مع الأسف هدفا للمستغلين الأجانب .. كان ذلك هو عصر الاستعمار القديم الردىء الذى لا يخجل ، عندما كانت بريطانيا وفرنسا معا يمارسان نشاطا كاملا لزيادة ممتلكات امبراطوريتيهما .. يوم أن كان الدخلاء على السياسة وبناة الامبراطورية ماضين فى الالحاح على افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية بتجارتهم بل وفى ولايات الجنوب المهزومة فى الولايات المتحدة .

وليس هناك شك كبير فى انه كان من مقاصد دستور شريف إبعاد أيدى الخديو عن عمليات الاقتراض ، وتقييد حق الحاكم فى إلزام البلاد بمسئولية الضمان المصاحب للقروض ، وقد تبين ذلك بوضوح تام فى مواد الدستور الجديد . ولم تكن عملية اقناع اسماعيل سهلة بطبيعة الحال ، بأن هذه الاصلاحات ضرورية ، ولم يكن محتملا أن يكون هناك أى شخص فى مصر غير شريف له هذه المنزلة الوثيقة والتقرب الشخصى من الخديو لكى يتمكن من انجاز هذه الأهداف . ففى هذه العلاقة الشخصية بين شريف والخديو اسماعيل يكمن ادراك مصدر تأثير شريف ، فقد أوفد الاثنان الى فرنسا معا كطلبة ، ومع أن شريف كان أكبر سنا بحوالى أربع سنوات ، فقد كان الاثنان صديقين حميمين وإن اختلفت شخصياتهما ..

كان اسماعيل وهو طالب يجد جاذبية حيال المرأة ، مهملا فى دراساته بعض الشىء ، أما شريف فكان من ناحية أخرى طالبا جادا مواظبا ، ينجح بتفوق وخاصة فى أكاديمية سان سير العسكرية المهيبة ، ومعهد الدراسات العسكرية

العليا ، ليصبح عضوا فى أركان الحرب الفرنسية العامة برتبة كابتن لفترة من الوقت . وكان شريف بفضل خلفيته ، والوضع الخاص الذى كان يشغله والده فى الهيئة الحاكمة خلال عهد محمد على ، يعامل كعضو من أسرة نائب الحاكم ، ويتمتع بصداقة حميمة مع اسماعيل الشاب سمحت له باتخاذ مواقف هامة ، ويقدم أحيانا نصائح غير مستساغة ، وهكذا استطاع أن يقوم بدور قيم فى وقت كانت الأزمة المصرية تقترب من ذروتها ، وهى الأزمة التى سببتها مديونية متزايدة للأوربيين وتغلغلا متزايدا منهم ..

كان الحل الذى يراه شريف من بعض النواحى ، هو اضفاء طابع دستورى على المسألة ، وإنشاء جمعية نيابية تعترف بديون مصر ، ولكن على ان تطبق اجراءات لسدادها تتفق مع الموارد المصرية ؛ وكان هدفه الرئيسى هو احباط أية محاولة من بريطانيا وفرنسا لاستغلال الموقف من أجل أهداف سياسية ، وهو أمر لا يتسنى عمله الا باستبدال حكم الخديو الأوتوقراطى بنظام ديموقراطى منتخب كما ينبغى ، بحيث يضمن سداد الديون بمقتضى اجراءات مقبولة وضمانات قانونية .

ونجح شريف فى الحصول على مساندة الخديو لاصلاحاته الدستورية ، واتخذ خلال وزارته سلسلة كاملة من التدابير الاصلاحية ، مما جعله فى رأى مؤرخين مصريين بارزين ومنهم عبدالرحمن الرافعى ، مؤسس الحركة الوطنية المصرية وزعيمها دون منازع فى القرن التاسع عشر .

وكيفما كان الأمر ، فإن حل شريف عززه عزل اسماعيل ، وإن كان الخديو الجديد توفيق قد ورث موقفا محرجا ، فقد واجه بعد رحيل أبيه فى المسرح دسائس سياسية ذات تيارات متعارضة من الأجانب الناهبين ، والجماهير الثائرة الساخطة من المصريين الذين كان لديهم الآن مساندة من الجيش ، وطالبت البلاد ممثلة فى أعضاء الجمعية الوطنية بأن يشكل شريف باشا حكومة وحدة وطنية فى سبتمبر ١٨٨١ ، وقد قام بذلك مشترطا أن يمتنع ضباط الجيش بزعامة عرابى عن التدخل فى السياسة ، إذ أن تدخلا كهذا ، قد يقدم للأجانب ذريعة للتدخل العسكرى فى مصر .

وقبل الضباط هذا الشرط ، واتخذت موافقتهم شكلا ملموسا بانسحاب القوتين الرئيسيتين اللتين يقودهما عرابى وعبدالعال حلمى من القاهرة فى أكتوبر ١٨٨١ . غير انه لم يمض وقت طويل حتى انتهك هذا الضمان ، واستقال شريف بعد أن عجز عن كبح جماح حماسة العسكريين الوطنية الزائدة . وتخلت الوزارة التى جاءت بعده بزعامة البارودى وعرابى عن حرصها من الرياح التى كانت تهب يومئذ ، واستمرت فى أعمالها التى جعلت الاحتلال الأجنبى أمرا لا مفر منه ، بتبنى أوضاع وطنية حماسية كفيلة بإثارة سرور سادة الحرب فى الغرب ، الذين استطاعوا بعد ذلك القيام بغزو سهل لمصر ..

وهكذا بدأ احتلال استمر فعلا حتى ١٩٥٤ .

ان الحقيقة الواضحة والقاسية لما حدث ، هى أن السياسة البريطانية كانت تعتزم تحت ستار الاحتلال الاستيلاء على قناة السويس ، وتفتيت الامبراطورية العثمانية ، ولهذه النوايا أهمية رئيسية بطبيعة الحال لابد من تنفيذها . وتولى شريف رئاسة الوزارة فورا عقب الاحتلال ، ورغم تمكنه من الاشراف على استمرار الاصلاحات القانونية والادارية التى بدأها قبل ذلك ، فقد كان من المحتم أن يصطدم مع المندوبين البريطانيين وخاصة مع المعتمد البريطانى والقنصل العام سير ايفلين بارنج ، الذى أصبح فيما بعد لورد كرومر .

وبلغت الأمور ذروتها حول عراقيل بارنج فيما يتعلق بالسودان ، ونصيحة المعتمد البريطانى بالتخلى عنه . وقد استقال شريف فى ٧ يناير ١٨٨٤ عقب صدام مع بارنج حول ما يراه هو من ضرورة انقاذ الخرطوم ورفضه قبول اقتراح بارنج بضرورة ترك السودان . وشاهدت الأشهر التى أعقبت استقالته الرأى العام البريطانى بزعامة الملكة فيكتوريا وهو ينقض قرار بارنج ، ويتخذ قرارا بإنقاذ الخرطوم والاحتفاظ بالسودان ، ولكن شريف كان عندئذ قد أصبح رجلا عليلا ، ضحية للاجهاد والتوتر الذى تعرض له خلال توليه منصبه ، وتوفى فى ابريل ١٨٨٧ بينما كان يعالج فى جراتز بالنمسا ، ودفن فى القاهرة ، وكان موكب جنازته مهيبا ضم حوالى عشرة آلاف شخص خلال شوارع القاهرة التى امتلأت بالأهالى الذين خيم عليهم الحزن ..

وهكذا يمكننا أن نرى أن فاروق يستطيع أن يزعم أنه كان من ناحيته أمه ينتمى الى سلالة وطنى مصرى حقيقى ، ينتسب بالوراثة بنبى الاسلام عن طريق جده الحسين . ومازال المصريون حتى اليوم يذكرون شريف باشا كواحد من أكبر المؤسسين لمصر الحديثة .. وجد جدير بالتكريم دون جدال ..

ومازالت الأسباب والظروف التى أدت الى احتلال مصر فى ١٨٨٢ تثير قدرا كبيرا من الجدل .. لقد كان هذا العمل نموذجا كلاسيكيا لدبلوماسية زوارق المدفعية التى كانت سائدة فى ذلك الحين ، غير ان نجاحها كان يتطلب تآمرا بريئا من جانب الضحايا المحتلين ، ضد المصريين الذين كان لابد من اظهارهم فى صورة المعتدين والبلطجية الذين يزعجون الأجانب وأنصار للعنف الذى يقوم به الغوغاء ، وإرهابيين يهددون القيم والمبادىء المسيحية . وكانت اللغة التى يستخدمها الاستعمار « المظلوم » سخية ، وما أسهل وصف الكلب باسم سيىء .. أما فى انجلترا ، حيث يوجد رأى عام ساذج بصفة عامة يفتقر الى الوعى لكى يميز بين الدعاية والواقع ، فقد كانت مهمة خبراء الدعاية والجدل سهلة لاقناع الشعب بما فى قضية الامبراطورية من طهارة ومبررات أخلاقية صالحة .

كان الحصول على تأييد الرأى العام تكتيكا ينبغى أن ينجح فيه

الاستعماريون فى بريطانيا ، حيث كانت موافقة الرأى العام ضرورية للقيام بمغامرات عبر البحار ، حتى اذا كان بعض بناة الامبراطورية الأكبر مقاما قد نجحوا فى تجاوزها .. ومازال الرأى العام البريطانى يمارس تأثيرات حاسمة فى حالات معينة على الأقل ، وهو ما يتيح لنا أن نستنتج بأنه لو كان شريف قد ظل رئيسا للوزراء ، لما كان هناك أى مبرر للاحتلال يبرر بصورة كافية السماح بإرسال تجريدة عسكرية الى مصر .. وكما أصبح معروفا .. فان مواقف عرابى باشا وضباطه المتطرفة وغير الحكيمة ، وأعضاء الجمعية الوطنية الأكثر تعطشا للدماء ممن رفضوا نظام الحذر والحرص الذى دعاهم اليه شريف باشا ، خلقت بوضوح الظروف المسبقة التى لم يكن البريطانيون بدونها يستطيعون أن يقوموا بأى احتلال ..

٥ ـ تركة الملك فؤاد

ان دراسة العلاقات المصرية ـ البريطانية أمر ضرورى لفهم المشكلات المعقدة التى واجهت فاروق الشاب بعد وفاة أبيه . وعندما ننظر أولا الى ذلك الحدث الأول وهو الاحتلال البريطانى لمصر فى ١٨٨٢ ، فإنه من المحزن أن نلاحظ مدى قلة الأضواء التى ألقيت عليه والظروف التى أدت اليه ، والتى يمكن القول بأنها دفاع عن القضية لصالح المصريين . ان كتابات المثقفين والاختلافات والاستنتاجات التى أعقبت هذا الحدث تلقى كلها بثقلها الى جانب وجهة النظر الأوربية . وبمرور الزمن ، كانت الرؤية المصرية للأحداث يحوطها الابهام والغموض كما شوهتها حكايات الوطنيين المصريين حسنى النية الى حد خطير ، وإن كانت تغلبها العاطفة فى ذلك الحين فى أغلب الأحوال .

وقد نسمح لأنفسنا ونحن فى الثمانينات من القرن العشرين ، بأن نجرى جراحة انفصالية معينة فى تقييمنا وتقديراتنا فى هذا الصدد . ففى عام ١٨٨٢ كان الهدف البريطانى الرئيسى هو اعادة الخديو توفيق الى عرش مصر وسط محيط سياسى يسيطر عليه البريطانيون ، وخلال ذلك يجرى قمع ردود فعل الوطنيين المصريين سواء كان لها ما يبررها أم لا . وما نتج عن ذلك من مساندة الحكومة البريطانية للحكم المطلق من خديو غير محبوب مراوغ ، ضد أحرار ديموقراطيين متعلمين كانوا قد حققوا هدفهم ضد الملكية المطلقة . ومن الممكن تفسير ما قد يبدو للبعض سياسة بريطانية غير منطقية وغير مميزة . والتناقض

الظاهرى يتكون فى الواقع من تأييد للملكية المطلقة من جانب دولة مخلصة لنظامها الملكى الديموقراطى الدستورى . وقد يضيف المراقب الساخر إلى ذلك أنه باستثناء المشكلات السياسية والعسكرية لاحتلال مصر ، كانت هناك أيضا مسائل هامة للحصول على ضمان من المصريين حول ديون الادارات السابقة ، وكانت تلك الديون التى تبلغ حوالى ٩٠ مليونا من الجنيهات ، قد أقرضت للخديو اسماعيل ـ كما رأينا ـ بمقتضى أقسى الشروط التى وضعها المراقبون .

وليس هناك شك فى أن الخديو اسماعيل فى محاولته الجديرة بالثناء لتطوير مصر وتحويلها الى دولة عصرية ، قد سمح لنفسه بأن يقع ضحية لعدد من أكبر مرابى أوربا جشعا فى القرن التاسع عشر . ولاشك هناك أيضا فى أن التفاوض بشأن القروض والحصول عليها تم فى ظروف لم تكن تسمح بالوفاء بها على أية حال بطريقة معقولة ، كما أن خفض سعر بيع أسهم مصر فى قناة السويس لبريطانيا عن طريق بنك روتشيلد ودزرائيلى يعد دليلا لا يحتاج الى الكثير من التفسير أو التعليق من مصر .

وهناك من رأوا ـ يومئذ والآن ف أن احتلال ١٨٨٢ هو ذروة مؤامرة دولية كبرى لاستغلال مزايا مصر الاقتصادية والسياسية الضخمة ، إذ أنه لكى تصبح مصر ـ كما حدث فعلا ـ القاعدة الكبرى التى سوف تبنى منها الامبراطورية الافريقية البريطانية ، والاحتفاظ بالامبراطوريتين الهندية والآسيوية والسيطرة عليهما ، كان من الضرورى الابقاء على يد بريطانية قوية فى القاهرة ولن يكون هناك لغو ديموقراطى أو برلمانى يقف فى طريق الخطط الامبريالية ، وكان كل ما تحتاجه بريطانيا فى الواقع ، هو خديو يكون لعبة فى يديها ، تسانده حكومة أشبه بالدمية وشعب صامت ، وهى التركيبة الكلية لخدمة المصالح البريطانية .

ولم يكن تحقيق هذا الوضع أمرا يسيرا كما قد يخيل للبعض .. فالوطنيون فى مصر ليسوا كرجال الأحراش الافريقيين ، اذ كانوا متعلمين ذوى عزائم قوية ، وأغلبهم مسلمون يتكلمون الفرنسية ، ممن عملوا على ايجاد مفهوم جديد فى نطاق الدولة الاسلامية ، وقد سبقوا بقية العالم الاسلامى كثيرا ، بما فيه تركيا العثمانية . وكان الكثيرون من الزعماء الذين يعارضون بريطانيا أفضل تعليما وأرفع ثقافة من البيروقراطيين البريطانيين من الطبقة المتوسطة ، الذين سرعان ما شحنت بهم الادارة المصرية بصورة كبيرة ..

وثمة عامل آخر لا يمكن استبعاده ، وهو أن المؤسسة المصرية كانت خالية من الهموم الاجتماعية التى تشغل بال الطبقة الانجليزية المتوسطة الحساسة تجاه الهيئة الحاكمة ، حتى كان كثيرون جدا منها موضع ازدراء من البريطانيين الأفضل اجتماعيا ممن يتطلعون الى إلقاء تعقيداتهم على المصريين .. وقد أورد

الدبلوماسى البريطانى سير رونالد ستورز* التعقيب التالى فى مذكراته :

« لم تبذل زوجة المسئول أى جهد للتعرف أو عقد صداقة مع زوجات وبنات زملاء زوجها أو مرؤوسيه ، وفى جو من الاستسلام العنيف كانت تجبر نفسها على أن تقدم فى عصر أحد الأيام على زيارة سيدة مصرية أو تركية باعتبار انها ليست أفضل منها مولدا أو تربية أو أفضل قراءة أو منظرا أو ثيابها منها » ..

كانت مثل تلك الانعكاسات تكفل الأرضية الخصبة للنزعة العنصرية ، غير ان الوطنيين المتحمسين لم يكبتهم شىء ، وكانوا قادرين فعلا على أن يستحوذوا على تأييد شعبى قوى ، ويرجع ذلك جزئيا الى أن ادارة محمد على لم تكن كما يعتقد البعض محاولة من حكم تركى للأقلية للابقاء على نفسه على حساب الفلاحين ، بل على العكس من ذلك تماما ، فقد كان فى نية محمد على واسماعيل ادخال أكبر عدد ممكن من أبناء مصر الأصليين الى الحكومة وتطوير بلادهم ..

ان الدستور الديموقراطى ، الذى أوقف منذ الاحتلال البريطانى ، صاغه الشيخ الطهطاوى ، الذى صحب ـ كما رأينا ـ أولى البعثات المصرية الى فرنسا ، وترجم فيما بعد كتاب « روح القوانين » للفقيه القانونى الثورى مونتسيكيو الى العربية ، وكانت أمور التعليم بين يدى على باشا مبارك ، الذى وضع وقاد الاصلاحات التعليمية فى تلك الفترة . وكان كل من هذين المثقفين وكثيرون غيرهما من أبناء فلاحين فقراء ، اختارهم نظام يعتمد على الخبرة لا الحظوة . ومما تجدر الاشارة اليه أن الملك فاروق نفسه ، كان من ناحية أمه ، من سلالة الضابط الفرنسى سيف ـ سليمان باشا فيما بعد ـ الذى وضع أسس جيش محمد على ، الذى استخدم لهزيمة الأتراك فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . وكان سليمان باشا رئيسا للجان الاختيار للبعثات الى أوربا ، وكان عاملا رئيسيا فى مراعاة الجدارة واجراء الاختبارات الكافية لاختيار المرشحين ، وهو أمر لا غرابة فيه ، اذ كان سليمان باشا نفسه من أسرة فقيرة من الفلاحين .

وهكذا فانه من المحتمل تماما ـ وهو ما أدهش البريطانيين ـ أن تلقى الحركة الوطنية تأييدا واسعا ، ويمكنها الاعتماد على أصوات ناخبى الأشخاص العاديين . وكما سجل لانداو* فى كتابه « برلمانات وأحزاب مصر » فان جمعية المندوبين فى ١٨٦٦ كانت تضم ٥٨ عمدة من بين ٧٥ مندوبا ـ أى أن حوالى ٨٢,٨٦٪ منهم كانوا فلاحين .

وكان من بين المشكلات البريطانية ، أن الأحرار البريطانيين أنفسهم ، وكان الرحالة والشاعر ولفريد سكاوين بلنت مثالا لهم ـ ويتزعمهم راندولف تشرشل كانوا يمثلون عاملا قويا فى برلمان وستنمستر ، وقد طالبوا بجلاء القوات

(*) سير رونالد ستورز « مذكرات رونالد ستورز » ج ٠ ب ابناء بوتمان ـ نيويورك ١٩٣٧ ـ ص ٨٩

* لانداو « برلمانيات واحزاب مصر » بْريجر ـ نيويورك

البريطانية عن مصر ، وقد نجم عن ذلك أن الأنشطة التى تحدث فى القاهرة كانت تقع تحت عين لندن مباشرة ، واستطاعت اثارة مناقشات جدلية فى البرلمان والصحافة فى كثير الأحيان .

كان هؤلاء جميعا عوامل أساسية فى لعبة الشطرنج العسكرية والسياسية البريطانية . ولما كانت مصر تقع تحت سيادة السلطان العثمانى ، فانه لم يكن من السهل أن تضمها بريطانيا كإقليم مستعمر ، وكان لابد من تملق استانبول ، وفى الوقت نفسه كانت الدول الأوروبية الأخرى تسعى لتحقيق أهدافها ومطامعها الخاصة فى القاهرة ، وكان أشهرها فرنسا ، التى كانت حتى اذلالها فى حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ، ومولد « الوفاق الودى » فى ١٩٠٤ من الممكن توقع أن تشجع بنشاط معارضة الاحتلال البريطانى .

وبحكم الظروف ، أصبحت سياسة الحفاظ على توازن القوى أمرا أساسيا لأنشطة دار المندوب السامى البريطانى والمفوضية العليا لقصر الدوبارة . وهناك مشكلة بريطانية معينة مستوطنة ، وهى الانجليزى « المناهض للمؤسسة » الذى بدلا من أن يقتصر على الحى المعهود للدبلوماسيين البريطانيين المحليين ، أو المبعدين اداريا ، كان يفضل تذوق متعة حضور المناسبات الاجتماعية مع المصريين ، وقد أثار هذا النوع من التصرف كثيرا من الارتباك فلم يكن سهلا دائما بالنسبة للجانب المصرى أن يحدد المكانة التى يتمتع بها هذا الانجليزى « الودود » بالضبط لدى السلطات البريطانية . وكانت هذه الاتصالات الخاصة تعتبر فى أغلب الأحيان . وكانت كذلك فعلا أحيانا - موصى بها من « الراجا » البريطانى الذى يقرها سرا ، مما يدعم صورة عن مدى شيطانية البريطانيين فى مكرهم السياسى وخداعهم الميكيافيلى ..

وليس هناك شك كبير فى أن المؤسسات المصرية الحاكمة فى فترة ما بعد الاحتلال ، كانت تتجاهل بوجه عام التيارات المتعارضة التى تؤثر فى الموقف المصرى فى وستمنستر ، ومهما كان تودد ولفريد سكاوين بلنت الى عرابى والوطنيين حسنى النية ، فانه انتهى الى سخط تام عليهم ، بل انه فسر غالبا باعتباره لعبة واسعة شريرة هدفها تشجيع ثورة عرابى لاعطاء الانجليز ذريعة للتدخل العسكرى . ومن المحتمل أن يكون الميل القوى لفرنسا لدى الطبقات المصرية الحاكمة قد دعم أيضا الشكوك المصرية حيال الخونة الانجليز ..

وقد نفترض بإدراك متأخر ، أنه لو أن حكام مصر كانوا يفهمون الموقف الداخلى فى لندن بصورة أفضل ، لاستطاعوا الحصول على تأييد قوى من بعض الفئات فى برلمان وستمستر ، حيث كانت للمسألة المصرية أهمية تكفى لوقوع مصادمات ومناقشات فى مجلس العموم ، وبالمثل كان الأمر سيسير بشكل طبيعى لعباس حلمى - آخر خديو مصرى (من ١٨٩٢ - ١٩١٤) لو كان قد ربط نفسه بمشروع مثل الخط الحديدى من كيب تاون إلى القاهرة . غير أنه يبدو أنه

لم يكن هناك مصالح عادية متبادلة يمكن أن تسهم فى توثيق العلاقات بين الخديو والحاكم العسكرى البريطانى .. ولكن ماذا كان لدى الخديو لكى يقدمه يومئذ ؟

ومن المحتمل أن تتناقض السرية المستترة التى صاحبت إنشاء البنك الأهلى المصرى بواسطة مجموعة من الماليين من عصر إدوارد ، برئاسة السير ارنست كاسل مع هذه المسألة ، فقد ذكرت الأنباء أنه تم الاتفاق مع الخديو على « صفقة » بشأن الممتلكات الملكية المملوكة على المشاع لأسرة محمد على ، والتى كانت تحت يد صندوق الدين فى بنك الكريدى ليونيه فى ذلك الحين ، على أن يشترى كونسورتيوم بريطانى يمثله البنك الأهلى المصرى الذى سيجرى إنشاؤه كبنك لاصدار هذه الممتلكات ، ثم تباع الأراضى بعد ذلك بسعر أساسى ، يتم تمويله من خلال البنك الأهلى إلى مجموعة مختارة من أصحاب الأراضى الريفيين الموالين لبريطانيا ، ويطلب منهم سداد ثمنها بضمان محصول قطنهم عاما بعد عام من خلال معاملات يدبرها البنك ، مع ربط صاحب مصانع لانكشير بمنتج القطن المصرى .

وقيل يومئذ أن الخديو حصل على عمولة ضخمة من بيع هذه الأراضى ، وسواء كان ذلك حقيقيا أم لا ، فإنها مسألة جديرة بالدراسة والتحقيق مستقبلا ، ومهما كانت حقيقة أن هناك مؤامرة أم لا ، فالمؤكد أن المصالح السياسية البريطانية قد خدمت بصورة رائعة ، إذ أنهم لم ينشئوا البنك الأهلى المصرى فحسب ، وهو البنك المركزى لاصدار العملة ، بل إنهم أوجدوا فى نفس الوقت هيئة قوية من الأصوات فى البرلمان الوطنى ، تمثلها طبقة جديدة من أصحاب الأراضى أبناء البلاد ، هى الفلاحين الباشوات

كان الباشا الفلاح هو العنصر السياسى الجديد الذى جاء إلى برلمانات عهد الملك فؤاد . وكان هؤلاء باشوات من المزارعين المشكوك فى ولائهم للحاكم ، الذين يقتنون ممتلكات من الأراضى الشاسعة ، ويتحالفون مع مصانع لانكشير الذين كانوا شركاءهم الماليين الرئيسيين ، ومن ثم فإنهم كانوا عاملا سياسيا جاهزا له تضمنيات هائلة ، تحت تصرف المندوب السامى البريطانى .

وقد حقق الباشوات المزارعون فى أغلب الأحوال شهرة فى حزب الوفد حيث كان من الممكن برعايتهم ومساعداتهم المالية الاعتماد على جمع الأصوات للسياسيين الوطنيين فى القاهرة ، وتشجيع النزعة الجمهورية المستكنة فى هذا الوسط .. وهكذا كانت هناك عناصر قوية منذ البداية للافساد السياسى الذى كان يمكن الاحساس به فى البناء .

وفى عام ١٩٢٣ ، وهو العام التالى لاعلان فؤاد أول ملك لمصر ، ورث دستورا من نوع جديد ، وكانت المواجهة الكامنة بين القصر ومجلس الوزراء شيئا متوطنا . وقد تم تجميع هذه الوثيقة تحت تأثير تدخل قوى من قوى دخيلة على

المسرح المصرى بكل معنى الكلمة . وكانت دار المندوب السامى ، وهى طرف ثالث فى كل الحادثات المحلية ، تتصل بلندن كلما تطلبت الظروف . وسواء كان هؤلاء من أصل سيكيافيلى أم لا ، فإن لنا أن نتوقف هنا للاعجاب بالطريقة التى بدت فيها الظروف وهى تؤدى إلى خدمة المصالح البريطانية .

لقد ابتعد الحكم الاستعمارى المباشر لمصر لأسباب دولية كما رأينا ، ولما كان الوطنيون فى مصر لا يمكن إزالتهم أو هضمهم ، فقد كانت اللعبة بحكم الظروف هى لعبة توازن القوى ، وكانت عناصر اللعبة تتطلب فريقين داخليين يمثلان القصر ـ سواء كان خديويا أم ملكيا ـ وجبهة شعبية وطنية تمثلها تلك الأحزاب التى يمكنها أن تجمع تأييدا شعبيا وطنيا قويا . وينبغى أن يكون لهذين الفريقين قوى مواجهة ، وألا يكون لأى جانب سلطة كافية لاقتلاع الآخر تماما ، وكان دور دار المندوب السامى يومئذ هو دور الحكم ، وصانع الثقل القادر على ترجيح كفة الميزان نحو القصر أو الأحزاب .

لقد كفل دستور ١٩٢٣ ، الذى وضع بإشراف البريطانيين وتدخل مجموعة غير رسمية من فقهاء القانون الوسيلة للسماح بهذا النوع من العمل ، وكانت سمته الرئيسية الغموض فى تحديد الامتيازات للملك ، وحقوق الحكومة فى الاعتراض ، فلم يكن نظاما دستوريا يمكن أن تحدد بمقتضاه الحقوق الملكية وتعرف بدقة ـ كما هو الحال فى بريطانيا ـ كما أنه لم يكن وثيقة حكم مطلق ، يستطيع الملك بموجبها الاعتراض على قرارات السلطة التنفيذية ، بل كان دستورا لا يمكن أن يؤدى إلا إلى تشجيع المنازعات المستمرة بين الملك والشعب ممثلا فى الأحزاب ، وهى المنازعات التى أدت فى النهاية إلى تدخل الحاكم البريطانى الذى كان يستخدم الضربة الحاسمة عادة لمصلحة البريطانيين ..

كان هذا فى جوهره هو سياسة « فرق تسد » التى كانت تمارس بصورة فعالة خلال حكم الملك فؤاد ، وطبقت بطريقة أدت إلى كارثة فى عهد الملك فاروق كما سنرى .

وقبل أن نترك هذا الفصل ، ينبغى أن نمعن النظر أخيرا فى الجانب الأكثر إنسانية للمواجهة المصرية ـ الانجليزية ، إن هناك سؤالا واحدا يقفز إلى الذهن على الفور وهو : لماذا كان بعض المندوبين البريطانيين محبوبين ومحترمين ،حتى ولو كلفوا بمهام غير محببة ، بينما كان البعض الآخر مكروهين ؟ .. لقد قدم لى دبلوماسى مصرى هذا التفسير : « من الصعب أن تجد توازنا اجتماعيا داخل صفوف الانجليز ، إذ يتسلط عليهم نظام الطبقات عندهم بحيث لا يمكنهم أن يجدوا التقدير الصحيح للفروق الدقيقة التى تسمح لهم بأن يكونوا دبلوماسيين .. فهم إما « سادة مهذبون » ـ جنتلمان ـ وإما « بقالون » .. ونحن لم نستطع التفاهم مع البقالين ! ؟

وينبغى أن نتذكر هنا أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن قد أصبحت فى

أيدى الطبقة المتوسطة تماما فى ذلك الحين ، وكانت الخدمة فيها تجتذب ذلك النوع من السفير النبيل القادر على الجمع بين الضغوط والرقة الدبلوماسية دون أن يزعج محدثيه . وقد أدى ذلك إلى لعبة على غرار دكتور جيكل ومستر هايد التى تعتمد على التخمين كلما عين سفير جديد .. وهل سيكون « جنتلمانا » أو « بقالا » ؟

وخلال السنوات التالية استطاعت الطبقة البريطانية المتوسطة أن تتغلب إلى حد كبير على موانعها الاجتماعية ، واضمحلت الروح « الانجليزية » الحاسمة للسفراء البريطانيين البورجوازيين قبل الحرب حتى أوشكت على الانقراض ، وسيكون أشجع الرجال هو الذى يجرؤ اليوم على أن يذهب مختالا إلى حلبة السباق فى نادى سبورتنج كما كان يفعل لورد كيلرن ولورد لويد ، وهما يرتديان الثياب الكاملة لحضور سباق اسكوت البريطانى ، وهى العادة التى كانوا يمارسونها باستمتاع مع كثير غيرها من مظاهر الكبرياء الاجتماعية الأخرى ، التى كانوا يلوحون بها إلى حد ما فى وجوه خديو وملوك مصر ، لكى يذكروهم بطريقة لا لباقة فيها بأن تقاليد المملكة العظمى عبر البحار تراعى هنا فى ممتلكاتها المتحدة .. فى محمية مصر المستترة ، كما قيل أن لورد كرومر قد وصفها .

٦ ـ سياسات القصر

كان من الآثار الأولى لخطة الملك فؤاد التعليمية ، هى عزل ابنه عن الأطفال الذين فى سنه ، إن تعليم فاروق المصرى عزله بصفة عامة عن أطفال الأمراء الآخرين من أعضاء الأسرة ، الذين كانت خلفياتهم اجنبية بصورة سائدة ، فقد نشأ بعضهم فى استانبول ، حيث كانت الأسرة المالكة المصرية ماتزال تمتلك هناك دورا كبيرة فاخرة ، وكانت تركيا العثمانية منتجعا راقيا لقضاء عطلات الأمراء المصريين فى السنوات السابقة للحرب ، حيث كانت تعتبر مكانا جيدا لايداع الأسرة ـ النساء والأطفال ـ بينما يسعى الرجال وراء حياة أكثر جرأة فى باريس والريفييرا ، وكان بعض الأمراء الشبان الآخرين يرسلون إلى بريطانيا ، اعتقادا بأن التعليم الانجليزى قد يكون مفيدا لمستقبلهم خلال تلك الفترة البديعة من الخريف الامبراطورى الذى سبق الحرب العالمية الثانية .

وكان الخوف من منافسات أعضاء الأسرة المالكة ومطامع الأمراء ، هو الذى جعل فؤاد يجعل التآخى مع بقية أعضاء الأسرة عند أدنى حد ، وهكذا نجد لدينا صورة عن فاروق الصغير الوحيد وشقيقاته ، يعيشون فيما يشبه السجن وسط بيئات مترفة بقصر القبة فى القاهرة ؛ وقصر المنتزه بالاسكندرية ، وكلاهما مؤسسات كبيرة بعيدة ، تحيط بها جدران عالية لا يمكن تسلقها ، يقوم أعضاء الحرس الملكى الخاص ذوو الأجسام القوية المسلحون جيدا بحراسة مداخلها .

وأصبح التغلب على المربية مسز نايلور ، هو الشغل الشاغل للشاب الذى

سيصبح ملكا ، وقد ساعده الحظ على العثور على حلفاء بين موظفى القصر ، فقد كان أنطونيو بوللى كهربائى القصر إيطاليا أنيسا كتوما ، فأصبح موضع ثقته ، وجعله يزيف المفاتيح حتى يتمكن من التسلل خارج القصر ، ويحتسى الشراب كما يشاء حتى الساعات الأخيرة من الليل ، بينما تكون مسز نايلور تغط فى نوم عميق بغرفتها المجاورة .

وكانت الحلوى التى تمنعها المربية البريطانية تصل إلى سموه بواسطة أعضاء آخرين من العاملين فى القصر . وبينما كان الأمير الشاب يستعد للاكاديمية العسكرية فى وولويتش ، كان تحت تصرفه جماعة صغيرة من المافيا من حلفائه بالقصر ، الذين كوفئوا مع الوقت بصورة مناسبة ، فقد أصبح أنطونيو بوللى ، بوللى بك ، والسائق حلمى أصبح الاميرالاى حلمى وهكذا .. وكذلك كوفىء جارو الحلاق الايطالى وجافازى حارس الكلاب الملكية السويسرى ـ الايطالى .

غير أن الفترة التى قضاها فاروق فى إنجلترا ، حملت معها أول ظهور للشاب كشخصية سياسية هامة ، عندما حضر جنازة الملك جورج الخامس الراحل كممثل رسمى لوالده ، والأهم من ذلك أنه تعرض لأول تآمر عليه وهو فى القصر ، والتى ستكون لها عواقب خطيرة على المدى الطويل يتمثل فى الصدام الذى وصفناه قبلا بين حسنين باشا الرجل الاجتماعى اللطيف الحذر ، وعزيز المصرى باشا الماكر الذى يتمتع بقدر كبير من الذكاء والخطورة .

وعاد فاروق الى مصر من وولوتيش ، ومع أن أعضاء الأسرة المالكة الذين تمثلهم قلة من الأمراء كانوا يشكلون تهديدا للعرش أقل مما يمثلونه لراحة باله ، بينما كان أغلبية الأمراء يتطلعون نحو امكانيات رابطة القرابة ، وكان القرار الأخير دائما فى أيدى البريطانيين ، وكان هذا يعنى أن على الملك أن يكون حريصا حتى لا تنمو صداقة وثيقة للغاية بين بعض أعضاء الأسرة والسفارة البريطانية . وكان هناك اعتبار مريح ، وهو أن أغلب الأمراء كانوا يحبون الألمان بحكم تعليمهم ، ومن ثم فإنه ليس من المحتمل أن يثيروا حماسة السفير البريطانى إذا تولوا بعض المناصب العليا فى البلاد ، ومع ذلك فقد كان هناك عامل يثير القلق إلى حد كبير مازال قائما يتمثل فى العداء الشخصى الظاهر للسفير البريطانى ، والذى كان من الممكن أن يؤدى ـ كما حدث بعد بضع سنوات ـ إلى تهديد خطير لمركز الملك ، ولكن الأمور فى ١٩٣٦ كانت لا تجعل من الممكن إيجاد اى بديل مناسب لفاروق الذى يتمتع بشعبية عالية .

وفى نفس الوقت ظهر أمر عجيب غطى على المسألة كلها .. لقد زعم البعض أن إبراهيم باشا لم يكن ابنا لمحمد على ، ومن ثم فإن أبناء وأحفاد إبراهيم ليسوا ورثة شرعيين لهم حق خلافة محمد على الذى انتزعه من سلطان تركيا وشركائه الأوربيين بواسطة فرمانات ١٣ فبراير وأول يونيو ١٨٤١ ، عندما منح حكم

مصر الوراثى . ولو كان الأمر صحيحا ، فإن سلسلة الخلافة كلها من الخديو إسماعيل حتى فاروق ، تصبح غير شرعية ، وكان المطالبون للعرش يضمون الخديو عباس حلمى الثانى الذى كان يعيش فى ألمانيا انتظاراً لفرصته فى العودة ، والأمير عباس حليم ، الذى ينحدر من حليم باشا ، وهو ابن حقيقى لمحمد على ، وابن عمه الأمير سعيد حليم الذى اتخذت مطالبته للعرش شكلا هزليا إلى حد ما ، غير أن فاروق ظل من بينهم جميعا ، الأكثر ملاءمة ، وخاصة أنه كان الأمير الوحيد الذى تلقى تعليما خاصا على نمط مصرى ، ومع ذلك فإن هذاالأمر وضع فى طريقه بمجرد أن أصبح ملكا سلسلة كاملة من مشكلات محتملة ،..من السهل أن يطورها أعداؤه وخصومه إلى مواقف خطيرة .

أما من الناحية النفسية فقد وجد فاروق نفسه واقعا بين موقفين محرجين : الاحتفاظ « بوجهه » كملك مصر ، أو الاعتراف بأنه يفتقر إلى الخبرة والمعرفة اللازمين للحكم بكفاءة . غير أن مكانة أمه وسلطتها كانا عاملين قويين ، وهو أمر لا غرابة فيه ، لأنه يتفق مع الدور العام للأم فى المجتمع الاسلامى ، وقد كتب الكثير من الهراء عن وضع التبعية للمرأة فى الاسلام إلى حد حجب الكثير من الحقائق المتعلقة بالموضوع . إن احترام الوالدين وخاصة الأم مبدأ أساسى فى العقيدة الاسلامية ، ويقال للمسلمين منذ باكورة الصبا « إن الجنة تحت أقدام الأمهات » ولما كان الحب البنوى للأمهات سمة عامة فى العالم الاسلامى ، فإنك تجد فى خلفيات أغلب الزعماء ، شخصية أم بارزة ، جديرة بالطاعة والاحترام كأمر طبيعى تؤكد عليه التقاليد والدين ايضا . وهناك مثال شهير لذلك ، هى الملكة شجرة الدر آخر ملكات الأيوبيين ، وأول ملكة من المماليك ، فقد أبقت نبأ موت زوجها سرا حتى يتمكن ابنها الغائب فى سوريا من العودة إلى مصر ، وخلال ذلك أدارت أمور البلاد بنجاح ، وانزلت الهزيمة بالحملة الصليبية السادسة فى عام ١٢٥٠ وأخذت ملك فرنسا أسيرا .

ولو أن براعة الملكة نازلى فى أمور سياسة الدولة نجحت ، لدعمت حكم ابنها بلا شك ، فقد كانت تؤمن بشدة أنه فى حاجة إلى الاحتفاظ بعلاقات وثيقة وودية مع حزب الوفد الوطنى فى شخص زعيمه النحاس باشا الذى كانت زوجته زينب الوكيل سيدة قوية تنبض بالحياة وهى صديقة لها . ولسوء الحظ كان هذا يعنى معارضة شديدة فى إحدى قاعات المدينة ، تضم رؤساء البريطانيين فى قصر الدوبارة ، ومختلف الباشوات الوطنيين والسياسيين الذين أزعجتهم شعبية الملك فعلا ..

كانت سياسة « فرق تسد » معرضة للخطر إلى جانب مستقبل مجموعة مختلفة من السياسيين الطامعين الذين لا ضمائر لديهم ، غير أنه كان هناك عنصر آخر يمكن الاعتماد عليه لاحباط أية محاولة للتآخى مع النحاس باشا والوفد ، وهى الزمرة الصغيرة من الباشوات الذين كان مستقبلهم وثرواتهم

ترتبط مباشرة بالحظوة الملكية . لأنهم يفتقرون الى التأييد الشعبى ؤ
وكان بين هؤلاء على ماهر باشا الذى كان اكثرهم نفوذا ، وقد اعتمد فاروق على على ماهر الذى كانُ زعيما لحزب الملك فى عهد فؤاد ، للحصول على الكثير من تعليمه السياسى المبكر ، ولو تمكن الباشا من تعليمه عناصر الخداع السياسى ، ولم يكن هناك معلم افضل منه لذلك ، لاستطاع ايضا ان يستخدم شعبية الملك فاروق التى لاشك فيها ، بدلا من أساءة استخدام ثقة الملك فى خدمة مصالحه الذاتية ؤ
غير أنه برز عنصر سياسى اخر جديد بعد زواج الملك فاروق من صافيناز ذو الفقار ، حيث اتجهت مجموعة افضل ما توصف به هو أنها أسرة الملكة فريدة بزعامة خالها حسين سرى باشا لمنافسة على ماهر ، باعتبارها ممثلة لزمرة سياسية ملكية، ولما كان سرى باشا ليس لديه أى تأييد شعبى ، فأنه مدين بصعوده الى حد كبير الى الروابط العائلية بملكة مصر الشابة ؤ
وقد نتوقف هنا أيضا قليلا لكى نوضح أن مصر منذ العصور الأولى ، وخاصة منذ عهد المماليك كانت تسودها تقاليد المؤامرات ، والمؤامرات المضادة التى لعبت فيها الصلات العائلية وروابط الدم وأشكال مختلفة من الأقرباء دورا لاشك فيه فى الصراع الداخلى بين مختلف العناصر على المسرح السياسى ، وكانت القاهرة تكاد تشبه دول المدن فى عصر النهضة الايطالى فى تكوينها السياسى ، حيث يحارب ال مونتاجيو ضد ال كابوليت ، وفى كثير من الأحوال كانت الحروب القديمة تنبثق عن تمرد جديد ، وهكذا كان الأقارب يفرضون انظمتهم على اعضاء الأسرة ؤ
ولعل فاروق كان يأمل انه سوف يستطيع بمرور الزمن أن يعتمد على حسين سرى باشا باعتباره من الأسرة المالكة ، فى توجيه ولائه السياسى نحوالقصر ، وقد ثبت أن ذلك كان مجرد وهم باهظ الثمن ، كما أظهرت التجربة التالية ؤ
ولم تكن هناك عناصر شللية كثيرة تسعى بطريق أو اخر الى توجيه واستخدام فاروق الذى تنقصه الخبرة ، وكانوا يشكلون خليطا من تأثيرات متنافسة غالبا ، تجذب الملك فى اتجاهات مختلفة ، وسأذكر هنا بعضا منهم لمجرد القاء الضوء على مدى استجابة فاروق الشخصية للبيئة المحيطة به ، فقد كان هناك كما ذكرت « حضرة ملكية » شكلت بصورة تقارب فى المظهر والده الملك فؤاد ، الذى كان الملك الشاب يميل الى التشبه به ، فقد كان فؤاد يبدو ويتصرف كملك ، وقد قدم فاروق صورة طبق الأصل الى حد معقول لفؤاد ، غير أنه كانت تكمن مشكلة هنا ، وهى أن عملية تبنى الوجه الملكى كانت تميل فعلا الى أن تتناثر على مواقفه الخاصة وتجعله يحول أوضاعه العامة الى علاقاته الشخصية غالبا ؤ
وكان فاروق يشعر انه مضطر دائما الى ان يبدو أنه يعرف اكثر مما يعرف من يتحدث معه ، وأنه افضل معرفة ، وافضل أطلاعا ، ولما كان ذلك فى الغالب

بعيدا عن الحقيقة ، فقد كان مثل هذا السلوك يتجه إلى خلق حواجز بينه وبين من هم أكثر إخلاصا بين حاشيته ، الذين لم يكونوا على استعداد للقيام بدور المتملق الذليل ، وكانت هذه العوامل تميل من ناحية أخرى إلى محاباة المتملقين ورجال البلاط ، وهو ما يجرنا للحديث هنا عن سمة أخرى للمسرح المصرى ، فقد كان المصريون طوال تاريخهم الحافل بفراعنة ذوى أطوار غريبة ، وأحيانا حكام أجانب ذوى نزعات دموية مزعجة ، قد انتهوا إلى أن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها مجتمعهم البقاء عن طريق الحيلة البسيطة برشوة حاكمهم ، مفترضين أن السلطة تفسد ، والسلطة المطلقة تؤدى لفساد مطلق !

ولم تكن هذه اللعبة جديدة على حاشية فاروق ، وسرعان ما أصبح واضحا أن بلاطه ذاته يقوم بغرس العادات التقليدية لسياسة الحكم فى نفسه ، وبدا عليه أنه يتذوق المكائد التى يهمسون بها فى أذنه ، مع حب للتملق السخيف الزائد الذى يقدم له ، وأخيرا استسلم لأخطر الانحرافات السياسية ، وهى الاعتماد على ذوى الحظوة عنده .. غير أن هذا كان أمرا متوقعا .. ففى بدء حكمه كان فاروق مازال طالبا متفتح الذهن قادرا على تقبل النصائح ، أمينا إلى حد يجعله يجرب الشك فى نفسه ، ولو أنه كان أقل انعزالا ، وترك لمواصلة دراساته فى وولوتيش ، وأن يعقد صداقات مع الذين لا تؤثر عليهم شخصيته الملكية ، وأن يتمتع ببعض العلاقات الانسانية بصورة معقولة خالية حقا من المصلحة ، لكان قد سلك طريقا مختلفا تماما .

كانت تلك هى مأساته حقا .. فقد كان فاروق وحيدا ، ليس له غير القليل من الأصدقاء ، ولا يعرف كيف يصنع الصداقات ، وكان ينبغى أن ينزل عن صهوة جواده المرتفع لكى يفعل ذلك ، كان يخاف كثيرا من قلة تجاربه ، وربما كان يخجل للغاية من بذل هذا الجهد .. ولقد ظل ملكا وحيدا حتى النهاية ، أما أولئك الذين كان يستطيع أن يجد بينهم أصدقاء له - مثلى - فقد كانوا فى ذلك الحين إما صغارا جدا ، وإما شديدى الخجل ، أو ليست لهم أية تجارب للقيام بالتحرك الضرورى لذلك .. كان أكثر المخلصين بيننا يشعرون بارتباك شديد يجعلهم يحسون بالهيبة والحرج ، وهكذا فاز من هم أقل تدقيقا بطبيعة الحال .. ولما كان هؤلاء بلا استثناء من الكبار البارعين فى خدع البلاط ، فإنه لم تكن لدينا أى فرصة ، وعندما حان وقتنا ، كان ذلك فى فترة تالية .

٧ - زواج ملكى

فى نوفمبر ١٩٣٦ أصبح معروفا أن فاروق يحب صافيناز « فافيت » ذو الفقار ، التى كنا قد التقينا بها من قبل خلال غارتنا على القصر لمقابلة الأميرات الصغيرات . وكانت الملكة نازلى أم الملك قد تأكدت من ذلك ، والملكة الأم كانت امرأة فى الأربعين من عمرها مازالت تحتفظ بمظهرها الجميل ، وقد تحررت مؤخرا بوفاة الملك فؤاد ، تتمتع بطاقة كبيرة ، وهى تستعد لبدء أول أدوارها السياسية ، وتوجيه ابنها خلال شلالات المسرح السياسى المصرى ومياهه الضحلة ، وقد فردت شراعها فى الساحة السياسية كفرقاطة ذات ٧٤ مدفعا وأعدت كل أنظمتها للانطلاق .

وكانت الخطوة الأولى ، هى أن تجعل فاروق الذى مازال فى طور المراهقة نقيا ، يستقر ويتزوج فى أمان من فتاة مطيعة مؤدبة .. فتاة من العامة كما كانت هى ذاتها ، فلن تكون هناك أية أميرة أوتوقراطية من الأسرة المالكة .. وكانت هناك كثيرات من الفتيات اللطيفات الممتلئات حيوية يتمنين الفوز بفاروق ، ولكن الأميرات على أية حال كن رغم حسن منظرهن ، أوتوقراطيات ذوات أطوار غريبة ، ولا يحتمل قبل كل شىء أن يقبلن الخضوع لسلطان الملكة نازلى .

وكان ثمة اعتبار آخر هو خلافة الملك ، وكلما أسرع الملك الشاب بإنجاب ابن كان ذلك أفضل ، فقد كان ذلك أمرا ضروريا لمواجهة التهديد الكامن المتمثل فى مطالبة الأمير محمد على توفيق ، ولى العهد الذى بلغ العقد السابع من عمره ،

الماكر الطموح بحقه فى وراثة العرش ، وقد زاد تودده المستمر نحو السفارة البريطانية نشاطا مما كان يبرر مخاوف أنصار حق فاروق الشرعى .

وكانت صافيناز ، التى تطلق عليها أسرتها اسم « فافيت » مناسبة إلى حد كاف ، فقد كانت جميلة مرحة ذات طموح ، وكانت الملكة نازلى ترقب بارتياح قدرتها على السيطرة على المغريات النسائية ، والمغازلات التى لابد منها لاصطياد الملك الشاب الساذج ، البسيط ، الذى أفلت لتوه من أيدى اللواء عزيز المصرى ، وجاويشية التدريب فى أكاديمية وولوتيش العسكرية ، وبقايا تأثير أنظمة المربية مسز نايلور فى جناح الأطفال .. كان فاروق نفسه هدفا سهلا ، ولم يكن هناك شك فى أن الحب العظيم فى حياته سيكون هو حبه الأول ، الذى سرعان ما جعل الملكة فريدة ملكة مصر ، وكان هناك تقليد يقضى بأن يكون للملك وزوجته اسمان لهما نفس الحروف الأولى ، وكان كل ما هو مطلوب هو أن تعطى الملكة نازلى الضوء الأخضر ، وقد تم ذلك عن طريق زينب هانم والدة « فافيت » التى كانت إحدى وصيفات الملكة نازلى ، وهى حفيدة سعيد باشا الذى كان أحد رؤساء وزارات مصر ، وينحدر من سلالة تركية ويونانية .

كانت « فافيت » تتمتع بكل ما يبشر بأنها ستكون زوجة ابن مثالية ، فقد كانت خجولة مفعمة بالأمل ، وكانت تصرفاتها حيال صاحبة الجلالة تتسم بالاحترام والتوقير فى تواضع ورشاقة ، وتردد أن الزوجين الشابين قد غرقا فى الحب ، وإن كانت فافيت نفسها لم تكن تهتم بهذه الصورة من القصة خلال السنوات التالية ، إذ كانت تفضل أن يعتقد الناس أنها لم تقبل الزواج من الملك إلا بعد تردد كبير ، وإنها تعرضت لهجوم مستمر من الشاب قبل أن توافق فى النهاية ، وقد يكون ذلك صحيحا ، وإن كانت الأحداث التالية توحى بأنه أمر غير محتمل .

وقد جاء إعلان الخطوبة بعد حفل التنصيب .. وأثار الملكُ الشاب ذو الطلعة البهية ، والملكة الشابة الحسناء ، والصورة الجميلة الوقورة للملكة الأم خيال الشعب وحماسته ، وراح المصريون يهتفون للملك والملكتين بشدة ومن أعماق القلب ، وكانوا يظهرون حبهم فى المناسبات العامة ، وقد بلغ من ضخامة الشعبية التى حققها فاروق ، أن كلا من حزب الوفد ذى الأغلبية ، والسفارة البريطانية بدأ يساورهما القلق .. وكان حفل تنصيب الملك على العرش الذى أقيم فى القاهرة مشهدا لا مثيل له من العواطف الشعبية الملتهبة ، حيث اصطفت الجموع الشعبية الهائلة فى الشوارع التى تغمرها الأنوار ، وعلقت صور فاروق فى كل مكان .. كانت الحماسة الوطنية التى انبثقت بصورة تلقائية فياضة متدفقة فى تلك الأيام ، وكأن تلك الليلة قد جمعت بين ليلة نافكنج ويوبيل الملكة فيكتوريا ، ويوم الباستيل فى ليلة واحدة .

أخيرا أصبح لمصر ملك مصرى وطنى ، يتكلم العربية ، ويتزوج مصرية من

العامة .. إن فصلا جديدا فى تاريخ البلاد يوشك أن يبدأ ، فضلا عن أن معاهدة للاستقلال توشك أن توقع فى لندن .. وبينما كانت الألعاب النارية تنهال كالمطر متعددة الألوان فوق أشجار النخيل بالجزيرة ، كان المصريون يرون أن هذه هى بداية تحقق آمالهم فى مستقبل مشرق كريم .. وعهد جديد فى تاريخ أرضهم العريقة .

وكان الزواج نفسه مناسبة رائعة ، فقد تجمع مئات من الضيوف فى حدائق قصر القبة الحافلة بالأشجار والنباتات الخضراء لحضور مأدبة المساء ، واختلط الوزراء والسفراء وكبار المسئولين بالأمراء والنبلاء من أسرة محمد على .. إن القاهرة لم تشهد منذ افتتاح قناة السويس مثل هذه المناسبة البالغة الروعة ، بينما كان الحرس الملكى الخاص بزيه المتألق ذى الألوان الزرقاء والحمراء والذهبية أعضاء فرقة الموسيقى العسكرية يعزفون كل ما لديهم من مقطوعات ، بينما راحت أزرار طرابيشهم تتمايل مع نغمات الموسيقى ، وأخذت عطور زهرة الفرانجيبانى التى يضعها الدبلوماسيون تتنافس ببسالة مع أحدث عطور باريس الغالية ، وقدم نجوم المسرح والسينما مقطوعات وسط الصمت الملائم لها ، وأنشدت أم كلثوم العظيمة أغنيات لهذه المناسبة ، كما ظهرت نجمة أخرى للاستعراض لأول مرة ، هى تحية كاريوكا الراقصة ، التى كانت مزيجا من هيدى لامار واليزابيث تايلور ببشرتها البيضاء التى تشبه القشدة ، مع كتلة بديعة من الشعر الحريرى الأسود .. كانت صورة تنتمى إلى عالم الأحلام ، سيطرت على قلوب مشاهديها ، ولا تزال حتى اليوم إحدى شخصيات المسرح المصرى المحترمة ..

وحتى يشعر المرء بنكهة هذه المناسبة تماما ، لابد أن يكون قادرا على تخيل الجو الذى كان يسود أمسيات صيف القاهرة المليئة بالنجوم وضوء القمر .. كان الليل ناعما كالمخمل ، حافلا بأصوات بأغنيات الطبيعة والطيور فى أوكارها .. كانت ليلة تسودها النشوة .. مزيج متعدد الأبعاد من موسيقى قادمة من بعيد ، وأصوات من خارج المسرح .. أصوات بشر وحيوانات ، آلاف الكائنات الحية ، من طيور الزيز إلى الضفادع التى يسمع نقيقها فى قنواتها البعيدة ، إلى حفلات زفاف فى القرى النائية ، وخوار الماشية ، ونهيق الحمير .. كل هذا وأكثر منه كان يملأ الجو الذى يفوح منه أريج العطور !

وجاء بعد ذلك صوت أم كلثوم بأغنياتها العاطفية الجياشة ..

لقد رأيت بعض كبار الحاضرين يتمايل نشوة مع هذا الصوت .. والواقع أن الاستماع إلى أم كلثوم ثلاث أو أربع ساعات كاملة يعد من أعظم تجارب الحياة روعة .. وقد راح الحاضرون يهتزون طربا طوال غنائها ، وهو نفس ما حدث مع تحية كاريوكا ، إذ أن شكلها وجسمها الجميل ، والجاذبية الجنسية التى تنضج بعد ثلاث أو أربع ساعات من مشاهدتها وهى ترقص ، كان أمرا يجرف

المشاهدين بعيدا ، إذ أن هذا الرقص العاطفى المثير للشهوة ينشىء علاقة خاصة بين الراقصة والموسيقى والمشاهد الذى يهتز جسمه وكأنه يرقص معها .

٨ ـ المتاعب الأولى

كان عام ١٩٣٧ يعد نهاية المراهقة لفاروق والبداية الرسمية لحكمه .. ان التلميذ المفعم بالأمل الذى انطلق للالتحاق بمدرسة عسكرية فى انجلترا قبل أقل من عامين ، هو الآن ملك لدولة تفور بالاضطراب كما انه سرعان ما سيصبح رجلا متزوجا ، مستقرا فى حياة عائلية بهيجة مليئة بالأمل وسرعان أيضا ما سيصبح أبا ، كان مظهره الحسن ، وبراءته ، وعدم التزامه بهذا الحزب السياسى أو ذاك ، قد أكسبه تأييدا وطنيا ، كان يبدو لأغلب المراقبين يتفوق على شعبية زعماء حزب الوفد المخضرمين ..

كان هذا هو الوقت لبعض الدبلوماسية البارعة الواضحة الرؤية من جانب بريطانيا إذ أن تغييرا فى النهج سيكون النتيجة المنطقية ، للعبة القديمة « فرق تسد » التى الى جانب مزاياها أصيبت بنكسة كبرى ، إذ انك بإحداث انقسام بين الزمر السياسية ، واستخدام احداها ضد الأخرى سوف تخسر صداقة وثقة الجميع ، فلا أحد يحب مكيافيللى آخر لأن وجهات نظره كلها قائمة بحكم الظروف على الدسائس والخيانة ، وكان فاروق فى تلك المرحلة مثاليا يسهل التأثير عليه حسن النوايا ، وكانت التأثيرات التى كونته كما رأينا ، هى من عصر بادن باول الى حد كبير . ولو كانت بريطانيا قد قبلت الحاجة الى التغيير وعينت سفيرا شابا حصيفا ، لما أصبحت هناك حاجة الى توازن القوى ، إذ أن فاروق كان يتحدث عشية حكمه لغة مماثلة للغة انجلترا الحديثة ، وفضلا عن ذلك ، فان جانبا هاما من شخصية الملك الشاب كانت قدرة لاشك فيها على أن يفرز

« حضورا » ملكيا ، وكانت هبة سجلها وراقبها الكثيرون ، وبقيت معه حتى النهاية ..

كانت تلك هى الأساليب والاجراءات التى تتبعها المجتمعات الحديثة الجيدة التنظيم ، وهى تقضى بأن يحنى أعضاء مجلس الوزراء والسفراء ، وكبار رجال الدين رؤوسهم حتى أمام أصغر الملوك سنا بتوقير واحترام نشأ بمرور مئات السنين من تاريخ الحضارة ، إذ أن أدب الدبلوماسية ينظر الى ما وراء المراهقة الغريرة والبريئة ، الى منصب الملك الذى يمثله هذا الأخير ، وما وراء منصب الملك ، الى الشعب والدولة التى يجسد الحاكم الشاب سيادتها . ومن ثم فانه كان من المستغرب أن وزارة الخارجية فى لندن يبدو أنها لم تقدر ذلك . ان فاروق بعد تنصيبه على العرش أصبح حاكما لمصر ، جديرا بالاحترام لأن دوره منحه اياه الجميع عدا السفير البريطانى ، المندوب السامى سابقا ، السير مايلز لامبسون ، وكانت الطريقة التى اضطلع لامبسون بدور ووظيفة السفير قد حولت وضعه الى صورة تثير السخرية ، وإن المرء ليشك فى أن مصر كانت لاتزال فى عينى أنطونى ايدن وزير الخارجية فى ذلك الحين « محمية مستترة » تحتاج الى « مندوب سام مستتر » !

ان كون لامبسون سفيرا ، كان فى الواقع عملا أساء المبعوث البريطانى فى القيام به ، حيث كانت غطرسته وتكبره وتبجحه ، من النوع الذى يمكن توقعه من مبعوث غير عادى لمثل عيدى أمين ، أما بالنسبة لفاروق فقد كان التضمين واضحا ، إذ كان يعامل وكأنه مجرد ملك أفريقى آخر من أكلة لحوم البشر ، ولم يكن البريطانيون متهمين بالمشاركة أو فى التعاون حقا . ولم يصدقوا أن المصريين متساوون معهم عنصريا ، بل يعتبرونهم شعبا خاضعا . ومن سوء الحظ ، فان عددا كبيرا جدا من وزراء جلالته والسياسيين تمشوا مع هذا الموقف وانغمسوا فى حج ذليل الى دار المندوب السامى بقصر الدوباره ، سعيا وراء منصب أو خدمات سفيره ..

لقد تعرض فاروق منذ بداية حكمه لهذه الصورة من الاذلال المتواصل . ولاريب أن سفير بريطانيا المتغطرس ، غرس فى قلب الملك الشاب انفصالا يتسم ببعض القنوط والسخرية الى حد ما تجاه مجموعة الشخصيات السياسية الذين كانوا يتكدسون فى غرف الانتظار بقصر عابدين . وفى حين أن والده ، الذى كان رجلا ماكرا ، وسياسيا واسع الاطلاع والثقافة يسعى لكسب الولاء بالرشوة أو الخداع ، فإن فاروق الذى كان يفتقر الى هذه الأرصدة النافعة وان كانت مريبة ، انسحب الى الأمان فى القصر ، وصحبته العصبة الصغيرة التى لا تمثل أحدا من باشوات القصر والوزراء ..

كانت صراعات فاروق قد بدأت الآن بهمة ، إذ انه بالاضافة الى المسرح السياسى المعقد والمضطرب باستمرار ، كانت هناك معركة كبرى يجرى اعدادها

أكثر قربا من بيته . وكان ذلك نزاعا من نوع معروف جيدا فى العالم ، النزاع المنبثق من مشاعر الحماة تجاه زوجة ابنها ، ومشاعر الزوجة تجاه حماتها . وعلى أى حال فقد كانت الملكة نازلى امرأة شابة ، وقد عاشت حياة مليئة بالاحباط ، حيث كانت حبيسة نوعا ما خلال فترة حكم الملك فؤاد ، ثم برزت الآن فجأة الى نوع مختلف من الوجود أصبح لها فيه حرية كلية .. وفى استطاعتها الآن أن تفعل ما تشاء ..

كانت أم الملك ، امرأة طموحة قوية الارادة ، وقد اختارت الزوجة لابنها ، وأشرفت على الزواج ، وفى الواقع أدارت المسألة برمتها ، حيث كانت مديرة المسرح وراء الكواليس ، وليس هناك أحد بلغ هذا النوع من المراكز ، يحتمل أن يكون مستعدا للتخلى عنه لصالح شخص كانوا يعتبرونه دائما شخصية أدنى ، أو شيئا يشبه الدمية التى يمكن تحريكها . ولكن الملكة نازلى سرعان ما أدركت بعد زواج ابنها ان فريدة الشابة ليست تلك البنت الصغيرة التابعة ، والتى هى على استعداد لأن تتبع طريق حماتها ، وتظهر إعجابا كاملا باتجاهها ، وتقبل أن تحجب شخصيتها .. على العكس ، فإن فريدة اتجهت الى أن تقوم بدور الملكة ، وهنا كانت تكمن بذور النزاع ..

لم تكن الملكة نازلى بطبيعة الحال مستعدة للسكوت على ذلك ولما كانت لديها كل أنواع الحيل تحت تصرفها ، فقد استطاعت ان تحدث موقفا غريبا للغاية فى مصر ، ان الدستور المصرى لايتضمن أى نص يتعلق بالملكة الأم ، وكانت الملكة الأم ينظر اليها باعتبارها ملكة سابقة ، والملكات اللواتى حكمن فى ظل ملوك أقوياء انتهى حكمهن ، كن يشعرن عادة بالسعادة باتخاذ مقعد خلفى ، والعيش فى قصر مريح بقية حياتهن ، ولكن ذلك لن يكون أسلوب الملكة نازلى ، وهكذا فانها بجذب الخيوط المناسبة ، استطاعت أن تعدل الدستور المصرى بحيث سجلت فيه وجود ملكة ثانية ، الملكة الأم ، التى احتفظت بكل الامتيازات الملكية ، وبدا أنها احتلت مركزا مسيطرا داخل الأسرة المالكة ، (دون أن يحدد ذلك بالضبط) ..

وقد يكون من الطريف هنا أن ننعم النظر فى هذه المسألة عن كثب ، فالأم فى المجتمع الاسلامى تقوم ـ كما رأينا ـ بدور خاص للغاية . والمثل الأوربى الذى يقول « إن اليد التى تهز المهد تحكم العالم » له معادل اسلامى فقد ورد فى الحديث الشريف ما معناه « ان الجنة تحت أقدام الامهات » وكان مفهوم الملكة نازلى عن الحماة هو كما يلى بالضبط : انها كأم للملك والتى خططت ونفذت زواجه لها حق الأسبقية على الفتاة الشابة التى هى زوجة ابنها ، ووفقا للعرف الاسلامى ، كان هذا موقفا يمكن فهمه تماما وقبوله ، ولكن الدستور المصرى يومئذ كان مأخوذا عن الدستور البلجيكى الذى يجعل وضع الملكة الأم ثانويا بالتأكيد بالنسبة لوضع زوجة الملك الحاكم ، وهكذا فإن زوجة فاروق كان يجب

بشكل طبيعى أن تأتى قبل أمه .. غير ان قوة الملكة نازلى وشخصيتها جعلت فى الواقع من المستحيل على الملكة فريدة أن تسيطر على أى مجتمع أو جماعة تكون حماتها موجودة فيها أيضا . وكانت حماة فريدة بالتأكيد هى أجمل الاثنتين . وكانت ترتدى عادة ثيابا أحسن ، كما أنها أطول قامة وأكثر رشاقة ، ومن ثم فانها كانت قادرة بمجرد وجودها على أن تظهر سيطرة كانت تثير استياء المرأة الأصغر سنا ..

وكان على فاروق أن يتحمل ثقل وطأة تلك المشكلات . وكانت المواجهة بين الملكتين تحمل تضمينات سياسية ، فقد كانت الملكة نازلى باعتبارها الأكثر علما واطلاعا وحكمة بين الاثنتين ، تؤيد سياسة تقارب بين زعامة الوفديين الوطنيين والملك . إذ كانت تعتقد ان ابنها يستطيع أن يجد صديقا ومؤيدا مخلصا فى زعيم الوفد النحاس باشا ، الذى كانت زوجته زينب الوكيل صديقة شخصية لها .. وكات نازلى تعرف تماما عدم خبرة فاروق ، وحساسة للغاية لمكائد دار المندوب السامى التى تهدف الى الابقاء على التباعد بين الملك وزعامة حزب الوفد . وكان فاروق أصغر من أن يمارس نوع اللعبة التى كان والده بارعا فيها ، وعقد الهدنة مع الحزب لن يكون له ، فقد كان النحاس باشا نفسه مستعدا لعقد صداقة مع الملك الشاب ، ويمكن الاعتماد عليه لايجاد ولاء معين للقضية الملكية . وبطبيعة الحال ، فإن توازن القوى الذى يسعى البريطانيون للابقاء عليه كان يتقلص بصورة خطيرة ، وقد أظهرت الملكة نازلى هنا فطنة سياسية غير عادية ممزوجة بمستوى معين من الشجاعة ، إذ أن معارضة دار المندوب السامى البريطانى كان عملا محفوفا بالخطر دون شك ..

أما الملكة فريدة ، فعلى العكس ، كانت ابنة شقيقة رئيس الوزراء القدير للغاية صاحب الدولة المهندس حسين سرى باشا ، عندما كانت سياساته تنسجم بشكل ملحوظ مع سياسات البريطانيين ، والذى كان ولاؤه يتقلب بين الاخلاص للملك ، والولاء للسير مايلز لامبسون . وأى تقارب بين النحاس وفاروق - لو حدث - لن يكون أقل جاذبيته بالنسبة لزمرة فريدة منه بالنسبة للبريطانيين . ولكن كما تبين لسوء الحظ ، فإن الذراع الطويلة للمقر البريطانى فى قصر الدوبارة كان هى الفائزة فى النهاية ..

وبلغت محاولات الملكة نازلى للعب بالسياسة نهايتها عندما أحبت حسنين باشا ، صديق البريطانيين ، وانطلقت فى علاقة غرامية مع أكثر الوزراء موالاة للبريطانيين ..

وكانت هناك أيضا قوى أخرى ربما تكون أكثر قوة تعارضها بنشاط ، تشمل مجموعة على ماهر من الباشوات الموالين للقصر ، الذين رغم أنهم يشاطرون جلالتها معارضتها للبريطانيين ، إلا أنه لم يكن محتملا أن يؤيدوا تخفيضا لوضعهم الذى يعتمد بقوة على الرعاية المستمرة للقصر ، لقد كانوا على أية حال

أجزاء من آلة القصر السياسية التى قام بتجميعها والد الملك فاروق ، الملك فؤاد الذى كان ابنه يوقر ذكراه ..

ولم يفعل الوفديون من جانبهم كثيرا للموافقة على حيل الملكة نازلى ، إذ أنهم باعتبارهم واقعيين ، كانوا يفهمون جيدا المصلحة المخولة للبريطانيين فى ابعادهم عن القصر . كما أن عناصر من أنصار الجمهورية كانوا قد تغلغلوا الى عقول الوزراء الوفديين ، غير أنها كانت نزعة جمهورية مختلفة ، والاختلاف يكمن فى نزعة المساواة الدائمة فى السياسة الاسلامية ، إذ أن فقهاء الاسلام بعد أن تجنبوا قداسة حقوق الاسر المالكة ، أظهروا عبر العصور تسامحا مذهلا حيال الغاصبين ، والثوريين ، والأشخاص الطامحين فى الملك . وكان النجاح فى الاطاحة بهذا الملك أو ذاك يعقبه على الفور تقريبا اقرار شرعية الاستيلاء وفقا لأحكام الشريعة ، وفى تلك الظروف لم يكن فى استطاعة أصحاب التيجان أن يشعروا بالأمان الكلى ، وبسبب نفس الافتقار الى وجود مؤسسة ملكية واردة فى القانون ، فإن أنصار الجمهورية كان فى امكانهم التمثيل ان يزعموا انه ليس هناك أى نظام دينى خاص كمؤسسة قانونية تعترف بها الشرعية ، ومن ثم أتاحت ظهور ظاهرة زعماء جمهوريين ناجحين يتصرفون بطريقة لا تقل اوتوقراطية ، أو حماية للذات عن سابقيهم من السلاطين والملوك . وقد تأكدت هذه الظاهرة بقوة فى السنوات الأخيرة فى أجزاء كثيرة من العالم الاسلامى ، حيث يبدو أن الرؤساء الذين خلفوا الملوك ، والنواب ، والخلفاء ، والسلاطين يعرفون امتيازات الحكم المطلق بصورة أكثر اطلاقا مما كانت تتمتع به الأنظمة القديمة ..

وفى هذه الظروف ، كان أى تجمع من صفوف الوفديين حول فاروق أمرا بعيد الاحتمال . وفى نفس الوقت كانت فريدة تثبت أنها زوجة صعبة . لقد كانت الملكة الشابة ، وهى فتاة ذكية قوية الارادة تدرك تماما المحيط الذى تعيش فيه ، ولم يكن صدامها مع الملكة نازلى هو مثار قلقها الوحيد على الاطلاق ..

فقد كان عليها أيضا أن تواجه العداء المستتر لمجموعة اسرة زوجها الكبيرة ، سلالة محمد على الذين يشكلون مجموعة لاحصر لها من الأميرات الشابات الجميلات الصالحات للزواج ، ويشعرن بطبيعة الحال بأن فريدة دخيلة عليهم وان الملك قد يجد زوجة له بين السيدات المناسبات من أقاربه ..

وكانت الملكة نازلى التى تنحدر هى نفسها من أسرة عادية عند زواجها ، قد تعمدت دفع فريدة للأمام لكى تحبط وتبعد أية مرشحة أخرى . أما الآن ، فإن فاروق قد يميل الى أن يترك نظراته تتجول فى اتجاه الفتيات الجميلات الكثيرات اللواتى يتحركن على مقربة منه . ولم يكن ذلك مناخا يشجع احساس فريدة بالأمان ، ومثل نساء كثيرات فى مأزق مماثل .. فإنها سمحت لنفسها بأن تصبح شديدة القلق ، نزاعة للتملك بشدة وقد أبعدت الفتيات الجذابات اللواتى يمكن

أن يجتذبن عينى الملك بعيدا عن عينيه . ووضعت كثيرات ممن يفخرن بجمالهن فى أماكن بعيدة فى المناسبات الملكية حتى لا يجتذبن اهتمام الملك . وكانت الحيلة واضحة بصفة خاصة فى الحفلات الخيرية الكبرى التى كانت تنظمها مبرة محمد على ، وهى منظمة مخصصة للأعمال الخيرية وتتولى الأميرات ادارتها ..
وكان من الشخصيات الرئيسية فى هذه المناسبات ، والتى قامت بدور هام فى خلفية العلاقات الغرامية الملكية ، الأميرة شويكار ، التى كانت تقيم كل عام حفلا راقصا ضخما للأعمال الخيرية لمساعدة المحتاجين وجمعيات الخير المختلفة التى تحددها مبرة محمد على . وكان من النمر الرئيسية فى تلك الحفلات « اللوحات الحية » وهى مناظر فاخرة تصور مشاهد من الحريم أو حفلات الاستقبال فى القصور القديمة وكانت الزخارف رائعة وفى الغالب حقيقية ..

وقد عرضت إحدى « اللوحات الحية » التى لا تنسى فى حورية شبرا ، وهو الاسم المستفز والوصفى الذى أطلق على أحد قصور المتعة لمحمد على ، ويتكون من حديقة مائية من الطراز الباروكى ، تحيط بها مقاصير وزينت بجزر صناعية ، وبعبارة أخرى كانت المكان المثالى للعرض ، وفى أيام محمد على كانت الحوريات يرقصن ويغنين فوق الجزر الصناعية فى البحيرة ، أو يجدفن فى قوارب مزينة فى أنحائها والمفترض أنهن كن يرتدين ثيابا قليلة ، بينما يرتشف ضيوف نائب الملك المحظوظون مشروبات مبهجة ، وهم يجلسون على وسائد مزينة ، وفى امكانهم أن يمتعوا عيونهم بمشاهدة واحدة من أغنى مجموعات العالم من الجمال الأنثوى : أسيرات يونانيات من حروب أرخبيل اليونان ، وفتيات سوريات من الجبال فيما وراء لبنان ، وحوريات قوقازيات نحيلات من القوقاز ، وفتيات مصر ذوات العيون الحور .

وكانت جلالة الملكة فريدة تصر عندئذ على أن تكون موجودة خلال البروفات النهائية للوحات الأميرة شويكار الحية ، حتى تستطيع أن تفحص الفتيات بعناية ، وتأمر باستبعاد أولئك اللواتى تعتقد أنهن قد يثرن خيال الملك ، وهكذا كان يتم إبعاد كثيرات من ذوات الجمال ، وكان ذلك يثير غضب الأميرة شويكار وانتقادها للتدخل فى ترتيباتها .

وباعتبارها عضوا من الأسرة المالكة ، كانت تستهجن عمل الملكة ، وقد جعلتها تدخلات الملكة التعسفية أكثر خصوم فريدة رهبة ، وفى النهاية الهة الانتقام بالنسبة لها .

كانت شويكار شخصية طريفة ، فقد كانت ضامرة الجسد بارزة العظام ، صغيرة الجسم ذات أنف بارز دون أية ذرة من الجمال ، ومع ذلك فقد كان لها تأثير مروع على الرجال ، وكان زوجها الأول هو الملك فؤاد ، والد فاروق ، الذى طلقها ، وتعرض بعد فترة قصيرة لاعتداء من شقيقها الأمير سيف الدين ، الذى كان ذا أطوار غريبة ، حيث أطلق مسدسه على فؤاد فى شرفة نادى محمد

على ، مما سبب له « بحة » دائمة فى صوته ظلت حتى نهاية حياته ، وكان زوجها الثانى هو عمى رؤوف ثابت ، والثالث لاعب البولو سيف الله يسرى باشا ، ثم تزوجت الرابع وكان تركيا غير معروف ، وزوجها الخامس الهامى باشا حسين ، وهو رجل ذواقة كان بارعا فى إقامة المآدب .

٩ ـ القصر ، الأحزاب ، والقمصان الزرقاء

تلقت المواجهة بين القصر والأحزاب الوطنية ، وخاصة الوفد ـ والتى كانت لعبة توازن القوى تعتمد عليها ـ هزة خطيرة بوفاة الملك فؤاد ومقدم الملك فاروق ، وأصبح الجميع يخمنون عمن يكون الأكثر شعبية لدى الوطنيين المصريين : الحزب أو الملك وعقب توقيع المعاهدة الأنجلو ـ مصرية فى ١٩٣٦ ، وهى زواج مصلحة قصير العمر ، برزت فعلا بين الملك الشاب ، والزعيم الوطنى الخير مصطفى النحاس ، الذى خلف سعد زغلول العظيم كزعيم للوفد ، غير أنها لم تدم غير ستة شهور ، كانت هناك قوى قوية تعمل ضد هذا الترتيب ، وبرزت منافسة لا يمكن تجنبها بين شخص الملك فاروق ذى الشعبية المرتفعة والوفديين ، التى وجدت مزاعمها عن الشعبية نفسها تواجه تحديا جديا بل وخطيرا ، وكان الخصوم الآخرون لأى تقارب بين الملك والوفد يوجدون بين الحلفاء السياسيين للملك فؤاد ، وبينهم إسماعيل صدقى باشا ، ومحمد محمود باشا ، وعلى ماهر باشا الحاد الذكاء ، وكان كل هؤلاء الوفديين السابقين قد تركوا الآن الحزب الرئيسى ليشكلوا أحزابا صغيرة كانت قوتها السياسية تعتمد إلى حد كبير على مساندة القصر ، وكانت هناك دائما السفارة البريطانية فى قصر الدوبارة ، التى كانت ترى أن تحالف فاروق مع النحاس قد يؤدى إلى عواقب سياسية غير مرغوب فيها من وجهة نظرهم ، ولم يكد فاروق يجلس على العرش ، حتى كانت الوسائل لفصل العرش عن حزب الوفد قد بدأت تعمل .

وكان اسم الوفد قد أطلق أصلا على مجموعة السياسيين الوطنيين الذين حضروا محادثات لندن فى ١٩١٨ و ١٩١٩ ، التى أدت فى النهاية إلى تأسيس أسرة فؤاد الملكية فى ١٩٢٣. وما إن انتهت الوظيفة الأصلية لها ، حتى تبلورت المجموعة فى حزب احتفظ باسم « الوفد » ولكنه مع مرور الوقت انقسم إلى سلسلة من المجموعات الفرعية يتزعمها كبار شخصيات الوفد الأصلى ، وكانت هذه تشمل حزب الاتحاد ، وحزب الشعب وما إلى ذلك ، واحتفظت المجموعة الأساسية بالاسم ، وورثت التأييد الوطنى الكبير الذى أثارته فى عقول الرأى العام المصرى ، الذى كان يربط بينهاوبين الوفد الأصلى وأهدافه التى لقيت تأييدا شاملا ، باعتبار أعضائه زعماء فى ثورة ١٩١٩ ضد البريطانيين ونفى زغلول باشا وعودته المظفرة . أما حق بقيةالأحزاب الأخرى الشرعى فى نصيب شرعى من اسم الوفد باعتبارهم أصحابه الرسميين ، فقد صرف النظر عنه . وفى المناسبتين اللتين شهدت مصر فيهما انتخابات حرة فى هذاالقرن ، أى فى ١٩٣٠ و ١٩٥٠ عاد الوفديون بأغلبيات ساحقة . وصحيح أنه كان هناك كثيرون من مصر ، من بينهم الرئيس الراحل أنور السادات ممن كانوا يعتقدون أنه لو أنهم منحوا فرصة مماثلة ، فإن الوفديين كانوا سيعودون مرة أخرى إلى السلطة بعد خمسين عاما من ظهورهم . والشىء المؤكد هو أن أية نجاحات وفدية فى الانتخابات لم تكن تعزى إلى أية سياسة خاصة يمكن أن يعرفوا بها أو أى برنامج حزبى محدد أو مذهب اجتماعى . فقد كان رصيدهم الوحيد الأكبر فى عقول وقلوب المصريين لا يزال هو اسم « الوفد » .

وكانت معارضة القصر للوفديين يقودها فى الجزء الأول من حكم فاروق على ماهر باشا ، فقد كانت فى حاجة لوجود مقابل لدعوة الوفد للديموقراطية وحكومة حزبية ديموقراطية للمضى فى تنفيذ سياسات زغلول باشا ، وكان هذا موجودا فى قطاع آخر أكثر تقليدية هوالاسلام ، إذ أن شبح إحياء المجموعة الاسلامية فى أوائل القرن التاسع عشر لم يختف قط ، وفكرة نقل مركز الثقل الاسلامى من استانبول إلى القاهرة كانت جذابة لدى المؤسسة المعادية للوفد بزعامة على ماهر باشا ، والشيخ مصطفى المراغى الرجل القادر المبجل . وكأن الأمر يتطلب قليلا من الخيال لتبرير العمل لاحياء النشاط الاسلامى الفعال من استانبول فى مطلع القرن . وكان فى استطاعة مصر فاروق أن تلتقط الخيوط جيدا من حيث تركها أنور باشا ومساعدوه منذ ١٩١٢ ، وكان فاروق يبدو لهؤلاء المصلحين الاسلاميين الامام المثالى ليكون دمية بين أيديهم ، فقد كان شابا من السهل إقناعه ، كما كان يتمتع بالشخصية الساحرة على رأس مؤهلاته الهامة الأخرى ، وكان أولا من السلالة والوريث المعترف به لواحد من أكثر المصلحين الاسلاميين الحديثين كفاءة ، وهو محمد على باشا مؤسس الأسرة التى قلد العثمانيون محاولتها تحديث مصر ، والتى أثر المثال الذى ضربته تأثيرا عميقا

على الفكر فى أنحاء العالم الاسلامى ، وثانيا كان من ناحية أمه حفيدا لمحمد شريف باشا الذى كان فى امكانه إثبات أنه ينحدر عن طريق أبيه شيخ إسلام استانبول ، إلى النبى محمد نفسه عليه الصلاة والسلام من ناحية سيدنا الحسين حفيد النبى .

كانت مقترحات من هذا النوع جذابة وملهمة إلى حد كبير بالنسبة لفاروق الشاب نفسه ، وهو مازال مثاليا نضرا ، ووطنيا متحمسا .. ألم يكن يتوق إلى أن يصبح الموحد العظيم للعالم الاسلامى ، المحقق لطموحات جده الأكبر محمد على ؟ ألم تكن هنا مهمة نبيلة وتاريخية يبدو أن الله قد اصطفاه للوفاء بها ؟ إن الشيخ محمد مصطفى المراغى الامام الأكبر شيخ الأزهر الذى يتمتع بمنزلة رفيعة المستوى ، ألقى فى مناسبة تنصيب الملك يوم ٣١ يوليو ١٩٣٧ بيانا بالغ الأهمية والمغزى قال فيه : « إن الدستور الوحيد الحقيقى هو القرآن ، والملك الدستورى الحقيقى الوحيد هو الملك الصالح » . والتقطت الصحف مقالة الشيخ ، مرحبة بفاروق فى تملق غير عادى ، وركزت بصفة خاصة على ما جاء فى حديث شريف لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، بما معناه « سوف يرسل الله إلى المسلمين فى بداية كل عصر مجددا يحيى الدين ، ويؤكد مرة أخرى السنن المقدسة » وقال الشيخ المراغى « إن اسم فاروق نفسه دليل على ذلك « إنه فاروق ، الفارق بين الخير والشر » .

إن لدينا هنا وصفة كاملة لملك منقذ أرسله الله لقيادة شعبه إلى الطريق المستقيم .. إنه هو الذى سيواجه تلك القوى للغدر الانجليزى الاستعمارى ، الذى يكمن وراء الأحزاب التى تميل إلى بريطانيا ، أولئك الوزراء الجبناء الذين يتاجرون بالنفوذ ، الذين يستخدمون المصطلحات الأجنبية عن الديموقراطية الدستورية الغربية لتبرير أطماعهم ، وجعل الشعب يضل الطريق ، وقد يلتمس العذر لفاروق الشاب وهم يقدمونه إلى تلك الحلبة السياسية الكثيرة الأركان ، إذ أحسن بأنه مثل أمير فى قصة خيالية يطلب منه أن يدخل فى معركة مع قوى الظلام . وفى أول خطاب عرش ألقاه فى مناسبة افتتاح البرلمان فى ١٩٣٧ واصل فاروق المسيرة ، قال : « إننى أدعو مجلس وزارتى للعمل من أجل تحقيق الآمال التى أرجوها لشعبى ، الذى أتعهد هنا بتكريس حياتى من أجل تقدمه وخيره » .

ولقد أسر لى فاروق بعد ذلك ببضعة أعوام قائلا : « فى ذلك الحين ، هذه الظروف أثارت فى نفسى إحساسا برسالة ما وشعورا بأنه القدر » . وكان فى استطاعتى أن أقدر ذلك ، وأعتقد أن هذه الخلفية هامة لتفهمه بصورة أكمل . كان فاروق يصف فى الواقع نوعا من الابتهاج الذى ساد خلال عهد الملك آرثر ، داخل محيط إسلامى ، ولقد لعبت خلفية قراءاته الانجليزية ، بطريقة غريبة ، دورها فى تنشيط إحساسه بتكريس نفسه . إننا فى عوالم تنيسون « الأناشيد

الرعوية للملك ، و ت. هـ . وايت . « ملك لمرة واحدة وللمستقبل » وجون بوكان « الصابرة الخضراء » ، والمناخ الصوفى للعصر الفيكتورى برمته ، إن لورنس بلاد العرب استجاب فى جيل سابق لالحاح أسطورى مماثل ، وعلى أية حال فإنه لم يكن هناك الكثير للاختيار بين الفارس المسيحى فى صلواته المخلصة ، والمحارب الاسلامى فى صلواته ، إن كليهما أطاع أخلاقيات متماثلة ، كلاهما مارس أشكال تقشف مماثلة من الصوفية ، وكلاهما استجاب للنداء المقدس بروح من الولاء الخالى من الأنانية .

ومن زاوية السياسات المصرية البحتة ، فإن الطريق الاسلامى ، كان يحتمل أن يؤدى إلى بعض التيارات المتعارضة الخطيرة ، غير أنه فى جوهره هو الحق بل المنطقى للنزعة الوطنية للنحاس للتلويح بالديموقراطية ، والأغلبية الوفدية وحلفائها البريطانيين فى قصر الدوبارة ، لقد كان الوفديون أكثر اتجاها لمصر منهم للاسلام ، ومواقفهم وميولهم نحو النظام الجمهورى ، أو على الأقل نحو دستور على النمط البريطانى حيث يملك الملك ولا يحكم ، وهو مفهوم أبعد كثيرا من مفهوم « الملك الصالح » .

وبتشجيع فاروق على أن يعتبر نفسه مجددا إسلاميا ، فإن الشيخ المراغى ، وعلى ماهر باشا ، وفى الخلفية عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية مستقبلا ، وعزيز المصرى صنعوا من فاروق شخصية سياسية مروعة فى النهاية ، سيطرت على تأييد جوهرى وحاسم بين العناصر السياسية المحافظة من الناخبين المسلمين بصورة سائدة .

والأكثر أهمية أن هذه التطورات استخدمت أيضا لدعم مركز على ماهر باشا باعتباره الشخصية الرئيسية فى السياسة المصرية . كان على ماهر ، على عكس زملائه الوزراء الذين كان يشترك معهم فى خلفية أكاديمية متميزة ، يمتلك بريقا ممتازا للعلاقات العامة والدعاية ، كان يدرك تماما أهمية الصحافة ، وكان يبذل جهدا لكى يخلق لنفسه سمعة تشجيع إصلاحات خيالية ، وكان فى عام ١٩٣٦ قد بدأ تنظيم مسابقة أدبية على نطاق واسع ، وتعكس الموضوعات المقترحة أعمق نوع من الفكر والتكهن العلمى ، وكان بينها موضوعات مثل دور الأزهر والاسلام فى القرن العشرين ، أو دور اللغة والعادات والدين كأساس للاستقلال الوطنى .

كانت نية على ماهر الواضحة هى السعى لخلق بنية أساسية من المتعلمين والمثقفين لتأييد فكرة اقامة نظام اسلامى يقوم على القرآن الكريم ، بزعامة ملك صالح ، ويكون قادرا على مواجهة متطلبات ومشكلات العصر الحديث . وتم تنظيم مجلس من المفكرين فى مصر ، كان بينهم ـ مع آخرين ـ الفيلسوف أحمد لطفى السيد باشا ، والسياسى القبطى مكرم عبيد ، الذى أصبح بعد سنوات قليلة « إله الانتقام » من النحاس باشا ، والنقراشى باشا الذى اغتاله الاخوان

المسلمون فى أواخر الأربعينيات ، وحافظ عفيفى باشا ، وطلعت حرب باشا مؤسس النظام المصرفى والاقتصادى فى مصر الحديثة . وقد وضعت رعاية فاروق على رأس كل هذه الأنشطة ، وبذلك دعم على ماهر ـ أكثر الوزراء الذين يثق فيهم فاروق ـ مكانته بصورة أكثر ..

ومن العسير تصور كيف كانت هذه الروح الاسلامية تتناول المشكلات المعقدة لمصر الحالية .. فهل كان على ماهر يتقبل تراجعا عن الاتجاه الكلى لتاريخ مصر الحديثة من أجل العودة الى نظام اسلامى أصولى ؟.. وهل سيلغى فاروق تحرير وتحديث النظام القانونى المصرى بالعودة الى الشريعة الاسلامية ؟ من الواضح ان الأمر لم يكن كذلك ، ولو ان عملية اضفاء الطابع الاسلامى قد نجحت لكان ينبغى أن يتبعها تطبيق لحل وسط . ولو كان سمح لمعارضة النحاس والوفد أن تحرز تقدما طبيعيا ، لأمكن أن يفترض عندئذ انه ستكون هناك فرصة طيبة لمصر لتقديم دولة اسلامية مقبولة وصالحة فى القرن العشرين تقوم على أساس توافق منطقى معقول . غير ان احباط حركة اضفاء الطابع الاسلامى ، وقمعها بصورة فعالة خلال الحرب العالمية الثانية ، فيما أصبح معروفا باسم حادث عابدين فى ٤ فبراير ١٩٤٢ أجبرتها على العمل السرى ، وسوف يوصف حادث عابدين بصورة أكثر اكتمالا فى الفصل الثالث عشر ، غير انه كان بمثابة انقلاب ، دعم به البريطانيون حكومة فاسدة ، متذرعين بحجة ضرورات زمن الحرب ، وباحباط اقامة نظام اسلامى متحرر فى مصر ، تلهمه روح الاسلام العقلية الرشيدة ، فإن الحادث كانت له عواقب تعسة تجاوزت حدود مصر ، والأكثر شؤما انها غرست البذور لظهور تطرف اسلامى حديث ، كان أكثر مآثره العلنية مؤخرا اغتيال الرئيس أنور السادات فى ١٩٨١ ..

لقد وجد الملك الشاب بمجرد جلوسه على العرش ، وفى الواقع تولى منصبه ، نفسه معتمدا كلية على الصعود السياسى لمستشاريه المقربين ، وعلى رأسهم على ماهر باشا والشيخ المراغى ، ولم يعد هؤلاء وخصومهم الوفديون مستعدين للابقاء على الهدنة التى سارت بين القصر وحزب الوفد فى الأيام العصيبة التى أعقبت وفاة الملك فؤاد ، وتوقيع معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، والفرحة التى أحدثها تولى العرش والزواج الملكى ، وحدث تعقيد آخر بالوضع الجديد للمندوب السامى البريطانى بمقتضى المعاهدة والذى خفض دوره من حاكم صغير الى مبعوث دبلوماسى . ويبدو ان السير مايلز لامبسون قد ساءه هذا التنزيل لدرجته ، وما كان يبدو لكثيرين من الانجليز الذين يعيشون فى مصر فى ذلك الحين ، تدهورا لمركز بريطانيا فى دولة كانت دول أوربية كثيرة أخرى تفوز بأنصبة جوهرية فيها ..

وكان النفوذ الفرنسى التقليدى فى ذلك الحين يثير أغلب المخاوف ، ولكنه سرعان ما انضمت اليه سياسة نشيطة لدول المحور موجهة الى كسب حب

وإعجاب المصريين الودودين . وقد بذل كل من هتلر وموسوليني جهودا خاصة فى الثلاثينيات لاجتذاب الملك الشاب ، فقد قدم له الأول هدية زفاف فاخرة ، سيارة مرسيدس المعهودة سوبر س . س . ك ذات السقف الذى يمكن طيه ، من نوع الكابريوليه الممكن شحنه . أما الدوتشى موسوليني ، الذى كان يمثله سفيران ايطاليان بارزان فى القاهرة ، هما الكونت ماتسوليني ، وخلفه الفاشيستى الشاب المتحمس بيلجرمينو جيمبى ، فقد عملا بنشاط على تنظيم الجالية الايطالية الكبيرة المقيمة فى مصر الى تشكيلات فاشية متحمسة ..

ويستطيع المرء أن يتخيل مدى هلع سير مايلز لامبسون المشوب باحساس الفضيحة عند مشاهدة استعراضات فرق القمصان السوداء « جيوفيفتسا » و« الباليلا » الايطالية التى كانت تشاهد بين حين وآخر فى القاهرة . ومما زاد الأمور سوءا ان نظير مايلز لامبسون فى السفارة الايطالية كان يرأس علنا هذه الاستعراضات للقمصان السوداء ، وهو يرتدى كل الشعارات الفاشية وقد رفع ذراعه بالتحية الرومانية تحت أنظار يبدو عليها الاعجاب من كبار الشخصيات المصرية . ويحب المصريون دائما العروض الجيدة . وكانت خلفيتهم الامبرالية الايطالية ، والتوسع الحماسى فى اشاراتهم وأوضاعهم البطولية ، تتناقض تماما مع الجزء الأكبر من الموظفين البريطانيين ذوى السترات الفراك الرمادية .كانت مسألة مبالغة فى الأنباء تتنافس مع التهوين منها . أو الحلبة الرومانية تتنافس مع وستمنستر الفيكتورية ، القياصرة ذوو الشكل الساحر ، يتنافسون مع الشخص الملتف فى سواد حدادا على جلالة الملكة الراحلة فيكتوريا . ولابد ان قرص الدواء كان مريرا فى فم لامبسون . ولا شك انه كان يعتبر المصريين ناكرى جميل والملك تلميذا تحول بفعل السحر ليصبح بسرعة طاغية شرقيا شابا ، ذا خطورة لا يمكن السيطرة عليها ..

وقد شهدت السنوات الأولى من حكم فاروق عودة المنافسات القديمة بين الحكومة والقصر ، كما استمرت المنازعات حول الامتيازات المتضاربة ، كان مجلس الوزراء يشكو ـ مثلا ـ من قرار القصر بتعيين رئيس البلاط الملكى دون استشارته مسبقا . ويرد القصر على ذلك بتأخير الموافقة على تعيين الوزراء الوفديين بمجلس الشيوخ أو بعض المناصب العليا . غير ان المسألة الحاسمة كانت الفضيحة التى شاعت حول منح امتياز كهربة خزان أسوان ، عندما طالب عبدالقادر المازنى رئيس تحرير احدى الصحف الرئيسية وهى « البلاغ » باستقالة عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية . واتهم المقال بأنه شريك مع آخرين ، فى مؤسسة بريطانية يمثلها بالقاهرة شخص يدعى الكولونيل جراى ، وكان عثمان محرم فى الواقع يعمل فى خدمة هذه المؤسسة البريطانية . وفى نفس الوقت كان هناك قسم من المحبين للانجليز فى مجلس الوزراء بزعامة مكرم عبيد باشا يعزز العطاء البريطانى بنشاط ، بحجة انه رغم ان العرض

البريطانى كان يزيد حوالى مليونى جنيه على العروض الأخرى ، أو حوالى ٤٠ ٪ أعلى من منافسيه ، فإنه يجب قبوله ، وعندئذ استقال محمود غالب باشا وزير العدل ومعه الوزير الوفدى محمود فهمى النقراشى من الوفد ، وتبع ذلك استقالة احمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب و٧٣ نائبا وشيخا وفديا ..

وكانت اقالة فاروق للحكومة الوفدية هى النتيجة الأساسية لهذه الفضيحة ، ولكن سببا ثالثا كان قد سبق هذا الاجراء .. وهو مسألة القمصان الزرقاء .. وكانت سياسات « القمصان » قد أصبحت موضة فى أوربا ، حيث كان أصحاب القمصان البنية والقمصان السوداء قد انطلقوا فى الشوارع ، يسيرون على أنغام الموسيقى العسكرية وينشدون أغنيات وطنية ، ويتحرشون بالمواطنين غير المتحمسين لهم . وفى ذلك الحين برز فى مصر تشكيلان لأصحاب القمصان ، القمصان الخضر التابعين لحركة مصر الفتاة ، وتشكيلات القمصان الزرقاء للشباب الوفدى ، ولما كانت الأولى ذات عقيدة اشتراكية وطنية ، فقد كانت تجتذب العناصر الأكثر نشاطا من الوطنيين المتشددين ، أما الأخرى التى كانت تخضع للسيطرة طالما بقى الوفديون فى السلطة ، وكانت لهم صفة رسمية مبهمة ، كما كانوا أكثر عددا ، وقد أعربت كلتا الجماعتين عن مستوى معين من العداء الغامض فيما يتعلق بالملك ، ولكن أيا منهما لم تعلن نزعة جمهورية علنية رغم ان زعامة الوفد عرف عنها انها تميل الى هذا الاتجاه ..

وكان فريق فاروق ، كما رأينا ، يقوم بوضع مذهب إسلامى لمواجهة النظرية المستوردة للديمقراطية البرلمانية ، وفى ظروف كانت اقالة الملك فاروق فيها لأول حكومة فى عهده ليست تعسفية كما كان معتقدا ، وكان من العسير رؤية كيف يمكن أن يوجد تمثيل نيابى على غرار وستمنستر فى وقت كان فيه القمصان الزرقاء الذين توحى لهم الحكومة قد انطلقوا ينفذون برنامجا من معارك الشوارع وشن هجمات على ممتلكات السياسيين المعارضين . وبلغت الأمور ذروتها عندما قام حشد من غوغاء القمصان الزرقاء الوفديين بمهاجمة وحصار دار محمد محمود باشا ، وهو شخصية محترمة كان وزيرا وفديا ، وأصبح الآن رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ..

وعند هذه النقطة ينبغى أن نستطرد قليلا ونسجل هذه الحقيقة العجيبة ، وهى ان السفير البريطانى بالقاهرة ، ومستر إيدن فى لندن كان يبدو انهما يلقيان بكامل ثقلهما وراء الوفديين ، الذين كانوا يتصرفون فى نفس الوقت مثل النازى ، بل ان لندن أوفدت الدبلوماسى المخضرم السير رونالد ستورز الى مصر لنصح القصر سرا بعدم اقالة النحاس ، وكان فى هذا العمل بعض الخطأ ، إذ لم يكن على سطحه الكثير للاختيار بين هذا النهج من دبلوماسى هوايتهول ، والمغازلات التى تجرى فى ألمانيا بين المستشار هندنبرج والكونت فون باين مع أدولف هتلر أملا فى استغلال سفاكى الدماء منعدمى الضمائر من أجل مطامعهما

الشخصية ، وفي ذلك الحين لم يكن النحاس فى القاهرة مماثلا لهتلر ، وكان فريق الملك فاروق أكثر تيقظا لتعقيدات المناورة السياسية من هندنبورج وفون باين ..

وكان على الاشتراكية الوطنية فى مصر أن تنتظر ثلاثين عاما أخرى قبل أن تبرز مع نظام عبدالناصر ، وقد تبعت خروج الوفديين من السلطة سلسلة من حكومات غير وفدية ، بدأت بحكومة محمد محمود باشا ، واستمرت بحكومتى على ماهر وحسين سرى باشا خال الملكة فريدة ، وقد شهدت هذه الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ اضطرابات عنيفة عديدة ، كان أهمها اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وقد أدت هذه الأحداث الى توسيع الفجوة بين السفير البريطانى والملك فاروق ، وقد جلبت الحرب معها مشكلات فى تفسير معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا . وبرز الى المقدمة سؤال عما إذا كان يجب على مصر أن تعلن الحرب على دول المحور ، رغم انه كان يبدو فى ١٩٤٠ للمصريين أن فرص فوز بريطانيا فى الحرب ضئيلة فعلا ..

وقال لى فاروق : « مهما بلغ تعاطفى مع حلفائى ، فإننى يجب أن أفكر فى بلدى ، ولامبسون يرفض قبول موقفنا من الأمور ويبدو انه يجعل منها مسألة شخصية ، اننا غير ملتزمين بموجب المعاهدة باعلان الحرب ، ومن ثم فإننى لا أستطيع أن أرى أن لدى حتى سلطة قانونية أو أدبية لمثل هذا الاعلان .. وما هو الاسهام العسكرى الذى يمكننا أن نقدمه للبريطانيين ؟ لقد اضطر جيشنا فعلا الى التخلى عن أغلب أسلحته للجيش البريطانى . ان اسهامنا للحرب سيكون رمزيا الى حد كبير ، وفى مقابل ذلك فإننا سوف نشعر بالوطأة الكاملة للعداء الألمانى والايطالى ، بتقديم المبرر لهم بأننا دمى بريطانية . اننى أعلم ان أوتوبيتس السفير الألمانى فى باريس قد وعد الخديو السابق عباس حلمى بإعادته الى العرش المصرى الذى طرد منه بواسطة لورد كيتشنر ، ويقول لامبسون اننى أتآمر مع دول المحور ! ألكى أبعد عن العرش لصالح عباس حلمى بواسطة الألمان ، لأننى فى أعينهم دمية بريطانية ، وانه هو الوريث الشرعى للعرش ، ضحية الامبريالية البريطانية ؟ يا له من اتهام سخيف ! »

وهناك انتقادات قليلة قد توجه الى دور فاروق خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه ، وكانت فترة صعبة ، اتسمت فى مرحلتها الأولى بتحدى القمصان الزرقاء الوفديين للملكية ، وفى مرحلتها الثانية بنشوب الحرب بين بريطانيا وألمانيا ، ولقد رأينا انه فى وجه التحدى الوفدى الديمقراطى الزائف ، كان مستشارو الملك يأملون فى أن يقدموا خيارا اسلاميا ، غير ان الحرب أدخلت الآن عنصرا أكثر ترويعا الى هذا التدريب على الأشكال البديلة للحكم ، لقد بدأ الانجليز يتقدمهم السفير البريطانى ، مع تأييد قوى من حكومة الحرب فى لندن ، إحكام قبضتهم على السياسة المصرية وأصبح أحمد حسنين باشا المحب

للانجليز ، الذى درس فى اكسفورد وكان مواليا لبريطانيا رئيسا للديوان الملكى .
وكانت الخطوة البريطانية بلا شك تعبيرا عن ضغط قهرى ، مما يتناقض تماما مع روح العلاقات التى كانت متوقعة فى المعاهدة المصرية ـ البريطانية لعام ١٩٣٦ كما انه كان الطرف الرفيع للاسفين الذى عجل فى النهاية بحادث عابدين فى ١٩٤٢ عندما كان اعتقال فاروق وارساله الى المنفى قويا .. لقد كان موقف فاروق فى رفضه اقرار اعلان الحرب على المحور له ما يبرره بوضوح من وجهة نظر مصرية ، ومع ذلك فقد استخدم لامبسون موقفه لمساندة الزعم بأن فاروق كان يتعاطف بنشاط مع دول المحور ..

وقد اتخذت بريطانيا الخطوة الأولى فى ١٩٤٠ وكانت طلبا من وزارة الخارجية البريطانية نقل الى فاروق بواسطة لامبسون ، وقد جاء فيه « ان المملكة المتحدة ترى انها مضطرة الى تقديم احتجاجات قوية لملك مصر من أجل تغيير الحكومة » وكان على ماهر قد استقال فى ٢٤ يونيو ، وكلف حسين سرى وهو رئيس وزراء مستقل محب للبريطانيين ، بتشكيل حكومة جديدة ، وقد أسقط محمد صالح حرب باشا وزير الدفاع السابق وموضع ثقة فاروق من الحكومة ، بينما منح عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش اجازة مرضية لمدة ستة شهور قبل أن يحال للمعاش ، وبالمثل تم ابعاد عبدالرحمن عزام باشا ..

ومع اجبار أنصار الخيار الاسلامى على اتخاذ مقاعد خلفية ، كانت بذور ثورة محتملة ضد فاروق قد بذرت أيضا ، ان انفصال عزيز المصرى عن فاروق وعداءه حيال فاروق بعد ذلك أدى الى تآمر اللواء ضد الملك ، وكانت لدى فاروق توقعات ذكية لهذا الغدر الذى سيحدث ، وقد بلغ من شدة احساساته انه فى محادثة معى فى وقت ما عام ١٩٤٥ قال الملك : « من سوف يخلصنى من عزيز المصرى هذا ؟ ان شخصا يحبنى يستطيع أن يقتله بسهولة بالقيادة الى جوار سيارته ثم ينهال عليها بنيران مدفع رشاش !»

كان عزيز المصرى يمثل خصما رهيبا . ان هذا الضابط التركى الشاب سابقا ، الثورى الناجح ضد السلطان العثمانى فى ١٩٠٨ ومؤسس حزب الأحد العربى المناضل ، مثير الفتن المصرى ـ الشركسى ، الذى يدعى عزيز المصرى ، كان فى استطاعته أن يصبح أكبر عدو سياسى عنيد لفاروق ، وقد أصبح كذلك فعلا ، وإذا كان هناك أحد يستطيع أن يزعم انه كان المحرض والملهم لثورة عبدالناصر عندما وقعت فى ١٩٥٢ فهو اللواء عزيز المصرى وهى حقيقة اعترف بها جمال عبدالناصر نفسه ..

وفى سنوات تالية عندما كان لايزال يتمتع بذهن نشيط ولكنه رجل عجوز تحرر من الوهم ، كانت لى تجربة مثيرة للاهتمام باجراء محادثات مختلفة مع اللواء ، إذ كانت هناك علاقة عائلية قائمة فعلا بينه وبين إل ثابت ، وقد تحدث معى بصراحة :

« كان فاروق خيبة أمل كبرى ، كان يفتقر الى النظام لأى نوع من الجهد الثابت ، وبالمثل كانت تنقصه الشجاعة فى معتقداته .. وفى فترة حرجة من التاريخ المصرى ، عندما بدأ البريطانيون فى عام ١٩٤٠ التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد ، عندما كان فى استطاعته معارضة البلطجة البريطانية ، فضل أن يستسلم . لقد أقال على ماهر وأنا بدون أى احتجاج ، وجلب حسنين ، الذى لم يكن إلا عميلا بريطانيا . ولم تكن لدى فاروق القيادة أو الشجاعة ليقاتل ، ولهذا فقد عرشه فى ١٩٥٢ ولو انه كان شجاعا كالملك حسين الشاب لقاد سيارته الى ثكنات مصطفى باشا وتولى القيادة هناك ، وفى ذلك الحين كان الجزء الأكبر من الجيش والبحرية موال له وتحت الأوامر المباشرة لضباطه ، وكانت حفنة الضباط الأحرار الشبان فى القاهرة الذين استولوا على السلطة غير مسلحين فعلا ، والدبابات التى حاصرت قصر عابدين كانت تنقصها الذخيرة ، وكان فى استطاعة فاروق أن يسحق التمرد ولكان جمال عبدالناصر نفسه فى السجن اليوم . ولكنه فضل أن يجلس مرتعشا فى قصره وغدر بالشعب المخلص له ، تماما كما غدر بعلى ماهر وبى أنا فى عام ١٩٤٠ »

ورغم ان هذه الكلمات كان فيها ظل من الحقيقة التى لا شك فيه ، فإنه من الانصاف دراسة الظروف بصورة أكثر قربا فى ضوء الأحداث التى كانت تتكشف فى أوربا : الفشل التام فى النرويج ، وانسحاب التجريدة البريطانية من نارفيك ، والدليل الواضح على التفوق العسكرى النازى ، سرعان ما تبعته كآبة بشعة نتيجة لسقوط فرنسا ، لقد تسببت هذه الأحداث فى جعل أكثر البريطانيين تفاؤلا لديه أسباب للخوف ، وكان من الممكن تصور ان المصريين قد يشعرون ان حليفهم ومحتل بلادهم لن يكسب الحرب .. مثل هذا الحذر كان موجودا لدى كلا الجانبين وسط ضغوط متزايدة . وكان فاروق رغم وطنية عزيز المصرى المتحدية حكيما فى هذه الظروف بالتصالح مع وزارة الخارجية البريطانية اليائسة ..

وكان هناك حدث حاسم آخر ، هو دخول ايطاليا الحرب ، وكان الاحتلال الايطالى لليبيا يعنى ان الصراع كان على أبواب مصر . كانت جيوش المحور الآن تقف متأهبة على الحدود . ورغم ان الدعاية العسكرية الايطالية لم تكن قد اختبرت بعد ، فإن أحدا لم يكن فى استطاعته ان يتنبأ جديا بنتيجة المواجهة مع البريطانيين ، وكانت مهارات الفيلد مارشال الجرازيانى ومارشال بجوبابلو ، وتفوق التكنولوجيا الايطالى الظاهر فى الحرب الجوية والمدرعات تتردد كثيرا فى القاهرة خلال الشهور السابقة ، وكان من الممكن للبحرية الايطالية التى كانت تمتلك بالتأكيد أملس وأرشق وأكثر سفن تلك الفترة تطورا ، ان تقضى بسهولة على كل سفن الأسطول البريطانى الحربية المألوفة ذات الطابع المحافظ ، فى قاعدتها بالاسكندرية ، وكانت سفن البحرية الملكية الكبيرة مثل « كوين

اليزابيث » و« وفاليانت » و « بارهام » تنتمى الى عصر مضى وقته من الحروب البحرية ، حيث انها السفن التى استخدمت فى جاتلاند والدردنيل . كانت تبدو ديناصورات بطيئة الادراك من القرن التاسع عشر إذا قورنت بالخطوط المصقولة للطرادات الايطالية الثقيلة « بولا » و« جوزتيزيا » أو « مونفكوتشولى » ذات الخطوط الملساء كجواد السباق ، و« يوجينى دى سافويا » والطرادات الخفيفة فى قوات موسولينى البحرية ، وسوف يتم الاستيلاء على مالطة المتوقع ان تكون صديقة خلال ٤٨ ساعة بفضل قوارب الطوربيد المجهزة بمحركات ماس البالغة السرعة ، والمتركزة فى الطريق الجنوبى لايطاليا ..

كان من الممكن فى تلك اللحظة ، وقد بلغت التوقعات البريطانية أسوأ حد ، ان فاروق الذى يدرك واجبه حيال شعبه ، يقرر مقاومة كل محاولة لجر مصر الى الحرب . صحيح ان الايطاليين كانوا على وشك اختراق الحدود الغربية ، غير انهم أعلنوا بوضوح ان معركتهم ليست مع المصريين ، وانه ليست لهم أية مطالب اقليمية أو أطماع أخرى فى بلادهم ، وانهم جاءوا فقط لطرد البريطانيين ، وقد دعت بعض الأصوات فى مصر ولا سيما أحمد ماهر باشا الى اعلان الحرب ضد المحور ، وقال ان على مصر كدولة ذات سيادة أن ترد بالقوة عندما تحتل أراضيها ، وإلا فإن مصر سوف تبدو كأنها مجرد تابع للبريطانيين لا رأى لهم أو شخصية ، غير ان الرأى العام المصرى اتخذ وجهة نظر أخرى ، وهو ان دول المحور سوف تكسب الحرب ، وأى اسهام أو اشتراك مصرى لا يستطيع تغيير الأمور وخاصة ان مصر كانت تحترم معاهدة ١٩٣٦ وتطبق أحكامها تماما لتقديم مساعدات للبريطانيين ، وهكذا فإنه لم يكن هناك سبب سليم يدعو لمعاداة المحور من أجل مجرد ايماءة جوفاء ، وكان قرار فاروق ضد التورط فى الحرب يتفق تماما مع الرأى العام ..

ولقد لعب عدم الثقة فى نوايا البريطانيين أيضا دورا فى هذه القرارات ، ان بريطانيا كررت مرارا كثيرة عزمها على الانسحاب من مصر دون أن تفعل شيئا فى هذا الصدد ، ولم يكن من المحتمل أن بريطانيا المنتصرة سوف تميل الى الجلاء عن البلاد ، ومن ثم فإن المرء يستطيع أن يستنتج أن وجود ايطاليا أو ألمانيا قد لا يكون أفضل من الوجود البريطانى ، وانه بالتأكيد لن يكون أكثر سوءا . وكان هناك جانب آخر للمشكلة وهو الخطر الذى ستتعرض له مصر فى حالة حدوث قصف مكثف من دول المحور . وقد أثار خزان أسوان بصفة خاصة كثيرا من القلق من احتمال أن يطلق المحور فيضانا رهيبا الى وادى النيل مما ستكون له عواقب مرعبة . وقد وصف المعلق الانجليزى جورج كيرك موقف المصريين بدقة *

---

* جورج كيرك .. « نظرة فاحصة على الشئون الدولية » ١٩٣٩ - ١٩٤٦ » « الشرق الأوسط فى الحرب » مطبعة جامعة اكسفورد / ١٩٥٢ ص ٤٠

« كان من سوء الحظ بالنسبة لمستقبل العلاقات الأنجلو مصرية ، أن اللحظة التى ظهرت فيها حقيقة الحرب على اعتاب الشرق الأوسط ، كانت هى أيضا لحظة انهيار مقاومة الحلفاء فى القارة الأوربية ، واللحظة التى بدت فيها احتمالات انتصار المحور للمحايدين مؤكدة فعلا . وفى تلك الظروف لم يكن مما يثير الدهشة ان تتردد حكومة على ماهر ، التى تسعى الى الاستقلال التام ، وبموافقة الملك فاروق وبجزء أكبر من طبقات الأهالى ذوى الوعى السياسى ، فى الزام انفسهم لبريطانيا ، وانه كان ينبغى بدلا من ذلك أن يتركوا لانفسهم ثغرة من الحياد من أجل تجديد الاتصالات مع المحور » ..

وظهر الآن نمط فى العلاقات بين فاروق والبريطانيين ، فطالما كانت حظوظ الحرب مواتية للحلفاء ، كانت العلاقات تظل ودية ، ولم تكن قط أكثر ودا مما كانت عندما نجح الهجوم المضاد ضد التغلغل فى مصر الذى بدأه الجنرال ويفل فى ٩ ديسمبر ١٩٤٠ وأدى الى طرد الايطاليين ، وتوطيد الغزو البريطانى لبرقه ، وانتهى باحتلال بنغازى فى ٦ فبراير ١٩٤١ . وسرعان ما عقد فاروق - المرح دائما - علاقات ودية مع كثيرين من كبار قواد القوات البريطانية . وكأن سروره وامتنانه لانتصارات ويفل واضحة وحقيقية . وسرعان ما أقنعت هذه المبادلات الودية أعضاء هامين بمؤسسته العسكرية البريطانية ان فاروق لايمقت البريطانيين وانه ملك يتعاطف مع التآمر لاسقاط البريطانيين ، كما اختار السير مايلز لامبسون أن يعتقد ..

وهكذا بدأت بذور الخلاف بين السفارة البريطانية والعسكريين البريطانيين تختمر ، وكانت العلاقات الودية الوثيقة بين الملك وكبار الضباط البريطانيين ، أمثال الجنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر ، والجنرال السير هنرى ميتلاند - ويلسون ، ومارشال الجو السير شولتد دوجلاس ذات طبيعة تزعج السير مايلز لامبسون ، الذى كان يدرك جيدا ان انتقاد السفارة كان سائدا فى صالونات القاهرة ، وان دور فاروق كان يحظى غالبا بدفاع صاخب بواسطة كثيرات من المضيفات البارزات اللواتى كانت آراؤهن تصل الى الزائرين البريطانيين ذوى النفوذ . ولا مناص من أن تنقل الكلمات والآراء الى لندن والى أوساط من المحتمل أن تكون ممن ينتقدون وزارة الخارجية وممثلها فى القاهرة ..

وقد جاءت خيبة الأمل البريطانية فى ١٩٤١ عندما ظهر رومل والفيلق الأفريقى فى ليبيا وانزل هزائم عسكرية فادحة بالجيش الثامن البريطانى فى مارس وابريل . وزاد استيلاء الألمان على بنغازى وتقدمهم الى الحدود المصرية إلحاحا الى رغبة السفير البريطانى فى ابعاد فاروق عن منصبه ، اذ ان فاروق الى جانب توثيق علاقاته الودية بالجنرالات البريطانيين ، بدا انه يتبع خطا مصريا وطنيا صارما يسير فى اتجاه مقاوم لأفكار السير مايلز عن الكيفية التى يجب أن يتصرف بها فاروق . وقد يتساءل المرء عما اذا كان الايطاليون قد أدركوا ذلك .

والرد هو انهم لم يعرفوا شيئا . فلم يكن هناك أى دليل عن أى نفوذ سياسى ايطالى ذى مغزى فى أى مكان ، فيما عدا زوجة السفير البريطانى التى باعتبارها من آل كاستيلانى تنتمى الى اسرة انجلو ـ ايطالية شهيرة . غير ان السيدة لامبسون الجميلة كانت سيدة بريئة تماما ، كثيرة الاهتمام بزينتها . وكان يبدو أن شعور السفير البريطانى نحو فاروق كان مرضيا تقريبا . وتكفى نظرة على يوميات كيلرن ١٩٣٤ ـ ١٩٤٦ لتؤكد هذا الانطباع على الفور ..

ومن الواضح أن فخامته قد قرر أنه يجب أن يتخلص من فاروق بمجرد العثور على مبرر مناسب . غير أن مثل هذه المبررات كان من الصعب ايجادها فى الواقع . وكانت خرافة أن القصر كان يأوى عملاء خطيرين للمحور تنفجر بسهولة عندما يلتقى المرء بالسادة المقصودين : انطونيو بوللى بك كهربائى القصر السابق الذى ساعد فاروق على تجنب حصار مسز نايلور ، كان ايطاليا ـ مصريا لطيفا نوعا ما ولا ضرر منه أبعد ما يكون عن مجموعة شيانو / موسولينى ، وجارو كان حلاقا ايطاليا ليست لديه امكانيات سياسية أو دبلوماسية ، وجافاتزن الذى يعنى بكلاب الملك لم يكن ايطاليا على الاطلاق بل أنه شاب سويسرى من لوجانو مازال فى عقده الثانى ، غير ناضج سياسيا ، كما أنه محايد ..

وكان لامبسون بالمثل يرتاب فى أن الملك أنشأ اتصالا لاسلكيا سريا مع المحور ، يبعث عن طريقه بوسيلة غير معروفة معلومات سرية . وكانت سخافة هذا الترتيب الهزلى واضحة ، اذ لوكانت لدى فاروق أية نية للاشتغال بمثل هذه العمليات لكان من غير المحتمل أن يقوم بها من خلال القصر ، وحيث أنه لم يكن محتملا فى الواقع انه يريد انتصار المحور على الاطلاق ، لأسباب ذكرناها من قبل ..

وفى نفس الوقت ظل المسرح السياسى المصرى الداخلى هادئا بصفة عامة وتبع ذلك تولى وزراء موالين لبريطانيا بصورة عامة ، ووفاة واحد منهم هو حسن صبرى باشا ، بعد الانعام عليه مباشرة بوسام محمد على ، وقبل أن يلقى خطاب العرش ، وتولى رئاسة الوزارة حسين سرى باشا خال الملكة فريدة ، والنصير القوى للروابط الوثيقة مع بريطانيا ، وسرعان ما أصبح سرى باشا الأداة الداعية للغدر بالملك ..

١٠ ـ أطوار ملكية غريبة

لابد منْ الاعتراف بأن التصرفات الغريبة وما يتصل بها من مواقف ، ووجهات نظر أعضاء معينين من الأسرة المالكة فعلت الكثير لاثارة اتهامات الطبقة المصرية المتوسطة الجديدة بالاحترام لأعضاء الأسرة بأنهم أجانب . وإذا كان المصريون يعتبرون اسرة محمد على دخيلة ، فان هذا على الأقل مسألة معلومات عامة ، ومن الممكن اختيار شخصيتين رئيسيتين بصفة عشوائية فى هذا المجال .

وانني أذكر على سبيل المثال الأميرة المزعجة الحسناء منيرة حمدى التى كانت تعيش فى فيلا رائعة على ضفاف النيل بجوار عمارة سكنية عالية أقيمت حديثا ، وكانت منيرة حمدى قصيرة جدا لا يتجاوز طولها خمسة أقدام . وكان لديها « شعور ما » تجاه لورنس العرب ، وقيل أنها كانت على علاقة سرية معه ، مع أنها لم تلتق به إلا مرة واحدة قبل ذلك بسنوات عديدة ، واظهارا لعاطفتها القوية ، كانت الأميرة ترتدى عباءات عربية فضفاضة ، وكوفية ، وهى لباس الرأس الشعبى فى السعودية والأردن يشبه العمامة ، كما كانت تضع خنجرا هاشميا مزخرفا . وكانت هوايتها المفضلة أن تطوف بشوارع القاهرة فى سيارتها الفاخرة من طراز الرولزرويس يقودها سائقها ويصحبها سائس سودانى ضخم قوى ، للبحث عن السائقين الأوباش الذين يسيئون معاملة خيولهم ، وغيرهم من المواطنين الذين يضربون الكلاب أو يركلون القطط ! .

كانت الأميرة ذات شخصية متناقضة ، مما يعنى أنه بينما كانت كل الأسرة المالكة تقريبا من محبى الألمان خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد ظلت هى تحب الانجليز بشدة . وبفضل لورنس الى حد ما ، اقتنعت بأن هتلر يدبر خططا شريرة حيال مصر .. وخلال زحف رومل فى اتجاه وادى النيل فى ١٩٤٢ بدأت تسلح نفسها . وكانت قد ورثت عن أقاربها الرياضيين عددا طيبا من المسدسات وبنادق الصيد ، فقامت بتجهيزها للاستعمال ، كما استطاعت الحصول .. عن طريق السوق السوداء "المتاحة دائما .. بعض مدافع رشاشة « تومى جان » وكمية كبيرة من الذخيرة ، هربتها الى فيلتها تحت أنف البوليس . وفى ربيع ١٩٤٢ ، وبينما كان الفيلق الأفريقى يقترب من العلمين ، كانت الأميرة فى الانتظار ..

وذات ليلة رأت حلما غير عادى كأنه قطعة حية .. وخيل اليها أن وحدة من قوات العاصفة الألمانية قد هبطت فوق سطح العمارة المجاورة .. وقفزت منيرة حمدى الى العمل ، واطلقت صيحة التحذير ، وقامت بصف خدمها النائمين ، والخادمات الشركسيات الجميلات ذوات العيون الواسعة ، والسفرجية السودانيين ، والبستانى والسائق ، حتى رجل البوليس الذى كان يقف لحراسة بوابتها ، وأخذت فى توزيع البنادق والذخائر على الجميع . وقامت الأميرة شخصيا بتوزيع قواتها على النوافذ المواجهة للعمارة المجاورة . وعندما استعد الجميع ، أصدرت الأميرة أوامرها باطلاق النار ، بينما أمسكت هى مدفعا رشاشا ثقيلا من طراز جاتلنج القديم كانت قد ورثته عن جدها .. ودوت أصوات الطلقات النارية المنهمرة تعكر صفو هدوء ليل القاهرة ، وكان مدفع جاتلنج يصدر ضجيجا مزعجا ، كما سخن بسرعة وانحشرت الرصاصات فيه ، وعندئذ حملت مدفعا رشاشا آخر من طراز تومسون .. ودوت أصوات نيران الأسلحة الصغيرة ، وتردد صداها فى أنحاء المنطقة بأسرها ! .

وسرعان ما وصل البوليس الى المكان ، ممثلا فى شخص الحكمدار البريطانى راسل باشا الذى هرع الى حضرة الأميرة .. التى قالت له بالفرنسية :

« أخيرا أنت هنا ياراسل باشا .. يمكنك أن ترى بنفسك أن الألمان قد وصلوا بينما أنت غير مستعد .. ماذا تستطيع أن تقول عن نفسك ، .. على أية حال خذ بندقية وابدأ فى اطلاق النار ، فليس هناك وقت للحديث ! »

وأسرع راسل باشا ـ الذى أدرك عجزه عن التعامل مع الأميرة العنيفة ، الى التليفون للاتصال بحسنين باشا ، الذى كانت دبلوماسيته واسلوبه الذكى فى محادثات الأميرات أمرا معروفا ، ولم يمض وقت طويل حتى كان حسنين باشا قد وصل فى احدى سيارات الليموزين الملكية ، وقد ارتدى معطفا فوق البيجامة .. كانت الساعة الرابعة صباحا ، والجو شديد البرودة ، وكان الانزعاج قد انتشر فى حى الجيزة بأكمله وضرب البوليس نطاقا حول الشوارع ،

بينما كان سكان العمارة المجاورة قد سارعوا بالالتجاء الى الجراج الذى فى أسفل المبنى ، وقد ظنوا أن الألمان جاءوا فعلا ، وانهم يهاجمون عمارتهم لسبب غير معلوم .. وكان صوت الزجاج المحطم وقطع الملاط المنهارة مستمرة فى التساقط فوق رؤوسهم ..

وسارع حسنين الى السيطرة على الموقف ، وقد ظهرت ابتسامة امتنان على شفتيه وقال فى أفضل أساليبه كرئيس للتشريفات ، وهو يبعد مدفعا رشاشا من طراز « تومى جان » ينبعث الدخان من فوهته : « لقد أوفدنى صاحب الجلالة لكى اهنئك فى هذه المناسبة العظيمة .. لقد استسلم العدو ، وتقوم قوات الجيش الآن بنزع اسلحته ولم تعد هناك حاجة لاطلاق النار ، وكفى ما نالهم .. ان الأمة تشكرك وتشعر بالامتنان لك .

وهدأت هذه الكلمات أعصاب الأميرة ، التى رجعت الى قواتها تبدو عليها علامات الانتصار وقالت لهم : لقد انتصرنا .. مبروك ! .. نستطيع أن نفخر اليوم بأنفسنا ولكن ينبغى أن نظل متيقظين ! »

وحصل الجميع على افطار شهى ، بينما أخذ سكان المبنى المجاور الذين اصابهم الذعر يتسللون عائدين فى حذر الى مخادعهم فى العمارة التى مزقتها المعركة ..

أما العينة الثانية من أعضاء الأسرة ، فهو الأمير عباس حليم ، أحد مؤسسى وزعماء نقابات العمال فى مصر ، وكان أكثر أقارب الملك فاروق شعبية ، كما كان يكبره فى السن كثيرا .. وسيم مندفع وشخصيته مثيرة للجدل الى حد ما . كما كان ضابطا فى لواء بالجيش الألمانى ، ثم التحق بسلاح الطيران الألمانى ، وعمل خلال الحرب العالمية الأولى تحت قيادة « أوديت » فى الجبهة الشرقية .. كان عباس حليم نموذجا للضابط الفارس الألمانى . رشيق القوام ، وله نفس الرأس الصغير والشعر القصير الذى لهذه السلالة ، وكان يضع أحيانا مونوكلا على عينه مما يؤكده مظهره الألمانى بشكل أكثر ، فهو أشبه بالضابط الذى اشتهر فى روايات اريك فون وشتروهايم . وكانت لهجته ، سواء تحدث بالعربية أو بالانجليزية تحوى لكنات قوية من بوتسدام ..

وكان عباس حليم يتمتع بجاذبية لاتقاوم حيال الجنس اللطيف ، كما كان من أصحاب الحظوة لدى الملك فؤاد ، الى أن حدث خلاف بينهما ، وعندئذ قام الملك بتجريدة من لقب الأمير ، إذ أن لقب الأمراء لا يورث فى العالم الاسلامى . وعقب ذلك ألقى عباس حليم بنفسه كليا فى الحركة العمالية المصرية ، وراح يعمل بدأب ونشاط لانشاء ودعم تنظيم نقابات العمال فى مصر ..

وكان « توتس » ابن زوجة عباس حليم من زوجها الأول اسماعيل عاصم ، وكنت ألعب معه ونحن غلامان صغيران .. ومازلت أذكر عصر أيام الأربعاء والامسيات الكثيرة التى كنت أرى فيها نقابات العمال تجتمع فى بدروم قصرهم

بجاردن سيتى ، فقد أتاحت لى رؤية عالم شامل من التآمر الثورى المكبوت ، عندما يلتقى العمال من كل نوع فى البدروم الفسيح .. كان هناك سائقو اتوبيس وسيارات شحن يقوم بتنظيمهم سكرتيرو عباس حليم الذين يرتدون ثيابا رمادية اللون وبيريهات زرقاء ، والمفترض أنهم يعدون لثورة ما . أما بالنسبة لنا نحن الغلامين الصغيرين ، فقد شهدنا أنواعا رائعة من التدريب على طرق الدفاع ، ومهاجمة البوليس الذى يقوده البريطانيون ، وبنادق من عيارات مختلفة ، وشرح لأفضل الطرق لاشعال النار فى مركبات الترام ..

وفى الطابق الأعلى ، كان الأمير يتألق فى ثيابه المصنوعة فى لندن وقد أمسك فى يده كأسا من الويسكى الاسكوتش ، وقد بدأ شخصية ملهمة حقا فى مكتبه الذى علقت على جدرانه بنادق الصيد ، ورؤوس الحيوانات المفترسة التى صادها .. وكان بينها منافض كبيرة للسجائر مصنوعة من ناب الفيل ، وهناك أسد كامل الحجم محنط يتمدد على السجادة وقد بدت نظراته تزدرى ما أمامها . وقد أرانى توتس فى احترام صورة « توبية » وهو يرتدى الزى الكامل لضابط فى جيش القيصر الألمانى .. وعندما لا يكون هناك أحد من الكبار معنا ، كنا نغير على دولاب البنادق ـ ونحدق فى حسد الى المواسير الزرقاء الرقيقة لبنادق مانليشر السريعة لصيد الأفيال ، وأنواع هولاند وهولاندز الراقية ، أو بنادق لى انفيلد العسكرية العادية ، ومن حسن الحظ أنه لم تكن أمامنا أية ذخائر ، فكنا نكتفى بالنظر واللمس .. لقد كان عباس حليم بالنسبة لنا بطلا للأطفال ، وهو أمر طبيعى تماما !

وقرب نهاية حكم الملك فؤاد ، فى ربيع ١٩٣٥ ، كان الملك قد لقى ما يكفى من ابن أخيه الاشتراكى ، فأرسل البوليس الى قصر الأمير ، حيث كنا نلعب . وما أن تم اجلاء النساء والأطفال منه ، حتى أحست المدينة بحصار القصر الذى استمر بضعة أيام . ولقى اثنان من الحرس الخاص من سكرتيرى الأمير مصرعهما خلال تبادل لاطلاق النار واعتقل الأمير ووضع فى السجن ، أما زوجته الأميرة توحيدة حليم ، صديقة أمى ، وكانت زوجة لاتهاب شيئا ، رومانسية مندفعة ، فقد احتلت أحد المقاهى المواجهة لنافذة زنزانة زوجها بالسجن المركزى فى القاهرة ، حيث قامت بتركيب مكبر للصوت وراحت تذيع منه الحان كول بورتر ، وإيرفنج برلين ، وايفور نوفيلو لتدوى عبر الميدان المواجه للسجن باستمرار .. وقد توافد المتعاطفون مع الأمير من كل المستويات الى البار والبوفيه الذى اقامته هناك لتقديم المشروبات مجانا ! ولاشك ان الملك فؤاد قد شعر بالقلق الى حد ما بسبب الدعاية التى كان لابد أن تخلقها هذه المظاهرة ، وسرعان ما أطلق سراح الأمير بكفالة ! .

ولم يقصر عباس حليم نشاطه على نقابات العمال وحدها ، بل كان له تأثير نشط موال للألمان خلال سنوات صعود هتلر ، وقد استقبل بحفاوة بالغة فى

الدورة الأوليمبية التى أقيمت فى برلين عام ١٩٣٦، وحضر اجتماعات نورمبرج مع أصدقائه القدامى فى السلاح الجوى، جرونج وأوديت، وقيل انه كان موضع ثقة الفوهرر نفسه ..

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية، أصبح عباس حليم شخصية رئيسية فى المجموعة الموالية للألمان من الأمراء والأمراء الصغار، والنبلاء، والباشوات، وشخصيات من المؤسسة. وكان آل حليم، كما رأينا، من المطالبين بالحق فى العرش، وخصوصا لفرع اسماعيل من الأسرة التى ينتمى اليها الملك فاروق، كما كانوا مؤيدين نشيطين للعناصر الوطنية التى ساندت الثورة العرابية قبل ذلك بحوالى ٦٠ عاما. وكان حب الألمان هو النتيجة الطبيعية لبغض الانجليز، كما كان الى حد ما تأثيرا مرتدا للتعاطف الذى كان يحس به فى مصر خلال الحرب العالمية الأولى تجاه القيصر والألمان بصفة عامة، إذ أن القيصر على أية حال كان حليفا للخليفة فى استانبول ..

ولم تكن أسباب الفشل البريطانى فى مصر على الاطلاق هو عجزهم عن كسب المؤسسة الحاكمة فى مصر لعقد هدنة سياسية، رغم حقيقة أن تقدير بعض المصريين لأشياء بريطانية عديدة كان يبدو أمرا متوطنا، حيث كان الارستقراطيون المصريون يعجبون بالكثير مما هو بريطانى، فيرتدون ثيابا من لندن، ويتبعون بسرعة بعض الانحرافات الأكثر بشاعة، مثل التكبر الطبقى البريطانى، ويفتخرون بانتمائهم الى نواد مقصورة على طبقة خاصة مثل هوايت أو سانت جيمس، وكانوا يلقون التملق والمراهنة لكونهم أصدقاء للدوقات الانجليز وغيرهم من العظماء .. والواقع انهم كانوا يكتسبون الشهرة من مخالفتهم لهؤلاء الآخرين، ويتلاءمون مع الأنماط الاجتماعية السائدة فى حى ما يفير الراقى فى لندن، أو التردد على ميادين البولو فى الجزيرة، وفيلاتها الممتازة فى هارلنجهام وباجاتيل وجيبور ..

ورغم ان هذه السلالة التى تنتمى الى المؤسسة كانت من الناحية الاجتماعية والمعنوية بل والعاطفية أقرب الى الطبقة العليا البريطانية، فقد كانوا منقادين للولاء لموطنهم الوطن المصرى .. أما فيما يتعلق بالبريطانيين، فقد كان عباس حليم المحب للألمان رجلا معروفا، ولكن هناك آخرين من أسرته شاركوا فى مشروع يؤيده البريطانيون وهو البوليس الخاص. وقد بدأت هذه المجموعة كقوة بوليس اضافية لمساعدة عمل البوليس المصرى، تحت الاشراف الاسمى، وأن كان محدودا للغاية، للقائد البريطانى السير توماس راسل باشا ..

كان المقصود من البوليس الخاص فى مفهومه الأول، هو أن يصبحوا مراقبين للغارات الجوية على غرار الحرس الوطنى البريطانى، وقد عين الكولونيل بويد كوبر الضابط السابق بالجيش الهندى مستشارا له. وسرعان ما اندمج فى العالم الاشتراكى المندفع لعباس حليم وصحبه. وكان مقرهم فى نادى السيارات

الفاخر ، الذى كانت الحياة فيه سلسلة من الحفلات وألعاب القمار ، وبين حين وآخر ، تتخللها سباقات للسيارات ، كسباق الواحات الشهير قبل الحرب ، والذى اتاح للسفير الألمانى الكونت فون شتورر وزملائه الايطاليين الحصول على تجاربهم الثمينة عن الصحارى ، فى حين أصبح الكونت الماسى ، وهو نبيل مشتبه فيه ، وصديق لعباس حليم ، مستشارا لروميل فى شئون الصحراء فى أركان حرب الفيلق الأفريقى . وقيل ان بويد كوبر كان رد فعله حيال أصدقائه الجدد فى الوحدة الخاصة قوله : « انهم رفاق طيبون بريطانيون تماما فى سلوكهم ! »

وقد بدأ البوليس الخاص باختيار زى أسود على غرار ملابس فرق الحرس الحديدى النازى ، وسرعان ما أصبح تفسيرهم لواجبات مراقبى الغارات الجوية شاملا ومائعا . ولما كان أعضاؤه سوف يستخدمون سيارات ، فإنهم سوف يرتدون أحذية سوداء طويلة العنق ، مصقولة للغاية على نمط الحرس الحديدى ، وازياء عسكرية رشيقة مثل هملر ، حتى أصبحوا نسخة مثيرة الى حد ما من بعض معدات الحرس الحديدى ..

ولم يمض وقت طويل ، حتى أصبحت الفرقة المتحركة ، التى بدأت بدراجات بخارية وسيارات خاصة تمتلك سيارات مدرعة من الجيش المصرى . وقرر زعماء المجموعة تحت أنوف البريطانيين ، انه لابد من تحويل قوتهم من مراقبى الغارات الجوية والحرس الوطنى ، الى منظمة شبه عسكرية على غرار الحرس الحديدى الألمانى ، تتولى الحفاظ على الأمن والقانون خلال فترة الانتقال بمجرد طرد البريطانيين من مصر . ومن أجل القيام بهذا العمل بكفاءة ، قد يكون من الضرورى فى مرحلة ما الاصطدام بالجيش البريطانى ..

وكان الأمراء والباشوات الذين يقودون هذه الوحدة يعملون سرا وبصورة محمومة لانشاء قوة مصرية من الحرس الحديدى .. والى جانب الحصول على عربات مدرعة ، فقد تلقوا أيضا تدريبات على المدفعية المضادة للطائرات كما حصلوا على مدافع ، بل ان بعض الدبابات الخفيفة وعربات حاملة المدافع برن اقتيدت فى هدوء وبلا عقبات بالتآمر مع الجيش المصرى ، ولو أن البريطانيين عرفوا تلك التطورات من خلال أجهزة مخابراتهم المعروفة بكفاءتها ، لنشأ أخطر موقف فى القاهرة .. وقبل وصول الفيلق الأفريقى الى العلمين بشهرين ، قام البريطانيون بحل البوليس الخاص، ووضعوا الكثيرين من أعضائه الرئيسيين فى الاعتقال ..

ومع أن الأمير عباس حليم لم يكن متورطا فى هذا الأمر بصورة مباشرة ، فقد سجن مرة أخرى فى ذلك الحين ، هو والأمير عمر الفاروق ، آخر سلالة الخلفاء العثمانيين .. وكان الأمير قد ارتكب عملا طائشا عندما ارسل ثوبه العسكرى كياور للقيصر الألمانى الى محل الكواء القريب لكيه ، حتى يتلقاه الجنرال روميل فى الوقت المناسب لدى وصوله الى القاهرة !

١١ ـ عيد الميلاد ورأس السنة فى الأقصر ..

جاء الاعلان ذات مساء فى عام ١٩٤١ لدى عودة والدتى من إحدى زياراتها اليومية تقريبا عصر كل يوم الى قصر القبة ، فقد أعلنت لنا : « اننا مدعوون لقضاء عيد الميلاد ورأس السنة فى الأقصر .. وسيكون ذلك نوعا من التجمع العائلى ، حيث يختلط أعضاء من أسرة الملكة نازلى بأعضاء من أسرة الملكة فريدة ، وإن كان أعضاء أسرة الملك الراحل فؤاد لن يكونوا حاضرين . وقد أثارنى النبأ أنا وشقيقتى دودى بطبيعة الحال . ولسوء الحظ ان المجموعة لن تشمل صديقى توتس ، ولعل السبب هو انه ابن سيدة أصبحت أميرة ، ومن ثم فإنها تنتمى الى فريق آخر ..

غير أن أعضاء الجماعة كانوا متجانسين للغاية ، لأنهم جميعا أصدقاء قدامى .. ففى فريق الملكة نازلى توجد أمى ، وعمتى شهيرة وزوجها حسين صبرى باشا شقيق الملكة نازلى ، وحسنين باشا المهذب ، ووصيفات الملكة الأم ، ومن ناحية فريدة ستكون هناك أمها ، وزينب هانم كبيرة وصيفات الملكة ، وخالها حسين سرى باشا رئيس الوزراء وزوجته ناهد ، وابنتاهما ، وشقيق فريدة الصغير شريف ، وكذلك أحد أبناء عمها اسماعيل مظلوم .

وانطلق بنا القطار الملكى من القاهرة الى الأقصر من محطة قصر القبة ، لنصل عند بزوغ الفجر الى الأقصر ، حيث توجه القطار الى تحويلة جانبية لانتظار استيقاظ الجماعة وتناول الافطار . لقد شهدنا فاروق الآن لأول مرة ،

وكان يرتدى ثيابا ثقيلة ولا يمكن معرفته الا بحجمه وضخامته . كان يذرع رصيف المحطة ، متفقدا الأشياء ، ومتحدثا مع نظار المحطة الحاضرين وزملائهم ، وهى صورة نموذجية للملك الذى كان يشارك صغرى شقيقاته فتحية ، أو « آتى » اهتماما نشيطا بكل شىء فى طريقهما .

وكان قد تم حجز طابق بأكمله من فندق « ونتر بالاس » بالأقصر للمجموعة الملكية ، ومن ثم فإن المؤسسة مضت فى العمل كالمعتاد ، مع مجموعة كاملة من الزائرين والسائحين . ولما كنا فى زمن حرب ، فإن أغلب النزلاء الآخرين كانوا من الضباط البريطانيين وزوجاتهم والدبلوماسيين الذين جاءوا فى أجازة من القاهرة ، وكان هناك أمريكى أو اثنان ، وعالم آثار ، وعلماء مصريات ، وعدد قليل من المصريين من القاهرة والاسكندرية . وكان الجَوّ يسوده استرخاء تام ، فالملك والملكتان يتصرفون وكأنهم سياح ، جاءوا فى عطلة ، وإن كان ذلك لم يمنع معاملتهم وكأنهم معروضات خاصة . وحيثما ذهبوا ، كانت مجموعات كريمة الأصل من الأشخاص تجلس فى الردهة ، أو فى شرفات الفنادق الفسيحة أو فى الحديقة يتابعونهم بعيونهم ، أو يحاولون تجاهلهم خجلا ..

وحجزت قائمة طعام كبرى بالفندق للمجموعة الملكية ، كنا شهودا على الصدام العميق الجذور القائم بين الشخصيتين المتناقضتين للملكة نازلى والملكة فريدة . كانت زوجة الملك الشابة الجميلة مقتنعة بأن الملكة نازلى تتعمد استفزازها ، وإذلالها دون مبرر بمعاملتها وكأنها العضو الأدنى مرتبة فى الفريق الملكى . وكانت تعاملها بعجرفة باستمرار كلما أتيحت مناسبة لذلك . وتأتى نقاط التوتر الشديد دائما فى أوقات تناول الوجبات ، عندما تتجمع المجموعة كلها حول مائدة العشاء ويضطر الجميع بما فيهم الملك والملكة فريدة الى انتظار دخول الملكة الأم ، التى كانت تتقن فن ترتيب مناظر الدخول . ولما كانت لديها الشخصية التى تتمشى مع مثل هذه المظاهرات ، فإنها لم تكن تجد صعوبة فى سرقة المشهد ، مما يجرح مشاعر الملكة الصغيرة .

ولم تكن الملكة فريدة تأخذ ذلك برباطة جأش ، ولكنها كانت تبحث عن ملجأ فيما يمكن أن يسميه المرء بالمرض الدبلوماسى حتى تعتكف فى مخدعها خلال وجبات الطعام رغم انها كانت فيما بين هذه الوجبات تبدو متمتعة بالنشاط والصحة كأى شخص آخر وكمعاملة خاصة ، كان يسمح لنا نحن الصغار بتناول وجباتنا فى مخدع فريدة الذى يقع مباشرة فوق قاعة الطعام التى يجلس فيها الباقون .. كنا نتجمع معا ، بينما تضع الملكة فريدة كشافين فى أعلى درجات السلم لمعرفة اللحظة التى تدخل فيها الملكة نازلى بالضبط الى الطابق الأسفل ، ثم تصدر لنا الأوامر بالدق بأقدامنا على الأرضية ، والرقص وإحداث جلبة فى مظاهرة طفولية ضد الكبار . ولم يكن الأمر يتوقف عند هذا الحد . وخلال اسبوع من زيارات مستمرة للمعابد والقبور ، وعندما نكون مصحوبين

بشخصيات لامعة مثل هوارد كارتر والأب دريوتون ، كان العداء مستمرا بينهما .

ومع ذلك فإن التوتر كان يختفى وراء مظهر خارجى من الأدب التقليدى .. ذلك النوع من النفاق الاجتماعى ، الذى ربما كان آل مديتشى فى فلورنسا وميكيافيللى يمارسونه فى عصور أقل استنارة . ان جو دسائس القصر شىء عالمى . ولما كنت أنا وأختى ننتمى الى أسرة الملكة نازلى ، فقد كان علينا أن نكون حريصين بشأن ما نقوله عن الملكة فريدة ، وينطبق الأمر نفسه على الآخرين . وبدأ موقف يشبه ما كان بين آل مونتاجو وآل كابوليت يظهر . كان شيئا غير مريح ، ويفعل الكثير لتحويل ما كان يمكن أن نعتبره عطلة ساحرة الى شىء يشبه مأساة من عهد النهضة .

لقد كان هوارد كارتر شخصية قوية مليئة بالحيوية ، ولكنه كان « نكديا » مع الناس ، وكان السائحون أبغض شىء اليه ، ومع ذلك فقد كان فى امكان كارتر أن يكون رجلا فاتنا ومثيرا للاهتمام عندما لا يزمجر ويطلق اللعنات على مصلحة آثار الحكومة المصرية ، التى كان بينه وبينها عداء طويل ..

كاد يقول لنا : « اننى أعرف أين دفن الاسكندر الأكبر ، ولكننى لن أخبر أحدا عنه وخاصة مصلحة الآثار وسوف يموت هذا السر معى »

والظاهرُ أن هذا قد حدث فعلا ، فبعد سنوات طويلة توفى هذا العالم الأثرى الممتاز ذو الشهرة العالمية فى هدوء ، واعتقد البعض انه كان هاربا من لعنة الفراعنة ..

فمن الناحية الأخرى كان الأب دريوتون قصير القامة ، بدينا ، يمتلىء نشاطا . وكان يضع طربوشا مائلا فوق ردائه الدينى .. كثير الايماءات السريعة الخفيفة . وكان لرجل الدين الفرنسى بريقا عجيبا ينبعث من عينه ، محبوبا من للجميع باعتباره النقيض لصرامة هوَارد كارتر التى تشبه الحاكم العسكرى . وبفضل وجود الملك فاروق ، أتيح لنا أن نطوف بأنحاء وادى الملوك ، وفى مقبرة توت عنخ آمون بصفة خاصة بصحبة هوارد كارتر نفسه ، وهى مناسبة متميزة لا تنسى .

وكانت جماعتنا بقيادة أعضاء الأسرة الملكة نجلس فى المساء فى القاعة الكبرى من الفندق بجوار النزلاء الآخرين مباشرة . وكانت هناك فرقة موسيقية ورقص فى البرنامج . وجلسنا ننتظر ، ولكن أحدا لم يرقص . وأصبح واضحا أن نزلاء الفندق الآخرين كانوا يخجلون من أن يبدأوا ، متوقعين أن تضرب المجموعة الملكية المثل . وهكذا فإننى فى كل ليلة من اقامتنا كنت أختار أن آخذ واحدة من الأميرات كشريكة وأفتتح المرقص . وكان الأمر بالنسبة لى عملية مخزية ومذلة . ولما كنت أيضا راقصا ميئوسا منه ، فقد لوحظ ذلك وصدرت الأوامر قائلة : « علموا عادل كيف يرقص بطريقة صحيحة » وهكذا فإن جزءا

من العطلة أنفق فى تعليمى بواسطة عدد متتابع من الوصيفات دون أن ينجحن ، على قدر إدراكى ، فى اصلاح خطواتى المتعثرة أو علاج ميل قدمى البغيض لدهس أصابع الأقدام الرقيقة لشريكاتى الملكيات .

ومع مكائد البلاط والتوتر ، ودروس الرقص ، لم تكن الحياة سهلة للغاية بالنسبة لى ولشقيقتى .. ولم ننجح حقا فى الانسجام مع أقارب الملكة فريدة . فهم وقد سيطرت عليهم بلاشك حقيقة أن اختهم أو قريبتهم قد أصبحت ملكة ، كانوا يميلون الى الغرور الشديد ، الذى كان بالنسبة لأناس فى مثل أعمارهم ، يجعلهم واثقين من أنفسهم ، ويظهرون كبرياء مصطنعة لا يمكن تبريرها كما نعتقد . وكانت شقيقتى دودى صديقة مقربة للأميرات ، بينما كانت وجهات نظرهن واهتماماتهن تبتعد كثيرا بطبيعة الحال عن اهتماماتى ونظرتى .

وقد أعطتنى الملكة نازلى كهدية لعيد ميلادى آلة تصوير جديدة متألقة من طراز روليفلكس ، وكانت تتفق تماما مع فكرة أن مطمحى الأعلى فى الحياة هو أن أصبح مصورا صحفيا دوليا مرموقا .. وكانت الأقصر يومئذ هى جنة المصور الفوتوغرافى ، ومع موضوعات بارزة ، مثل تصوير الملك والملكة من الداخل ، فإن التحدى كان يبدو ضخما ، غير أنه قيل لى ان الملك يعترض على التقاط صور له ، ومن ثم فقد فرضت على الرقابة ، وإن كانت لم تمنعنى من الحصول على بعض الصور الجيدة للغاية .

ولكن لا داعى للقول بأن الحدث بأكمله قد غطت عليه مشاجرات الملكتين . وكان الضحية الرئيسى بالتأكيد هو الملك نفسه ، الذى كان واقعا ، بين شكاوى زوجته ، والشخصية الفنتصرة لأمه ـ وكلتاهما امرأة قوية ، كلتاهما جميلتان ، وكلتاهما تتنافسان على كل مستوى من الأنوثة فعلا . ولسوء حظ فريدة خسرت المعركة أمام المرأة الأكبر سنا . ورغم انه كان لديها شبابها ونضارتها الى جانبها ، فإن خصمتها الملكة نازلى كان لديها الخبرة ونضج المرأة الجميلة المسيطرة الأكبر سنا ، ولابد أن الأمر كان هزيمة الى حد كبير للملكة فريدة ، التى كانت تخشى العزلة . فهى تعلم أن العداء موجود حيالها من جانب كثيرين ـ عداء مستتر ومختف بمظاهر التوقير والتملق الذى يقدم بصورة تقليدية للملوك . ولابد أن يكون ذلك قد جعلها تشعر بمزيد من عدم الأمان ..

ورغم أن الملك كان من كل النواحى زوجا شابا مخلصا ، وأبا مبتهجا بالأميرة الصغيرة الجميلة فريال التى تشبه العرائس ، فإنه كان لايزال شابا غير خبير الى حد كبير بمتع وإغراءات جنس النساء بصفة عامة ، وكان هناك فيض متدفق لبعض من أكثر الأمثلة اللذيذة من هذا النوع . وقد ترى أية امرأة أكبر سنا وأكثر حكمة أن قدرا معينا من الخيانة الممكن السيطرة عليها والتسامح حيالها سيكون أحسن صمام أمن لحماية زواجها وتتصرف وفقا لذلك . ولكن فريدة لم تكن مدام بومبادور ، ومن ثم فقد سيطرت عليها الغيرة ونزعة التملك ، وهو آخر

شىء كان ينبغى عليها أن تفعله ..

لقد كانت هناك عدة نساء جميلات فى الفندق ، وكان من المفترض أن لفاروق عينا هائمة متجولة ، وقد قامت فريدة بتعبئة شقيقها الأصغر وأقاربها لكى تظل عيونهم مفتوحة وإبلاغها عن أية مخالفة محتملة فى هذا المجال ، غير أن الملك الذى أزعجته المشادات بين نساء أسرته لم يكن يميل كثيرا للانغماس فى أى شىء ، بل لقد بلغ من ضيقه بهذا الموقف انه كان يرتب لمغادرة المجموعة بحجة أنه يريد القيام بجولة تفقدية لاحدى الواحات النائية من مملكته ..

ولم نره بعد ذلك فى الرحلة ، غير أن هناك أحداثا خطيرة كانت على وشك الحدوث .وسرعان ما كان عليه أن يواجه ما يمكن أن يكون أهم أزمة خلال حكمه : « الانقلاب » البريطانى الذى وقع فى عابدين فى فبراير ١٩٤٢ ، أى بعد شهر ونصف شهر فقط من مهرجانات رأس السنة فى الأقصر !

١٢ ـ حادث عابدين

نصل الآن الى واحد من أروع الحوادث فى العلاقات المصرية ـ البريطانية ، وأعنى به السير مايلز لامبسون ضد قصر عابدين فى فبراير ١٩٤٢ . ولكن لنبحث أولا مكان الحدث ..

كانت الحياة فى القاهرة خلال الحرب قد أصبحت صورة من الوجود الحافل بالتوتر العصبى ، وان كانت الحرب قد أحدثت استرخاء فى العادات الاجتماعية العادية ، وقد أدى ذلك الى تساهل واباحة لم يسبق لهما مثيل فى أسلوب حياة مجموعة من الضباط البريطانيين وزوجاتهم وسكرتيراتهم وغيرهم من أعضاء المؤسسة البريطانية بالقاهرة فى زمن الحرب . وكانت القاهرة على أية حال قد أصبحت مقرا رئيسيا لواحد من المراكز الأساسية الحربية للحلفاء ، وحلقة الاتصالات بين بريطانيا والهند والشرق الأقصى . وفى بدروم مبنى « جراى بيلرز » وهو مجمع شاهق من الشقق الحديثة فى حى قصر الدوبارة الراقى ، أقيم مركز للتليفون والبرق يربط بين هوايت هول فى لندن ، والخطوط الأمامية للجيوش البعيدة حتى بورما . وكان عصر الحرب الالكترونية قد وصل الينا ، وهناك موظفون مدنيون وعسكريون واداريون من كل الأنواع يعيشون فى عمارات الاسكان بالجزيرة والزمالك ، وجاردن سيتى ، وكذلك فى الأحياء المتطرفة من المدينة ..

كان التعايش هو النظام السائد ، وكان من المحتم ان يتبع ذلك اختلاط قوى

بين الجنسين ، وكانت المآسى الجنسية يتم حلها غالبا بواسطة ميدان المعركة القريب الذى كان يزيل الأزواج أو العشاق ببساطة إما بموت فى القتال ، وإما مطالب مهلكة أخرى أقل منه . وكانت النساء اللواتى يتركن وراءهم يعملن أساسا فى وظائف بالجيش أو الخدمات الأخرى التى خلقتها الحرب ، وكن ضحايا سهلة لموقف كانت العلاقات الجنسية خارج الزواج فيه تمثل تخلصا من القلق ، أو عزاء عن الأحزان ، التى كانت تعقب الاعلانات الرسمية عن الوفيات .. كان الرجال يلقون حتفهم فى أماكن غير بعيدة فى الصحارى المحيطة بمصر ، وفى نفس الوقت كانت زوجاتهم يرقصن فى العاصمة المصرية التى تتألق بالأضواء ، وعشاق تلك اللحظة قد يكونون الضباط الأشقاء للأزواج ، الذين كانوا يختطفون بضع ساعات أجازة بعيدا عن ميادين المعارك فى غزالة طبرق أو العلمين ..

كانت المشكلة الانسانية مثيرة للمشاعر وبرزت قواعد جديدة للسلوك العاطفى .. لقد سمعت للتو أن رجلك قد قتل ، فهل ينبغى أن تخرجى للرقص فى هذا المساء أم لا ؟ ان التقاليد تتطلب ألا تفعلى ذلك ، ولكن رفيقك فى الرقص فى المساء قد يموت فى الأسبوع القادم فكيف يمكنك ان تحرميه من لحظات من المتعة ؟ .. وانت نفسك قد تكونين فى حاجة الى العزاء أو النسيان المؤقت . ان الأمر يحتاج الى مستوى معين من الشجاعة الأدبية والبسالة الاجتماعية للقيام بذلك كما فعلت الكثيرات . وفى مثل هذه الحالات الشخصية الصغيرة ، برزت وجهة نظر جديدة كان لها تأثير عميق بعيد المدى على مواقف البريطانيين ، بيد ان هذا موضوع على علماء النفس أو الاجتماع أن يبحثوه . وبقيت الحقيقة القائلة ان الحياة يجب ان تستمر ، وكان الشعار هو ان الأعمال ينبغى ان تمضى كالمعتاد . وفى القاهرة كان هناك أسلوب حياة مكثف بصورة لم يسبق لها مثيل ، ذات مضمون عاطفى للغاية ، إذ كانت المدينة هى أول من يشعر بحصيلة القتلى والجرحى من ميادين القتال الصحراوية بالجبهة الغربية . كما كانت القاهرة أيضا مدينة تعج بالشائعات ، وحمى الجاسوسية ، وتآمر الوطنيين ، وفى مثل هذا الجو كان على الملك فاروق أن يواجه أولى أزماته الكبرى !

ولم يكن صانع حادث عابدين غير السفير البريطانى السير مايلز لامبسون ، الحاكم العسكرى - الأكبر من حجمه الحقيقى - الذى يمثل جورج الخامس ملك انجلترا الهادىء المتواضع ، ولقد قابلت سير مايلز قبل ذلك ، وعرفت انه ليس شخصية خجولة أو عزوفا عن الدعاية . ومع ذلك فقد قبل باستسلام ظاهر تنزيل مرتبته من الوضع الرفيع كمندوب سام وشريك فى حكم مصر مع الملك الراحل فؤاد ، الى مرتبة ممثل معتمد (كسفير) لدى الملك فاروق بن فؤاد .. ومن حاكم فعلى ، فانه قبل النظام الذى صحب خفض مرتبته الى دور الدبلوماسى ، وهى مهنة لم تكن تناسب سير مايلز ذى المزاج السريع الهياج .

وكان ذلك أشبه بأن يطلب من الممثل الشهير سير لورنس أوليفييه بأن يقوم بدور سندريلا لأخت غير ناضجة قبيحة الشكل . إذ أن السير مايلز سرعان ما قام بنوع آخر من أدوار هوليود ، فى سيناريو من أفكار ماك سنيت دون تردد ..

كان فاروق مصدر احباط كبير للسير مايلز ، « فالغلام » كان يفعل دائما الشيء الخطأ ، انه يستفز السفارة ، ويتشاور مع وزراء مصريين غير مناسبين من أعداء بريطانيا ، أو ـ وهو أسوأ الأمور ـ يتصرف وكأنه الملك الحقيقى للبلاد ، ويعامل السفارة البريطانية وكأنها شر كريه لا مفر منه وان كان ينبغى احتماله .. وكانت تعليقات من هذا النوع منسوبة الى لامبسون تتردد باستمرار فى القاهرة . ولكى تزداد الأمور سوءا ، فان فاروق قبل شهور من فبراير ١٩٤٢ كان يشاهد ويتسامر مع جنرالات ومارشالات جو بريطانيين عديدين ، الذين كان يبدو انهم يحبونه شخصيا وليسوا على استعداد لابتلاع كل آراء مايلز الانتقادية له .. وكذلك كان فاروق يفتقر الى موهبة اظهار التوقير « للراجا البريطانى » مثلما يفعل ملوك الشرق الأوسط الآخرين .. وكان ذلك التوقير يتخذ أحيانا أشكالا غريبة ، مثل ارتداء أغطية عجيبة للرقص محلاة بالريش وأزياء مستوحاة مباشرة من النزوات الديماجوجية لفيلد مارشالات العصر الفيكتورى ، الذين كانت أشكالهم بالتأكيد أكثر مهابة من أشكال هؤلاء الملوك العرب الأصغر شأنا الذين يسعون لتقليدهم ..

وقد أدت كراهية السير مايلز لفاروق إلى المضى فى بعض السبل الخيالية العجيبة ، فقد كان يعتقد ان فاروق يتآمر بوضوح ضد الامبراطورية البريطانية ، وانه يأوى جواسيس ايطاليين ، ويدير شبكة مخابرات تزود جيوش هتلر وموسولينى بمعلومات عسكرية حيوية . وان شريكه فى التآمر ، هو مسيو جان بوتزى سفير حكومة فيشى الفرنسية بالقاهرة ، الذى يستخدم السفارة الفرنسية كقاعدة لعمليات المخابرات ، ويقدم هذه الخدمات الثمينة لدول المحور . ومن السهل تصور رد الفعل البريطانى : « انه أمر لايحتمل ! فاروق يجب أن يرحل ! ولكن علينا أن نتخلص أولا من مسيو بوتزى ! . وكان فخامة السير جان واحدا من أكثر الناس تهورا الذين يمكن تصورهم ! كهل فرنسى طويل القامة مهيب المظهر ، وكان رمزا للدبلوماسى الفرنسى ، يتمتع بالسلوك الحسن والصقل الذى لا يمكن لغير أحد المخضرمين بوزارة الخارجية الفرنسية « كى دورسيه » ان تتجمع فيه ، وهو لم يأت بالتأكيد من نفس قالب لامبسون ، ولاشك انه كان يعتبر أن ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا ماسة غير مصقولة !

لم يكن بوتزى ينتمى الى سلالة يحتمل أنها تأثرت بصفة خاصة بالرجل الانجليزى . وكان على أية حال ليس ممن يبغضون الانجليز ، بل ينتمى الى ذلك

الجيل من الفرنسيين الذين كانوا رفاق سلاح مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما كان ضابط اتصال بين الجيشين الفرنسى والبريطانى . ومن ثم فقد كان معاديا للألمان بمرارة ، والقول بأنه كان يخدم دول المحور سخافة تامة . وقد عين سفيرا فى حكومة دلادمييه ، وظل فى منصبه بعد هزيمة فرنسا فى ١٩٤٠ دون أن يحتج أو يستقيل ، لمجرد انه كان دبلوماسيا محترفا ليست له أية طموحات سياسية . والواقع أن الجالية الفرنسية الهامة فى القاهرة كانت منقسمة بين أولئك الذين يؤيدون الحكومة الشرعية للبلاد ، وأولئك الذين أثارتهم واغضبتهم الحرب والهزيمة ، وكانوا يرون ان من واجبهم أو مصلحتهم تأييد الحركة الثورية التى يقوم بها المغتربون ..

ومع ذلك فان وجود قدر معين من كراهية الانجليز أيضا داخل الجالية الفرنسية كان أمرا طبيعيا ، فالدولتان رغم أنهما حليفتان كانتا تتنافسان دائما فى افريقيا . وقبل ذلك بعامين ، قامت البحرية الملكية البريطانية فى ٣ يوليو ١٩٤٠ بشن هجوم غادر ومفاجىء على الأسطول الفرنسى وهو يلقى مراسيه ويقف ساكنا فى ميناء المرسى الكبير تجاه مدينة وهران الجزائرية . وكان الابقاء على وجود فرنسى فى مصر أمرا ضروريا بالنسبة للمصريين وبخاصة الملك فاروق ، فقد قامت فرنسا بدور مميز فى التاريخ المصرى ، ويمكنها أن تحظى بنصيب مشرف فى العمليات التى دفعت مصر الى الأمام ككيان دولى مستقل . كما أنها كانت أيضا تمثل ثقلا مقابلا للانتهاكات البريطانية الزائدة عن الحد للسيادة المصرية ، وصوتا صديقا لمصر فى عصبة الأمم . وقد تولت شخصية عظيمة هى اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء الأسبق الحديث عن اعتراضات مصر على الطلب البريطانى باغلاق السفارة الفرنسية وطرد السفير ، عندما قال أمام البرلمان الوطنى :

« ليس هناك أى بند فى المعاهدة المصرية ـ البريطانية يدعو الى اجراء معين ، نحو دولة ليست فى حرب مع حليفتنا الكبرى . واذا كان وقف العلاقات الدبلوماسية كان مستوحيا من روح المعاهدة ، فان اللحظة التى اختيرت لم تكن مناسبة . والمعلومات التى ترد باستمرار من لندن تشير الى أن حكومة فيشى تقاوم ضغوطا قوية من الألمان ، بل انه يمكن القول بأنها مستمرة فى النضال ضد النازية ، وهو أمر لايتفق مع فكرة ان فرنسا تتعاون مع قوى المحور .. اننا لم نتلق أية معلومات بأن المصريين المقيمين فى فرنسا يتعرضون لاجراءات شديدة أو أى سوء معاملة من جانب السلطات الفرنسية . ولا يجد ممثلنا فى فيشى أية اعاقة من المسئولين الفرنسيين للقيام بواجباته ، وفضلا عن ذلك فإن المفوضية الفرنسية لم تتخذ قط موقف معارضة لمصالح الحليفتين . واخيرا فإن الحكومة المصرية بوقفها للعلاقات مع فرنسا لم تضع فى الاعتبار الوضع المتميز الذى تتمتع به تلك الدولة هنا ، نظرا للخدمات التى قدمتها ، وتواصل تقديمها

لمصر من وجهة النظر الثقافية والمالية والسياسية . وترجع هذه الخدمات الى تلك الفترة البعيدة ، عندما ساعدت فرنسا بقوة مؤسس الاسرة المالكة على انتزاع مصر من السيادة العثمانية ، والحصول على استقلالها الفعال »* ..

وبلغت المسألة برمتها ذروتها خلال غياب الملك فى رحلة الصحراء البارزة التى قام بها للفرار من المشاجرات بين أمه وزوجته . ودعا رئيس الوزراء حسين سرى باشا ، خال الملكة فريدة ، الى اجتماع لمجلس الوزراء تحت ضغط قوى من لامبسون ، ورغم اعتراضات وزرائه ، فقد أقر اقتراحا بسحب الاعتراف الدبلوماسى من حكومة فيشى ، ومثل هذا العمل ضد دولة أجنبية صديقة ، يمس وضع سفير معتمد لدى الملك ، لم يكن ممكنا القيام به بصورة قانونية بدون موافقة ملكية . وكان واضحا ان عمل سرى باشا كان غير صحيح ، والمفترض أنه دبر بواسطة السفير البريطانى مباشرة ..

وكان لابدّ أن يبدى فاروق لدى عودته من جولته الممتدة فى الصحراء اعتراضاته ، فقد غضب لهذا الاجراء التعسفى من مجلس الوزراء ، وشك فى أن يكون وراءه نفوذ السفير البريطانى ، وهى مشاعر شارك فيها مستشارو ووزراء فاروق بالاجماع ، وتبعت ذلك عدة ايام من أزمة حكومية ، انتهت باستقالة حكومة سرى . وقرر السفير الذى اعتبر ذلك بوضوح تحديا مباشرا للسلطة البريطانية ، استخدام الحل المفضل فى مثل تلك الظروف ، وهو قطعة من دبلوماسيته زوارق المدفعية . ومن الممكن رؤية مغزى ودافع لامبسون هنا إذ لو انه سمح لفاروق بالافلات ، فان المركز البريطانى الذى يحرك عرائس السياسة المصرية سوف يصبح مهددا بأن يفقد ماء وجهه بصورة خطيرة ..

لقد وصف هارولد ماكميلان فى يومياته عن الحرب ، لورد كيلرن ، سير مايلز لامبسون سابقا ، بأنه « رجل ذو شخصية جديرة بالاعتبار ، قوى ، لايحفل بالمبادىء مضياف ، وقد خدم مصالحنا فى مصر جيدا ، وكان يجعل الحكومة تقف ضد الملك ، والملك ضد الحكومة بطريقة مرضية للغاية » ورجل مثل كيلرن لم يكن ليقف ساكنا أمام تحدى فاروق .. كانت القاهرة على وشك ان تشهد واحدا من أضخم أمثلة ردود الفعل المبالغ فيها التى نظمت منذ أيام الملكة فيكتوريا ، وأعنى بذلك تجريدة عقابية ، بالأسلوب الحاسم ، بروح نابيير ، وماجدالا ، وروبرتس فى قندهار ، وغيرها من المناسبات المجيدة الأخرى التى حفل بها حكم فيكتوريا العظمى ..

المشهد فى صباح ٤ فبراير ١٩٤٢ فى القاهرة ، اكبر مركز حربى بريطانى خارج بريطانيا ذاتها ، فى زمن حرب كلية مع المحور ، وهناك أكثر من مليون جندى بريطانى فى مصر ، وحوالى ٣٠ مطارا حربيا وأماكن للهبوط تحيط

* انظر جان لوجول « مصر فى الحرب العالمية الثانية » دار نشر SOP القاهرة ص ٣٠٦ ونقلتها ايضا صحيفة لابورص اجشيبشين فى ٨ يناير ١٩٤٢ .

بالقاهرة ، يديرها السلاح الجوى الملكى .. تلك هى قواعد لمئات الطائرات .. قاذفات ومقاتلات وطائرات استطلاع . وموانى مصر مقر لأرمادا ضخمة من السفن الحربية التى تضم قلاعا عائمة مثل البوارج المدرعة : سفن صاحب الجلالة « كوين اليزابيث » و « بارهام » و « فاليانت » و « رويال سوفرين » وكثيرات وغيرها . كانت هناك سفن كافية حقا لخوض معركة جوتلاند مرة أخرى . ولم يسبق قط فى التاريخ أن أتيحت مثل هذه العضلات العسكرية الكثيرة ، لاخضاع هدف متواضع جدا ، مثل قصر ملكى لا يدافع عنه أحد ، وملك ينتظر فى مكتبه بهدوء لاستقبال ممثلى كل هذه القوة !

ومع ذلك ، فان السير مايلز لامبسون كان يشعر كما يبدو انه فى حاجة الى حراسة أكثر من لواء من الرجال ، تساندهم الدبابات والمدافع لتطويق ميدان عابدين . ويبدو أن نقص المساحة هو الذى منع فقط حشدا أكبر من ذلك ولو كان ميدان عابدين أكبر الى حد كاف ، لنقل اليه سير مايلز قوة من مائة ألف رجل أو أكثر ، مع المدافع والدبابات ، وعلى أية حال ، فان كل ذلك كان من الممكن الحصول عليه بسرعة من الامدادات الوفيرة التى فى متناول اليد فورا . ودخل السفير البريطانى ، الذى ربما كان يرتعش فى داخله من الأبواب المفتوحة على مصراعيها لقصر عابدين . والقى بالعادات الدبلوماسية المتحضرة فى الهواء ، ليزيح جانبا اثنين من الأمناء تقدما نحوه لاستقباله بأدب وتقدم الى مكتب الملك ، واندفع داخلا لكى يستقبله ملك يبتسم متسائلا : « ماهى المسألة ياسير مايلز ؟ هل تخاف شيئا ؟ لا تقلق ، فأنت هنا فى أمان تام ! »

وتبع ذلك تبادل موجز للكلمات ، تضمنت حديثا متعقلا تماما من الملك ، مضمونه انه لما كانت القوة فى جانب بريطانيا ، فانه لن يكون من الحماقة بحيث يتخذ موقفا أو يمنع البريطانيين من أن ينقضوا مرة أخرى أحكام معاهدة ١٩٣٦ ، التى يعد احترام السيادة المصرية ضمانها الأساسى ..

وكان رد الملك على هذه المظاهرة هو : « انت تريد النحاس ؟ خذه ! . »

هذه الحكاية عن حادث عابدين مؤسسة على شرح فاروق الشخصى للحدث ، كما أبلغنى اياه فى وقت تال .. وأضاف فاروق قائلا :

« كنت أعرف تماما ، انه لما كان لامبسون مشهورا بالحمق ، فإنه سيبحث عن ذريعة لابعادى ، ولو أننى أظهرت أى نوع من المقاومة كنت قد حققت هدفه . ومن ثم أصدرت أوامر صارمة للواء حرسى بالبقاء فى ثكناتهم ، التى كانت تقع عبر ميدان عابدين . وصدرت أوامر للحرس الذين يغطون مداخل القصر مباشرة بأن يتصرفوا بطريقة عادية ويستقبلوا السفير بالمجاملة المعهودة . واعطيت تعليمات للأمناء بأن يفعلوا ما يفعلونه دائما عندما يأتى سفير صديق للزيارة . والحادث الوحيد الذى وقع كان عندما عجز اللواء النجومى ياورى السودانى عن ضبط نفسه عند رؤية المسدسات المصرية من

جانب البريطانيين ، فسحب مسدسه الخاص ، وعندئذ أطلق كولونيل بريطانى من أنصار اللجوء للقوة النار على يده قبل أن يتمكن من استخدامه .

وهكذا انتهت المهزلة السخيفة غير الكريمة لاقتحام قصر عابدين فى فبراير ١٩٤٢ وكانت هناك حاجة لحماية هيبة السفير ، ومن ورائها هيبة بريطانيا ، وسرعان ما تولت دار السفير تغطية التفاصيل . غير أن الوقت قد مضى ، وحتى اليوم يبدو أنه ليست هناك أية رواية محددة عن هذا الحدث المثير للسخرية . وهناك حقيقة ثابتة تماما ، وهى انه لم يكن كل البريطانيين يتفقون مع السفير ، ولم يكن أقلهم شأنا الجنرال ستون قائد القوات فى القاهرة ، الذى رفض الاشتراك فى المهزلة ، وعارضها بقوة ولم يقبل اشتراك قواته إلا بعد أن طلب السفير أمرا مباشرا له من لندن ..

(ومصدر موقف الجنرال ستون المذكور هنا ، هو سرد شخصى خاص قدمه للسيدة ف . ذو الفقار التى كانت صديقة مقربة له) . وقد وضع ستون على الرف بعد ذلك بوقت قصير بأمر تشرشل رئيس الوزراء البريطانى ، واضطر للبقاء بعيدا عن الحرب فى وظائف غير مجزية وهى خسارة لجنرال ممتاز !

ان المراقب غير المتحيز ، قد يعتبر أن الملك فاروق قد خرج من هذه المقابلة وهو على القمة . والحقيقى أنه أهمل مؤقتا كملك حاكم ، بينما منحت حكومة النحاس الحكم عن طريق السلطة البريطانية . ومع ذلك فقد أحبطت خطط السفير البريطانى فى النهاية ، وخلال سنوات قلائل استطاع فاروق أن يسترد قوته ..

ان القول بأننا اصابنا الهلع من الاجراء البريطانى ضد فاروق سيكون قولا أقل من الحقيقة ، فقد كانت سياسة الملك فيما يتعلق بالحرب والمعاهدات مع بريطانيا تقرها أغلبية المصريين ، واحترمت مصر معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا واطاعت شروطها بدقة ، وهى لم تكن تحوى أى التزام باعلان الحرب ..

اما النزاع حول وضع سفير حكومة فيشى الفرنسية فى وقت ما ، فإنه عندما برز الجنرال ديجول بشق الأنفس ولم يكن حلفاء الغرب قد اعترفوا به بالتأكيد ، فانه اعتبر الحادث مسألة تافهة تماما . لقد كان ذلك حادثا بالغ فيه السفير البريطانى بصورة ضخمة وهو يبحث عن حجة للتخلص من « الغلام » المكروه . وتلك حقيقة برزت بوضوح تام عندما نشرت « يوميات كيلرن » فى ١٩٧٢ . وقد أخطأ حسين سرى باشا رئيس الوزراء وخال الملكة فريدة خطأ فادحا فقد كان ينبغى ألا يستسلم للمطالب البريطانية إذ خلق « أمرا واقعا » وضع السفير والملك فى مواجهة مباشرة ، وسط مناخ سياسى مشحون بالتوتر الى حد كبير ..

وفى نفس اللحظة التى وقع فيها حادث عابدين ، كان رومل الذى اضطر قبل ذلك الى التراجع الى خط غزالة ـ غرب بنغازى ـ تحت وطأة هجوم « الحملة الصليبية » للجنرال البريطانى أوكينليك ، قد شن هجوما مضادا وبدأ الزحف

الكبير الذى بلغ العلمين ، على مسافة مائة ميل من الاسكندرية بعد بضعة أسابيع . وسقطت بنغازى فى أيدى الألمان فى ٢٩ يناير ١٩٤٢ ، قبل حادث عابدين بإسبوع ، ووجد الجيش البريطانى نفسه يتقهقر بصورة كاملة نحو النيل . وتحطم هجوم « الحملة الصليبية » وأصبح الخطر واضحا فى القاهرة . ولم يتحمل البريطانيون أن يفقدوا ماء وجههم ، وهكذا يمكن تفسير استعراض القوة ، المثير للسخرية فى ضوء الموقف العسكرى البريطانى المتدهور .

فى وقت الحادث كنت فى نوبة ليلية كرقيب حكومى على إحدى الصحف . وكنا فى الواقع ننفذ أحكام معاهدة ١٩٣٦ ، ونسيطر باجتهاد على صحافة ، عنيدة الى حد ما لمصلحة حلفائنا البريطانيين ، وكانت مراقبة الصحف المصرية فى ذلك الحين عملية انجلو ـ مصرية تخضع لسلطة وزارة الداخلية المصرية ، وكان رؤسائى المباشرون هم حسن بك يوسف ، وهو دبلوماسى سرعان ما أصبح باشا بعد ذلك ورئيسا للديوان الملكى ، ونائبه وهو انجليزى لطيف واسع المعرفة هو البروفيسور روبيه فيرنس . وكان فيرنس الذى عمل مؤخرا سكرتيرا شرقيا بالسفارة رجلا ذا مكانة أدبية كبيرة ، كما كان أيضا دارسا للغة اليونانية له بعض الشهرة وترجم الى اللغة الانجليزية أشعار الشاعر اليونانى كافافى التى كانت تقرأ وتحظى بالتقدير على نطاق واسع .

كان فيرنس طويل القامة يبدو عبوسا ورزينا نوعا ما ، ونادرا ما كان يرد على الأسئلة بسرعة بل يستغرق وقتا كبيرا للتفكير فى ردوده ، وعندما تأتى فإنها تكون فى الصميم ، وتكشف عن سمة من سرعة البديهة الجافة والمرحة ، وكان وفيا تماما لموظفيه ، وكثيرا ما وجد نفسه يدافع عنهم فى وجه المذكرات الغاضبة من السفارة البريطانية . وكانت هناك مناسبة أحسست فيها بالامتنان لهذه الخاصية . فقد تعرضت لغضب مساعدة كاتب افتتاحيات صحفية الاجبشيان جازيت ، وكانت سيدة أمريكية تدعى مورلى بروك .. كانت زوجة غير سعيدة لأحد المصريين ، ونتيجة لذلك ، فقد اتجهت فى عمودها اليومى الى أن تكون أقل دبلوماسية فيما يتعلق بالملك وبلده . وكان من واجبى كرقيب أن أحذف أكثر الهجمات العنيفة فى كتاباتها ، وهو ما أثار احتجاجات غاضبة منها ، حيث كانت تصيح قائلة : « هذا الرقيب المصرى الشنيع ، عاد يتدخل مرة أخرى ! » ويتبع ذلك شكوى غاضبة الى رئيس التحرير جيفرى هور ، الذى كانت تنهره السيدة دون شك ، فيرسل على عجل شكوى للسفارة البريطانية ، التى تحيل الشكوى الى فيرنس ، وعندئذ استدعى أنا الى مكتب البروفيسور لشرح موقفى .. وكانت طريقته هادئة وناعمة ..

كان يقول لى بعد سكوت طويل : « عادل .. لقد بعثت لى السفارة خطابا .. هل تستطيع قراءته وإبداء وجهة نظرك لى ؟ »

ولا حاجة للقول بأنه كان يستمع الى وجهة نظرى بموضوعية تامة

وإنصاف .. وكان على مورلى بروك المسكينة أن تستمر فى الخضوع لتدخلات الرقيب ! المذلة ، التى لا يجدر ذكرها .

كانت أمسية ٤ فبراير ، فيما يتعلق بنا حتى الآن ، قد بدأت هادئة تشوبها تيارات خفية من التوتر العصبى ، وكنا نحن فى الصحافة ندرك أن هناك أزمة ما فى الجو ، إذ كانت تحركات القدوم والذهاب بين القصر والسفارة فى قصر الدوبارة أمرا ملحوظا ، ولكن قليل من الشخصيات السياسية هى التى كانت تعرف بالضبط ماذا وراء ذلك كله ، ومن ثم فقد شعرنا بصدمة عندما بدأت الأنباء تأتى عن نشاط عسكرى بريطانى غير عادى فى المنطقة المجاورة مباشرة لقصر الملك ، وسرعان ما انتشرت الشائعات ، وكان أول ما طرأ على أذهان الناس أن الملك قد خلع . وأنه وقعت مناوشات دموية عند أسفل الدرجات المؤدية الى مكتب الملك ، وقتل بعض الأمناء والياوران ، وأصيب لامبسون نفسه فى يده ، واحترقت دبابة بريطانية فى ميدان عابدين وحوصر الحرس الملكى الخاص فى ثكناته ، وما الى ذلك من الشائعات .

كانت المشكلات التى تواجهنا باعتبارنا مراقبين ليليين للصحف هى أولا أن نعرف بالضبط ماذا حدث ، وثانيا ما هى الأخبار التى يمكن إبلاغها للصحف . وكانت الأسئلة الموجهة، تليفونيا الى رئيس الرقابة حسن يوسف بك يرد عليها بإيجاز وبدون أية تفاصيل : أجل كانت هناك أزمة ، ولكنها انتهت الآن تماما ..

وسألنا : « ما هى التعليمات لنا ياحسن بك ؟ »

وقال حسن بك : « اننى آسف ، فلم أعد رئيسا للرقابة ، ولا يمكننى أن أعطيكم تعليمات . عليكم فقط أن تعتمدوا على أنفسكم » .

- ولم نستطع الوصول الى البروفيسور فيرنس ، وقد أحسسنا انه تصرف لبق منه حيث كان من الواضح أنه ليس من المعجبين بالسير مايلز ، ومن ثم فقد كان علينا نحن الرقباء أن نقرر بأنفسنا ما ينبغى عمله .

ومن حسن الحظ أن كثيرين من زملائى كانوا صحفيين بارزين دفعتهم وزارة الداخلية الى الخدمة عند اندلاع الحرب ، وكان من بينهم وطنى متحمس هو عبدالحليم الغمراوى الذى أقسم أن يستمر فى ارتداء حلة الحداد السوداء ما بقى الاحتلال البريطانى ، ومعه توفيق صليب ، وهو صحفى قبطى شهير من صحيفة « الأهرام » . وكان المسئول عنا بالوزارة هو عباس راجى ، وهو من الموالين المزمنين للبريطانيين وكان سكرتيرا للاتحاد الانجليزى ـ المصرى . كذلك كان هناك رقيب آخر هو ماركوبك وهو يونانى كان يبدو وكأنه فيلد مارشال متقاعد ، له شارب ذو أطراف حادة مثبتة بالشمع . وهو شقيق أحد لواءات البوليس بالقاهرة فى عهد الخديو ، وكان يبدو انه يعامل كل أعضاء الصحافة اليونانية فى القاهرة كما يعامل الكثيرين المشتبه فيهم بأنهم من مهربى المخدرات .. أما أكثر الرقباء غموضا ، فكان شخصا يدعى أوهانسيان ، الذى

يبدو انه كان ضائعا وسط السياسات الأرمنية المضطربة ، والتى أدت الى معارك ابدية، بين رئيس تحرير صحيفتين أرمنيتين متحاربتين فى القاهرة ، وهما شخصيتان نشطتان ولكنهما كانا فى مواجهة دائمة .

كنت أصغر المجموعة سنا ، ولكن بحكم أن الصحيفتين اللتين أراقبهما هما الاجيشبيان جازيت » .. وهى الصحيفة غير الرسمية الناطقة بلسان الجالية البريطانية ، ومن ثم يطالعها كل الانجليز الذين يحترمون أنفسهم .. من الجنرال أوكينليك حتى أدنى المتعلمين بين الرتب الأخرى ، وصحيفة « لابورص اجيبسيين » التى تصدر بالفرنسية والموالية لديجول ، كان على أن أكون حذرا . ومن حسن الحظ انه كان هناك توافق فى الرأى بين زملائى الرقباء ، على أن نعالج الأمور بحذر وبدون ضجة ، وكنا ننتظر صدور بعض البيانات الرسمية قبل أن نسمح بمرور أى شىء ، وقد كنا على وعى بالحالة المعنوية للبريطانيين ، وليست لدينا رغبة لدفعهم الى اعلان الأحكام العرفية التى يمكن أن تحدث لو أن الصحف نقلت القصة للجمهور السريع الهياج ، ذى الشعور الوطنى المتحمس للغاية . وكنا نود بطبيعة الحال أن نعلن الاعتداء الفاضح من أسطح المنازل ، ولكن النصيحة الأكثر حكمة هى التى سادت .

وعلى أية حال فإنه فى اليوم التالى أعلن أن الملك عين النحاس باشا رئيسا جديدا للوزراء ، وجلب ذلك النبأ معه مظاهرات الولاء المنظمة المعهودة فى الشوارع . وقد وقع حادث ذو مغزى ، عندما بدأت المظاهرات المنظمة بحكم العادة مسيرتها من ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) وهى تهتف « يسقط الوفد ! » مما أثار فزع زعماء الهتافة ، الذين كان من الممكن سماعهم يصيحون : « كلا .. كلا يحيا الوفد » وتبعت ذلك قطعة نموذجية من المرونة السياسية المصرية المستمدة بلاشك من روح السخرية وعدم الثقة الراسخ الجذور بكل الحكومات .. ولم يتطلب الأمر غير بضع مئات الأقدام قطعتها المسيرة فى الشارع لكى تتغير الكلمات ، وعندما مرت المظاهرة بنادى محمد على (التحرير الآن) الذى يقع على مسافة مائة متر من الطريق ، كانت الجموع تصيح فى طاعة تامة : « يعيش النحاس .. يحيا الوفد ! »

وهكذا مرت واحدة من أخطر اللحظات فى العلاقات المصرية ـ الانجليزية .. وفى هذا الوقت الذى شهد أزمة يونيو ١٩٤٢ .. كان روميل فى طريق الوصول للعلمين . وكان البريطانيون قد بدأوا فى تشديد نظام أمنهم بما يتفق وخطورة الموقف . وقد وقعت حادثتان . يبدو انهما جديرتان بالتذكر هنا ، الأولى شخصية ، فقد جاءنى صديقى المقرب توتس بعد أزمة عابدين بوقت قصير وقال :

« لدى رسالة خاصة لك من أبى . لقد وقع عليك الاختيار كواحد من قوات الصاعقة للحركة الجديدة التى بدأ تشكيلها باسم « النظام الجديد » . وسوف

تصرف لك الملابس الرسمية والأسلحة ، وستعين فى وظيفة هامة ، لا أستطيع أن أذكرها لك بالضبط ، ولكن سيكون عليك على الارجح أن تقتل أحد الوزراء الوفديين . انه بطبيعة الحال شرف عظيم ، ولن تستطيع أن ترفض ، إذ سيكون عليك عندئذ أن تواجه عواقب فاجعة .. إننا نفعل ذلك من أجل فاروق ، ومن واجبك أن تطيع » ..

ومن رحمة الله انه فى اليوم التالى لذلك ، اعتقل عباس حليم واحتجز فى معتقل بواسطة البريطانيين ، ولولا ذلك من يدرى ماذا كان يمكن أن يحدث ؟ لقد كنا مجموعة جامحة شديدة الخطورة من الشباب الذين كان يحتمل أن يختاروا مثل هذا الطريق الخاص الى المجد .. وعلى أية حال فإنك لن تموت غير مرة واحدة !

وكان هناك مرشح آخر فى القائمة البريطانية للمعتقلين هو عبدالرحمن عزام باشا الذى اكتسب شكوك وكراهية لامبسون ، أساسا لأنه كان وطنيا متحمسا وصديقا لعلى ماهر ، وقد اقترع فى البرلمان ضد اعلان مصر للحرب ضد دول المحور . وقد نتج عن ذلك وضع اسم عزام فى قائمة المتعاطفين مع المحور الذين سوف يعتقلون بواسطة السلطات العسكرية البريطانية فى حالة الطوارىء .. ومن الأشياء التى لم يكن يعرفها السفير .. أن عزام كان فى قائمة الموت التى أعدها موسولينى بسبب اشتراكه مع المقاومة الليبية ضد ايطاليا قبل عدة سنوات ، ومن ثم فقد اتصل بالجنرال ميتلاند ويلسون الذى كان صديقا له لفترة ما ، وسأله عما اذا كان فى استطاعته الاعتماد على حماية الجيش البريطانى فى حالة زحف الايطاليين الى مصر . وقد أعطاه ويلسون تأكيدا بأنه سوف يتم اجلاؤه فى الوقت المناسب ولا داعى لقلقه . وهكذا فإنه عندما تصفح ويلسون قائمة السفارة دهش لرؤية اسم عزام باشا بصفته متعاطفا مع المحور ، ومن ثم فقد أبلغ السفير بجفاء انه لن يستطيع اعتقال عزام لأن ذلك سوف يتدخل فى الترتيبات الجاهزة فعلا لاجلائه وحمايته من دول المحور ، وقصة هذا الحادث التى أبلغنى عزام باشا بها شخصيا ، هى نموذج للطريقة المتسرعة التى كان قسم من الأمن البريطانى يمارس بها عمله ، فى وقت كانت فيه الكراهية الشخصية كثيرا ما تكون دافعة لاتخاذ اجراءات رسمية .

كانت المشاعر الملتهبة ضد البريطانيين قد سادت القاهرة بعض الوقت عقب حادث عابدين . وكان أكثر من تأثروا بذلك ، أولئك المصريين الذين كانوا يتمتعون بعلاقات اجتماعية وثيقة مع معارف من البريطانيين ، وقد حدث الكثير من إلغاء الصداقات . وكان أكثر الأشياء المؤسفة ان السمعة البريطانية عن العدل أصيبت الى حد لا يمكن تقديره ، وأثارت انتقادات لتصرفات انجليزية تطلب تبديدها سنوات كثيرة . ولعل لامبسون نفسه كان عليه أن يدفع ثمن أخطائه ، فقد رفض ترشيحه ليصبح نائبا للملك فى الهند ، وبرز فاروق فى النهاية كحاكم لمصر بدون أى تحد ..

الجزء الثانى
الفجوة الايرانية

١٣ ـ تحالف الأسر الحاكمة

كان جيم سفير ايران رجلا وقورا ، قصيرا ومرحا ، وكان صديقا لأبى محمود ثابت باشا مدير البروتوكول بوزارة الخارجية فى ذلك الحين ، وكانت هذه الوظيفة تشبه عمل « الساحرة مارى بوبينز » ، فقد كانت ادارة البروتوكول هى القسم الأساسى بالوزارة التى يجلب لها الدبلوماسيون مشكلاتهم .. ابنة السفير تريد ترخيصا لقيادة السيارة ، ولابد من إدارة البروتوكول ، المبعوث البابوى أجلس فى مكان خطأ فى مأدبة عشاء اللاما العظيم : اتصل بإدارة البروتوكول . ترجمة معاهدة الصداقة الأبدية مع روريتانيا ناقصة : احتج لدى ادارة البروتوكول .

وعندما عاد السفير الايرانى فى فبراير ١٩٣٩ ، أعلن وصوله فى مكتب أبى ، وكان أبى وموظفوه يعالجون بعض أنواع الأزمات ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . لقد جاء السيد جيم لجس نبض أبى عما اذا كان ابن الشاهنشاه العظيم رضا بهلوى ممكن أن يقبل كطالب للزواج من شقيقة الملك فاروق الكبرى ، الأميرة فوزية . وقدم الطلب كما ينبغى الى فاروق ، الذى كان رده المتميز : « انهم من المسلمين الشيعة » .

وعندما أبلغه مستشاروه أن ذلك ليس عقبة خطيرة للزواج ، قال الملك : « ان ايران بعيدة جدا .. فهل ستكون فوزية سعيدة هناك ؟ »

كان يبدو بوضوح أن جلالته غير متحمس للفكرة ، ولكنه أعطى رده أخيرا قائلا : « الأمر متروك لفوزية لتقرر بنفسها ، وسوف أوافق على قرارها » ..

كانت فوزية فى تلك الأيام سجينة فعلا فى عوامة أمها على النيل ، نادرا ما تخرج ، وعندما تفعل ذلك كانت تحيط بها الوصيفات والخدم . فى وقت كانت الفتيات الصغيرات الأخريات يتمتعن بحرية نسبية ، كانت فوزية بحكم مركزها تعيش فى حصار ، ولابد أن الزواج قد بدا أشبه بهروب سعيد ، ومغامرة مثيرة مع ولى عهد ايران ، وهو شاب أكبر منها قليلا ، ولم تكن تدرى أن هذا الشاب شهبور محمد رضا بهلوى كان غارقا فى حب فتاة ايرانية جميلة ، وأن خطبته الى شقيقة ملك مصر قد فرضت عليه من أبيه ، وهكذا كان ردها « نعم » على طلب الزواج .

وبعث جيم ـ الذى استبد به السرور ـ البشائر السعيدة الى طهران ، وسرعان ما أعلن الطلب ، وكان شهبور فى طريقه الى القاهرة فى ١٥ مارس ١٩٣٩ . كان شابا نحيلا ، نحيف القوام ، له وجه طويل جاد ، وما يبدو انه ميل فطرى لكى يقطب جبينه لكل شيء . كان يرتدى بزة عسكرية ذات رقبة عالية ، لونها خاكى بغيض نوعا ، ويتوج الرأس بقلنسوة على الطراز البلقانى .. كان من الممكن أن يكون ضابطا بمدرسة جورجى ديمترى للفروسية . وقيل لنا ان الأمراء الايرانيين لديهم تعليمات بأن يقطبوا فى وجه الجميع باستثناء أندادهم ، ولم يستمر ذلك بطبيعة الحال طويلا مع البلاط المصرى الذى يعيش فى حرية الى حد ما . وكانت الملكتان ، والملك فاروق لا يلتزمون بالرسميات فى سلوكهم ، وكان كل منهم يتمتع بروح قوية ، كانت تجد عند فاروق تعبيرا من خلال نوبات من الضحك . وكانت الأسرة المالكة ديموقراطية أساسا ولا تتصنع أية مظاهر تكلف مع رعاياها . وكان الملك بصفة خاصة يعرض ميله للمزاح على الجميع ، من سائسى القصر والسائقين ، الى وزرائه وكبار شخصيات المملكة .

وتبعت ذلك مآدب عديدة رائعة ، وتجمعات فى الحدائق ، حيث كانت الأميرات والقصر يتنافسون للاحتفال بالخطوبة .. كانت القاهرة تعد بيئة رائعة لمأدبة حديقة هائلة ، وكانت مروج وأحواض الزهور فى قصر القبة مضاءة بآلاف الأضواء متعددة الألوان ، بينما تطوف حشود من ذوى الأزياء الرسمية فى أنحاء الحدائق المزدهرة . وخلال الحشد الكبير المرتبك من الشخصيات المصرية العظيمة المتعددة الألوان ، التى تتحلى بالأوسمة والمجوهرات وأربطة الرأس المرصعة بالجواهر وغيرهم من الدبلوماسيين والوزراء ، والجنود وزوجاتهم ، راح شهبور الشاب يتجول متصلب العنق ، يحرسه الأمناء والياوران ، موزعا تقطيبات صامتة ، ربما كانت تعبيرا عن ابتسامات مكبوتة بشدة ، على مئات الوجوه المرحبة للقاهرة بأكملها .. كانت فوزية تبدو عذراء جميلة ، مندهشة قليلا من هذا الهرج والمرج الذى لم تكن معتادة عليه ، أما الملكة نازلى التى ارتدت ثوبا أبيض رائعا ، وقد توجت رأسها بعصابة محلاة بالماس وصحبتها

سحابة من وصيفات يرتدين ثيابا مماثلة ، فكانت تطفو بأناقة وسط بحر الضيوف وكأنها طيف رشيق جميل قل ان يتحقق للملكات الحقيقيات ، وإن كان موجودا غالبا فى القصص الخيالية .

وقد أضافت الأميرات الصغيرات اللواتى كن يسرن فى أعقاب أمهن لمسة من جمال عذرى طاهر الى هذا المشهد . وكانت « آتى » فقط ، والتى تنطلق بحماسة كالمعتاد بطاقة زائدة ، تندفع فى كل مكان تجمع العملات الذهبية الصغيرة التى لا تحصى ، التى كانت تنهال على الحاضرين ، وهى عادة قديمة وفاتنة تماما فى حفلات الزفاف فى الأوساط التى يمكنها تحمل تكاليفها .

كان هناك ضيوف بارزون معينون يمكن رؤيتهم وسط الزحام .. أولئك الذين يحملون معهم جوا من المشاركة فى السلطة ، لأنهم حكام عسكريون ومسيطرون ، وكان زعيمهم بلاشك ، هو السيرمايلز لامبسون الضخم الشاهق الارتفاع ، سفير صاحب الجلالة البريطانية لدى فاروق ، وفى عيون بعض الناس الحاكم الفعلى للبلاد ، وكانت ليدى لامبسون ، التى تجتذب الابصار ذات الجمال الانجليزى ـ الايطالى الجذاب للغاية ، زوجة مناسبة للحاكم العسكرى ، والتى كانت تستطيع فى لحظات كهذه أن تكون روح البهجة والود . ومع ذلك فقد كان المرء يحس بقيد معين ، إذ أن التقاليد الاسلامية تمنع تقديم أية مشروبات ، فيما عدا تشكيلة من الشربات المعتاد الذى يحوى قدرا كبيرا من السكر والمشروبات المنعشة . وكان السفير البريطانى قد عزز نفسه ببضعة كئوس من الويسكى قبل أن يغادر السفارة ولم تكن لديه أية نية ـ الا اذا اضطر الى ذلك ـ لاطالة فترة امتناعه عن تناول الخمر .

وكانت هناك شخصية أخرى ارتدت كل شعارات ايطاليا الفاشية الملكية ، هو الكونت ماتزولينى السفير الايطالى ، وهو دبلوماسى أوربى متألق من مدرسة شيانو . كان رجلا دمثا ، يبدو عليه مظهر المنتصر ، فقد كانت تلك هى أيام موسولينى العظيمة ، عندما كانت السفن البحرية الايطالية تنطلق مسرعة فى أنحاء البحر المتوسط فى خطوطها الرمادية الرشيقة ، كلاب الصيد البحرية من ترسانات تريستا التى بنت سفن الركاب المهيبة لشركة لويد تريستينو (وكانت السفينة ركس قد فازت مؤخرا بجائزة الشريط الأزرق لأسرع عبور للمحيط الأطلنطى الى نيويورك ، وهى جائزة كانت تحتكرها شركة كونارد البريطانية فى وقت ما) .

وهكذا كان فى استطاعة ماتزولينى أن يهندم نفسه فى هذا المجد الذى يحيط به ، فخورا بأنه يمثل بعث قوة الامبراطورية الرومانية فى العصر الحديث . وهنا أيضا كان السفير الألمانى أوفى فاخندورف ـ الذى سرعان ما تمت تصفيته بطريقة غامضة بواسطة الجستابو ـ يرتدى سترة من الفراك التى تزرى بأناقة أوربا الوسطى .

وإلى جانب هؤلاء الأوربيين ، كان الوزراء المصريون يبدون أكثر حدة فى الذكاء ، رغم انهم كانوا بصفة عامة أصغر قواما ، وأقل تأثيرا فى النفوس من الناحية الجسمانية . لقد كان على ماهر ، ومحمد محمود ، والنحاس باشا وأقرانهم لا يتمتعون بالوسامة ، ولكنهم كانوا يؤثرون فعلا بنوع آخر من العروض . كان مزيجهم من التحفز الظاهر ، والبصيرة الحذرة ، وعقولهم التى يمكنها غالبا أن تلحق بالأوربيين وتسبقهم بكثير أو الأنجلوساكسون الأبطأ فهما ، كانوا ذلك النوع من الأشخاص الذين امتطوا الدبلوماسية البريطانية الاستعمارية ذات النظرية التى تزعم أن المصريين كانوا مخادعين وشاذين ، وأن الطريقة الوحيدة للتعامل معهم هى تجنب المجادلات وترك دبلوماسية زوارق المدفعية تحسم الأمر ..

كان السياسيون المصريون على درجة عالية من التعليم ، وكانوا غالبا من الطلبة الأذكياء ، لا فى جامعة القاهرة فحسب بل وأيضا فى الكليات الفرنسية والبريطانية . ومن الناحية العقلية كانوا أندادا للبيروقراطيين الدبلوماسيين ، الذين كانوا فى أغلب الأحوال الأيدى الثقافية العاملة للسفارات الأجنبية فى الدول الافريقية . فقد نشأوا وسط الاصطدام المستمر للمصريين مع بريطانيا ، وكانوا من قدامى المناضلين فى ثورة ١٩١٩ التى انتهت بانتصار لمصر ، اذا جاز وصف الاستقلال والدستور بهذه الطريقة ، وهكذا فانه وراء الزخرفة ، والبهرجة البراقة والأضواء الملونة ، كان هناك نوع من المواجهة المستترة التى تخللت خطوط العلاقات الودية الحقيقية بين الطرفين ، ولكنها مع ذلك تخفى مواقف متفجرة ، ونتائج ساطعة محتملة .

ولقد أثار زواج ابن الشاه من أخت فاروق ملك مصر بطبيعة الحال تعليقات واستفز تخيلات تشوبها الشكوك فى أذهان الضباط والسياسيين العسكريين البريطانيين ، والغرف الجانبية الدبلوماسية ، فقد كان الشاه الكبير معروفا بموالاته لألمانيا ، وانه تبنى كل أشكال الطرق الألمانية . فقد كانت هناك مبان عديدة فى طهران تحمل لمسة هتلرية وتأثير البرت شبير ، وكانت وزارة سلاح الطيران التى كان يرأسها جورنج ، مبنى ضخم فخم أثار عند بنائه خيالات زعماء النازى ، ويبدو انها كانت النمط الذى اختاره الشاه لنادى الضباط المهيب بصورة مماثلة فى طهران . وبالنسبة لأذهان عديدة كانت ايران حليفا محتملا للمحور .

أما ماذا كان فى استطاعة شقيقة الملك فاروق الجميلة أن تفعل فى هذا الصدد ، فقد كان كما يبدو أمرا لا يزعج أحدا .. ترى هل استقبلت المؤسسة المصرية الزواج بحماسة ؟ وهل يمثل امتداح أجهزة الصحافة المصرية التفكير الحقيقى للمصريين ؟ لقد قدم أمير من الأسرة المالكة يستخدم المونوكل ردا أصاب جانبا من الحقيقة والاخلاص الساخر ، إذ انه عندما لاحظ الشاب

المقطب الجبين وحاشيته وياورانه ذوى الثياب الرديئة ، قال سموه معلقا : « محدثو نعمة » .

وقد تبعت مهرجانات القاهرة زيارة رسمية قامت بها الملكة نازلى وبناتها لطهران ، حيث استقبلهن الشاه بحفاوة حارة فى العاصمة الايرانية . ومع ذلك فإن الشاه لم يكن سعيدا بطرق الملكة نازلى المتحررة وطبيعة تصرفها وعادتها فى اقامة مآدب باذخة ، وعرضها قدرا من التحرر الأنثوى الذى قد يكون خطيرا فى ايران ، حيث كانت نعرة الذكور مازالت راسخة بقوة ، وحيث جعلت الامبراطورات الايرانيات البلاط مكانا كئيبا من النساء العجائز . وكان صاحب الجلالة الامبراطور قد تزوج عدة مرات من أفضل العائلات القبلية فى ايران . فهذه الملكة من أسرة قادجار الحاكمة القديمة ، وتلك من باختيار ، مما يعنى انها ابنة قبيلة قوية صعبة المراس ، وآخر شىء كانت تحتاجه طهران هو ان تأتى الملكة الأم المصرية وتنشر أفكارا تثير الفتن عن تحرر المرأة !

وقد يكون الشاه « التقدمى » قد أجبر سيدات البلاط الايرانى على ارتداء الفساتين ، وأمدهن بعطور لانفان وشانيل الباريسية ، ولكن تحت الثياب الأنيقة ، بقى ظل « الشادور » (النقاب الفارسى) موجودا دائما . وقد عرف عن جلالة الامبراطور انه نفى الرعايا الذين أثاروا استياءه إلى الضيافة الكئيبة فى السجون العديدة التى تشبه القلاع والتى تحيط بطهران ، حيث يمكن حتى بالنسبة لسيدات البلاط العاصيات أن يجدن أنفسهن حبيسات وراء جدران رمادية خشنة .. ولم تستطع الملكة نازلى أن تتجنب إحساسا بالخوف من نوع الحياة التى يمكن أن تعيشها إبنتها فى هذا البلد القديم ، الذى يقع تحت رحمة حكم أخرق فظ لجندى سابق أصبح الآن صاحب جلالة امبراطورية .

١٤ ـ زائـرون من أسـرة الامبراطـور

فى يوم ٢١ فبراير ١٩٤٢ ـ بعد بضعة أيام من حادث عابدين ، وصلت الأميرة فوزية شقيقة الملك ، التى أصبحت الآن امبراطورة إيران وبصحبتها شقيقة الشاه ، التوأم ، الأميرة أشرف بهلوى ، فى زيارة خاصة للقاهرة . وكانت المأدبة الأولى التى أقيمت تكريما للاثنين فى المرج ، بقصر الأميرة نعمت مختار أكبر الأميرات المصريات مقاما وابنتها مدام أمينة طوغاى زوجة السفير التركى ، وقد نظمت حفلة الرقص تكريما للامبراطورة الشابة فى هذا القصر الذى يقع شمال شرق القاهرة . وكانت تلك مناسبة فخمة ، كما كانت أول مرة يخرج فيها الملك أمام الجمهور منذ اعتكافه بعد حادث عابدين .

كان قصر المرج مبنى فاخرا أقيم فى حديقة حافلة بأشجار النخيل ، وكانت الأضواء الملونة تومض بين الأشجار ، وكل شىء يبشر بأن المجموعة جماعة ممتازة .. ولم يسبق لنا أن رأينا فوزية فى مثل هذه الصورة الساحرة ، ويبدو أن إيران قد حولتها إلى شىء خرج من قصة خيالية شرقية غريبة ، وكان العصر بطبيعة الحال ، يشهد أعظم تأثير لهوليوود على عالم الأزياء ، والماكياج ، والرقى العام بجمال الأنوثة ، والنجمة التى تحكم فى ذلك الحين هى ڤيڤيان لى ، التى كانت قد ظهرت مؤخرا مع روبرت تايلور فى دور راقصة البالية الجميلة فى ذلك الفيلم الحزين المعروف « جسر واترلو » .

كانت فوزية تشبه ڤيڤيان لى بصورة ما ، غير أنه كان مربوطا بشىء آخر ،

شيء غامض لا يمكن تحديده ، مصنوع بشكل مبهج وهش قليلا ، وكنت وحدى الذى أدرك ماهيته ، ولكن بعد ذلك بسنوات ، وقد تناولت العشاء مع الامبراطورة الايرانية التالية الجميلة ثريا بعد سنوات عديد فى ميونيخ ، وكانت ثريا عليها هالة مماثلة من أنوثة فاتنة غامضة لا تقدر بثمن ، وكان ذلك نتيجة لعملية قام فيها الايرانيون ، وهم عشاق كبار وحساسون للجمال بتحويل نسائهم إلى أطياف متحركة من الفتنة ، كانت عملية تحتاج إلى نوع آخر من الماكياج : تكوين جميل مصطنع من الكلمات مع صوت عذب كشلال المياه .. كان الماكياج قد أجرته يد خبيرة ، ولكنه كان وفيرا ، ويؤكد الشكل الخيالى المصطنع للفتاة .. إن فوزية التى ظهرت مرة أخرى فى القاهرة لم تعد فوزية ذات الروح الصبيانية التى كنا نعرفها .. كانت مخلوقة تجمع الفنون الحديثة لمصنع جاذبية هوليوود ، مع الثقافة الرفيعة القديمة لفتيات حافظ والسعدى وعمر الخيام .. كانت خليطا ذكيا وخطيرا ، وأحسست بحب جنونى لشىء لا يمكن الحصول عليه .

وكانت الأميرة أشرف ، شقيقة الشاه التوأم فتاة نحيلة القوام ، سمراء البشرة ، تمتلىء نشاطا ومرحا واندفاعا ، وعلى النقيض من شقيقها المكتئب إلى حد ما . كانت أشرف لديها حب التمتع بالحياة ، ومن الواضح تماما إنها كانت تتمتع بالذكاء ، ومثل كثيرين من الأذكياء كانت مزعجة أحيانا ، وقد أصبحت دون أن تدرى خاضعة لحصار الأمن الذى فرضته الملكة فريدة جول فاروق ، وكان وصولها علامة على بداية تحرر الملك الشاب من التأثيرات القوية النسائية لزوجته ، وقد حدث ذلك فى اليوم الأول فعلا لوصول الايرانيين ، عندما نظمت مأدبة شاى على ظهر اليخت النيلى الفاخر للملك ، « قاصد خير » ..

كان اليخت يرسو يومئذ تجاه الطرف الجنوبى للجزيرة ، أسفل استراحة ملكية صغيرة مزخرفة ، أصبحت فيما بعد مقرا لمجلس قيادة الثورة التى قام بها عبدالناصر .. كانت فترة بعد الظهيرة المنعشة مع برودة فى الجو فى أواخر فبراير ، بينما كانت الأشجار والحدائق تضفى جمالا على خطوط الشاطىء المحيطة بالمكان .

وعلى الجانب الآخر من النيل كان من الممكن مشاهدة قبة مستشفى قصر العينى والمعهد الطبى على مبعدة ، وكانت تبدو إلى حد ما أشبه بمبانى وزارة البحرية البريطانية فى جرينوتيش ، وإلى الشمال قليلا كان يقع فندق سميراميس المتألق تورت ديكو . وكان من الممكن سماع ضجيج حركة المرور البعيدة التى تعبر كوبرى قصر النيل المعلق فى الهواء المنعش ، والذى أقيم حديثا ، بينما تهز دوامات الباخرة النيلية « سى بى ممفيس » التابعة لتوماس كوك ، وعلى أسطحها جموع السائحين ، اليخت الملكى مربوط فى مرساه وهى تبحر إلى جواره .

وقررت أشرف أن يكون فاروق هو هدفها ، ولم يمض وقت طويل حتى كان الاثنان يتبادلان النكات ، ويلكزان ضلوع بعضهما ، وسرعان ما خلقت طبيعية

أشرف المرحة ، والرد السريع من الملك جوا من الابتهاج الصاخب ، ولا أستطيع أن أقول شخصيا إننى كنت أجد الأميرة أشرف جميلة جذابة بالنسبة للكثيرين ، ولعلها كانت كذلك ، وربما استطاعت أن تثير إعجابا شديدا فى السويد أو أوربا الشمالية ، أما بالنسبة لنا فقد تمثل نوعا من الجمال الذى كنا جميعا نعرفه تماما . وكان من الممكن أن تكون فتاة مصرية ، فقد كانت صغيرة العظام ، لها ملامح تشبه النسر ، وثروة من الشعر الأسود ، وعينين سوداوين بديعتين ، ويدين سمراوين صغيرتين شكلتا بصورة رقيقة .

كانت جاذبيتها الرئيسية تكمن فى شخصيتها ، ولم ألمس شيئا يوحى بأن الملك فاروق كان يرى فيها أكثر من رفيقة لطيفة صبيانية . ولكنها بالتأكيد لم تكن منافسة للملكة فريدة الجميلة ، التى كانت غيرتها أمرا لا يمكن تفسيره فى تلك الظروف . كانت أشرف مغازلة بطبيعتها ، وقد حصلت على الأرجح على معلومات عن غيرة فريدة ، لأنها كانت تستفزها بوضوح وخبث إلى حد ما . ولما كانت أشرف أميرة إيرانية من العائلة الامبراطورية ، وضيفة مكرمة ، فقد اضطرت فريدة إلى القيام بدور المتفرج الذى لا يتدخل ، لأنها عاجزة عن إبعاد منافسة محتملة عن المسرح . وبلغت الأمور ذروتها ، عندما دبرت أشرف أن تغلق باب إحدى المقصورات العليا على نفسها ومعها فاروق ، وكان فى استطاعتنا أن نسمع ضحكات عالية وصرخات أنثوية طويلة ، وكانت فريدة التى استبد بها الغضب فى الخارج تزعم أنها لا تلاحظ شيئا ، واستمرت فى تناول الشاى ، ولكنها كانت عاجزة تماماعن إخفاء الغضب والتوتر الذى كانت تحس به بوضوح .

وكانت الأيام التالية عنيفة ومرهقة .. وتوالت المآدب ، فقد كان على كل أميرة ـ وهناك عشرات منهن ـ أن تقيم حفلة راقصة مسائية للامبراطورة الزائرة وشقيقة الشاه ، بعد أن بدأ هذا الأسلوب بالمأدبة الأولى التى أقيمت فى المرج . أما الملك الذى كانت أشرف تخدعه بوضوح ، فقد بدأ فجأة يتمتع بالحرية التى وجدها حديثا ، ولم يكن هناك لأول مرة أى سبب رسمى يمنع تمتعه بالمرح بعد أن وضعه البريطانيون على الرف ، فقد ألقى بنفسه قلبا وروحا فى هذه المآدب .

كان هناك عدد من أجمل النساء فى العالم فى خدمته ، وكانت على رأس مجموعة الجميلات المذهلة التى تدير الرؤوس ، وكلهن يتنافسن على نيل الاهتمام والحظوة من جلالته ، الأميرة الحسناء السمراء ماهيواش طوسون ، وهى فتاة شركسية جميلة متزوجة من الأمير سعيد طوسون ، والشقراء فاطمة طوسون ، وثلاث أميرات عثمانيات رائعات ، هن نسل شاه ، وهان زاده ، وحبة الله .

والواقع أن شعور التعاطف حيال المحن السياسية للملك الشاب ، كانت تسيطر على مواقف الشعب ، وتثير تعبئة عامة من الجهود للتسرية عنه وللتعبير

بصورة مباشرة عن العطف والتأييد . ومن ثم فقد دخل الجميع فى دوامة الحفلات والمباهج الاجتماعية ، ممزوجة بما كان متصورا أنه واجب حيال الملك !

ولا حاجة للقول بأن مثل هذه المشاعر جعلت كل حفلة بمثابة قنبلة .. كان الرقص يستمر حتى الفجر ، دون مراعاة للحرب التى لا تبعد كثيرا فى الصحراء ، وكان الشبان والنساء والجميلات يشتركون مع الكبار فى الاسهام فى هذه المهرجانات .. وكان المرء يرى باشوات عجائز وطرابيشهم مائلة على رؤوسهم يرقصون الفالس على أنغام شتراوس . أما الشباب فكانت لهم موسيقى أكثر حداثة مثل « الرابسا » و « تشيكا بوم تشيك » التى اشتهرت بواسطة كارمن ميراندا القنبلة البرازيلية الرائعة فى ذلك الحين ، أو بعض الأغنيات الأخرى التى انتشرت فى لندن فى زمن الحرب .

وكانت ألحان التانجو البطيئة تحظى بشعبية كبيرة ، وكان أكثر الراقصين جرأة يرقصون وقد التقت وجناتهم ، إذ كان العصر لايزال عاطفيا رومانسيا ، وكانت القصص الغرامية تبدأ على حلبة الرقص ، والاتصال بين الشركاء فى الرقص يمكن أن يتخذ أبعادا لا يعرفها عالم اليوم ، ومن المستحيل أن تعود .

١٥ ـ امبراطورة فى محنة

كانت الأنباء الواردة من طهران فى أواخر ١٩٤٤ تثير القلق .. فقد قيل إن امبراطورة إيران الشابة شقيقة فاروق تعانى مرضا خطيرا .. وقد اضطر أبى محمود ثابت باشا الذى كان ينتظر تعيينه سفيرا لدى تركيا إلى التوجه لطهران بناء على أوامر الملك . وبعد بضعة أسابيع كنا فى الطريق إلى فارس ، حيث سافرنا بالسيارة عن طريق القدس ، فعمان ، فبغداد إلى حمدان .

كان الوصول إلى طهران مثيرا فى تلك الأمسية من مارس ١٩٤٤ ، وقد اجتاحتنا فرحة لا يمكن تفسيرها ، وقد علمت فيما بعد أن للأمر صلة بالارتفاع الذى يبلغ حوالى ٦٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر ، ولهذا تأثير منشط مثل « البنزدرين » ، المماثل للشعور الذى كان يحسه جنود المظلات الألمان تحت تأثير العقاقير المنشطة عشية العمليات التى يقومون بها .. وبينما كنا نتجه بالسيارة إلى المدينة من الشمال فى البداية لم نر شيئا يثير اهتماما خاصا ، رغم إننا لاحظنا هنا وهناك بصيصا من الحدائق التى نظمت بشكل فنى ، وأحواض ماء على هيئة الهلال ، ومناظر قمرية طبيعية جميلة من النوع الذى ألهم عمر الخيام ، أما الباقى فكان مناطق من الأحجار الرملية ، وقمما جبلية محرمة خالية : صورة خيالية للجحيم وفقا للأسلوب الشرقى !

وتقع طهران نفسها فى هضبة ، تحف بها نصف دائرة من الجبال التى تنفث الكبريت ، وعلى الجانبين الجنوبى والشرقى تلال جرداء تؤدى إلى صحارى

لا نهاية لها . وفى الطريق الذهبى إلى سمرقند فى ذلك المساء لم نجد أى أثر للذهب .. كانت الشوارع مليئة بأشخاص ذوى ثياب رثة يجرون اقدامهم على طول شوارع واسعة على النمط الموسولينى قبل أن يختفوا فى أزقة يرجع عهدها إلى العصور الوسطى .. كان المرء يخطو دون توقف من القرن العشرين إلى القرن الخامس عشر !

وفى كل مكان كانت هناك رائحة شى لحوم الضأن ، وهو عنصر ممتاز للطهى لدى الايرانيين ، ومع امتزاج ذلك بروائح البشر الذين لا يغتسلون ، يصبح هناك رادع قوى لأية مغامرات فى حوارى القرون الوسطى المظلمة ، وكانت بصمة ألبرت شبير واضحة أيضنا ، فبالاضافة إلى نادى الضباط الامبراطورى فى طهران ، كان هناك المبنى الضخم « للنظام الجديد » الذى أقيم على غرار وزارة الطيران التى يتولاها جورنج ، كما كان البنك الأهلى الايرانى مثلا رائعا للهندسة المعمارية التيوتونية الحديثة . وقد أضفى كل ذلك مزيجا غريبا من البهاء والقذارة إلى المنظر الايرانى .

كان البهاء والقذارة هما الطابع السائد فى فارس تحت حكم آل بهلوى ، فلا يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر ، ولابد أن يندمج الاثنان لكى يكتمل الأمر ، فالرجل الكامل يجب أن يكون صالحا وشريرا ، خشنا ولطيفا ، قاسيا وحنونا ، قاضيا وجلادا ، وشهيدا فى معادلة كونية ترتبط ارتباطا وثيقا بفهمنا للعناصر المكونة للوجود .

وفى مثل هذا الجو يستطيع المرء أن يفهم بعضا من أعظم الطقوس السرية فى العالم والتى ازدهر فيها : حافظ ، والسعدى ، والخيام ، وابن الرومى ، وشمس التبريزى .

كنت أعجب كيف كانت فوزية تتعامل مع هذه الأرض العجيبة وشعبها الغامض .. إنها لم تكن جيرترود بل أو فرياستارك ، هاتان المرأتان البريطانيتان الغريبتان الرومانسيتان ، ولم تكن أخت فاروق مهيأة لكى تفهم ، فما بالك أن تتعامل مع حاشية إيرانية ، وكانت وصيفاتها المصريات قد تركنها منذ وقت طويل ، والايرانيات الجميلات المرحات اللواتى حللن محلهن كن محبوبات وغامضات ، ومن الصعب اعتبارهن صديقات أم عدوات . لقد كان لرحيل الشاه العجوز (الذى اضطر للتنازل عن عرشه لصالح ابنه عندما احتل الحلفاء بلاده فى ١٩٤١ ومات فى جنوب افريقيا فى ١٩٤٤) تأثيرا عميقا على نبلاء طهران ، فامبراطورهم الذى كان جنديا سابقا لم يعد هناك ليعذبهم ، وسيداتهم قد يعدهن إلى ارتداء الشادور بدون حجزهن فى إحدى القلاع المشئومة .

وكانت لرضا شاه ثلاث زوجات ، كلهن يحملن لقب الامبراطورة ، وقد تزوجهن لأسباب سياسية ، حيث أنهن ينتمين إلى أقوى الأسر القبلية فى البلاد ،

وهى قبائل باختيار ، وقاشجاى كادجار ، وقره جيوزلوس ، وكان من المتوقع أن تعتبر هؤلاء الامبراطورة المصرية متطفلة غير مرغوب فيها ، أميرة سنية كافرة ، فرضت على إيران بواسطة الأطوار الغريبة ، وطموحات طاغية من محدثى النعمة ، وقيل لنا إن السيدات الثلاث العجائز كن البلاط فى جو من حفلات السكر والعربدة التى يباح فيها كل شىء ، وكانت إحدى الامبراطورات امرأة أعمال بارعة للغاية وقد اشترت كل الساعات السويسرية المعروضة للبيع فى بغداد فى زمن الحرب ، وهكذا احتكرت أعمال بيع الساعات فى طهران ، وكان المواطنون الذين يحتاجون إلى معرفة الوقت يضطرون لدفع أسعار ضخمة حتى لأرخص الساعات والمنبهات السويسرية .

وكانت فوزية المسكينة البريئة وحدها غير مهيأة لمواجهة مثل هذا الطريق الوعر والمعاملة المروعة . أما زوجها الشاه ، فكان رجلا ذا أخلاق دمثة ساحرة ، ولكنه لم يكن أكثر الأزواج حزما ورجولة بين الأزواج . وكان يفتقر إلى الارادة الحديدية وروح المغامرة التى لدى شقيقته التوأم اشرف ، وعلاوة على ذلك ، فإنه كان واقعا تحت سلطان مسيو الفونس ، خادمه السويسرى السابق ، ولم يكن سندا للامبراطورة رغم انه كان يحبها كثيرا ، أو هكذا قيل ، ولكننا كنا على وشك أن نرى بأنفسنا كيف تسير الأمور فى طهران .

كانت السفارة المصرية ، حيث أصبح أبى سفيرا فيها الآن ، مبنى كبيرا قديما فاخرا إلى حد ما ، أقيم فى حديقة ، مهملة ، أفاريزها يقطنها جيش من العصافير ، والخفافيش ، ومخلوقات الظلام التى تحدث حفيفا وتطلق صيحات حادة بأبشع طريقة خلال ليالى طهران الطويلة ، وكان أحد السفراء السابقين ، وهو نشأت باشا قد قام بتركيب حمامات فاخرة بطريقة ألبرت شبير ـ وهو أمر لاشك فيه لأنه نقل من برلين ـ وزودها بأحواض وحمامات من الكريستال والألوان المختلفة ، وكانت كبيرة إلى حد يكفى لاغراق امبراطور فيها ! .

وكان الشىء المزعج ، هو عدم وجود نظام للمياه المغطاة فى العاصمة الفارسية فى ذلك الحين ، وهكذا كان لابد من ضخ المياه الممزوجة بالطين والوحل من الحفرة التى تقع أمام البوابة الرئيسية لمقر السفارة ، وإذا احتاج صاحب الفخامة لحمام ، كان لابد من شراء مياه نظيفة من حاملة المياه المتنقلة للسفارة البريطانية ، وكانت السفارة البريطانية سعيدة الحظ لأن لديها بئرا من المياه النقية فى حديقة السفارة ، وكان مكتب الأشغال فى وزارة الخارجية ، قد زود المنشأة الدبلوماسية فى طهران بعربات يد أنيقة ذات عجلتين يمكن جرها باليد فى أنحاء المدينة وقد ركبت عليها خزانات للماء ، وتعرض بيع المياه النقية بسعر معقول . وكانت عربات الماء الخاصة بالسفارة البريطانية من الملامح البديعة لطهران خلال الأربعينات .

وفى خلال ساعة من وصولنا إلى السفارة المصرية ، تشرفنا بزيارة

الامبراطورة فوزية ، جاءت بمفردها لا يصحبها أحد ، وقد أذهلنا ظهورها إلى حد كبير .. لم تكن تلك المرأة الشابة الجميلة ، وليست بالتأكيد ما كنا نتوقع رؤيته .. كانت بارزة العظام ، تبدو وكأنها شبح شديد الهزال من النوع الذى أصبح مألوفا فى الصور المروعة لمعسكر بيلسن للاعتقال أيام النازى . كانت عظام كتفى فوزية تبرز مثل زعانف سمكة تعانى من سوء التغذية ، وكان يبدو أنها مريضة ، وهو أمر ليس مستغربا ، حيث أنها ـ كما علمنا ـ كانت قد عانت من نوبة مزدوجة من مرض الصفراء والملاريا .

وتبع ذلك لقاء سالت فيه الدموع ، فقد كنا أول أعضاء مقربين من أسرتها تراهم منذ سنوات . كان الجميع مقهورين ، وأكثرهم الامبراطورة ، ولكن شقيقتى دودى وأمى ، اللتين تغلبتا على الصدمة الأولى ، سرعان ما شرعتا فى الرد على الأسئلة وتوجيهها . وكانت فوزية قد بدا عليها الابتهاج بوضوح ، بينما وقفت أنا وأبى ، باعتبارنا رجالا ، معقودى الألسنة .

وتحدثنا طويلا حتى المساء ، ورغم أننا كنا متعبين من القيادة التى لا نهاية لها خلال شمال إيران قادمين من حمدان عن طريق قزوين ، فإن الانفعالات والتوترات التى سادت فى تلك المناسبة ، جعلتنا نفقد أى إحساس بالوقت والارهاق ، وبعد انصراف فوزية ، دارت بيننا عملية تقييم للموقف . كان من الواضح أن هناك شيئا خاطئا خطيرا تتعرض له أميرتنا الشابة .. هل يمكن أن تكون الشائعات التى تقول إن الايرانيين يقومون بدس السم لها ببطء ..شائعة صحيحة ؟ كان الايرانيون بالنسبة لنا شيئا مجهولا وكنا على استعداد لتصديق أى شىء . وكان من الضرورى بطبيعة الحال إبلاغ الملك عن الموقف بأسرع ما يمكن .

لقد تغيرت الأمور إلى حد كبير فى إيران منذ إبعاد رضا شاه فى ١٩٤١ ، عندما انتقلت سلطة الحكم بصورة فعالة إلى حلفاء الغرب المحتلين للبلاد والاتحاد السوفيتى ، وأية فوائد سياسية يمكن أن يكون الاتحاد مع الأسرة الملكية المصرية قد منحها لآل بهلوى ، وهى أسرة محدثة نعمة لم تكن لها أية قيمة لايران يمكن أن يلاحظها أحد ، لقد اكتسحت الحرب أية اعتبارات أصيلة ، بل وجعلتها تبدو أمورا تافهة ، وتم طرد الشاه العجوز المهيب بسهولة ، واتخذت مشكلات إيران الشكل المعهود من المواجهة بين الروس والبريطانيين (التى يؤيدها الأمريكيون الآن بقوة) .لقد كان وصولنا إلى طهران فى وقت أخذ فيه حزب توده ، الذى يتكون من الباقين فى الحزب الذين نجوا من قمع رضا شاه ، فى إقامة جذور قوية له بمساعدة الاتحاد السوفيتى فى أراضى فارس الشمالية التى يحتلها الروس .

إن إيران التى رأيناها منذ أربعين عاما قد تعتبر البوتقة الرائعة نوعا ما ، التى تكون منها وجهها الحالى .. كانت مكانا غامضا ، قديما وخطيرا . وكان

أهلها مخادعين مراوغين ومعقدين ، وظلوا يمارسون فنون ظلام المناورات السياسية ، على مستوى قادر تماما على الهام وتشجيع أى مكيافيلى ، وقد تجاوزت البراعة السياسية حدود خداع فلورنسا فى التمرس بنجاح فى فن استغلال تدمير الذات والاستشهاد لأغراض سياسية ، حيث يطبق المذهب الشيعى أسلوب الكاميكازى اليابانى على أمور الدولة بنجاح رائع !

وكان على الايرانيين بعد أن أصبحت إيران الآن ميدانا للمواجهة بين القوتين العظميين أن يخضعوا لذل احتلال أجنبى ، ومشاجرات دخيلة ، إزاء خلفية تكنولوجيا العصر الحديث . ورغم أن عالم الكومبيوتر الحديث وذكريات ميجابيت كان مازال فى المهد ، فقد كنا على أعتاب هيروشيما ونجازاكى ، ومع سقوط برلين .

ان سيطرة الغرب التقنية سحقت وأزالت أداة الحرب النازية ، ومن ناحية أخرى فإن انتصارات الجيش الأحمر كانت تدين بالكثير إلى الروح البشرية التى لا تقهر للانسان بين الحشود التى يبدو أن الروس كانوا بارعين للغاية فى تنظيمها .

وفى الجبهة الشرقية كسب الحرب رجال كانوا يعيشون فى الذكرى الحديثة لثورة ١٩١٧ التى قادها جنرالات كانوا قد خاضوا معارك ضد البيض أنصار القيصر ، وكان تيموشينكو قائد سرح الفرسان الأوكرانى يبدو كرجل من القوزاق القدامى منتزعة من لوحة رسمها ريبان ، أما جوكوف ، وكونييث ، ورروكوسوفسكى وكثيرون غيرهم ، فقد كانوا جميعا شخصيات منتزعة من ملحمة لاينشتاين أو سيمفونية لموسورجسكى .. إن المرء هنا يحس بالتاريخ الروسى ، ملحمة دموية يتخللها القتل ، فى كل أبعادها الانسانية .

وكانت الصفوة الايرانية تشعر بميل أكثر للأمريكيين ، الذين نشروا حوالى ٣٠ ألفا من السفن البحرية الصغيرة لأعمال نقل الأسلحة والسلع الحربية إلى روسيا ، وكان إنجازهم المهيب هو إنشاء خط حديدى ، والطريق العام الرائع « الاعارة والتأجير » وهو معجزة فى بناء الطرق الحديثة ، يربط البصرة بجبال الأورال عن طريق كيرمنشاه وحمدان وتبريز ، وقد تم نقل حوالى ثلاثة ملايين طن من مواد الحرب إلى الجيش الأحمر من خلال هذا الطريق فى سيل لا ينتهى من الشاحنات الأمريكية الكبيرة ، وناقلات الدبابات التى تحمل الذخائر ، والمدافع ، والدبابات ، والطائرات وأشياء أخرى كثيرة . كانت أدلة مؤثرة فى النفوس للقدرة والخبرة الأمريكية الانتاجية .

ويمتد الطريق بصورة عامة فى خط مواز لطرق القوافل القديمة إلى سمرقند وبخارى ، ويتبع تقريبا مسار طرق الغزو الفارسى القديم إلى أرض النهرين وبغداد .. كانت تذكرنا بحملات الحرب الأهلية الأمريكية ، عندما قامت العبقرية والكفاءة الصناعية لليانكى ببناء نظام النقل العسكرى الحديدى

الواسع ، الذى قام بدور حاسم فى حملات الجنرال شيرمان ضد قوات الجنوب الكونفيدرالية ، وهنا فى إيران قامت الخبرة الأمريكية ، بالتحالف مع المهارات القديمة لمخططى الطرق فى فارس بتقديم مساعدات مماثلة للروس فى ١٩٤٣ ، وفى طهران فإن المساعدات الأمريكية ، والأوقات الطيبة التى بدا أن « أسلوب الحياة الأمريكى » يستميل الصفوة الفارسية ، الذين كانوا أكثر تأثرا بأسباب اللهو والمباهج التى تقدم فى هذا الوسط منهم بصرامة الروح الأسبرطية والتى تتسم بالتضحية لدى الروس البعيدين عن المعارك .

أما البريطانيون ، فقد قدموا من جانبهم قدرا من الثقافة الجمالية إلى هذه المواجهات الدولية . وكان الحدث الاجتماعى الكبير هنا ، هو « حفل الويستاريا » الذى يقيمه السفير البريطانى لدى التفتح السريع الزوال لزهور الويستاريا بالسفارة ، وهو حدث قيام فى أمسية واحدة من العام . ومن ثم فإن توقيت الحفل كان يتطلب درجة عالية من البراعة فى فن البساتين من جانب الدبلوماسية البريطانية ، إذ أن التخطيط المسبق وإعداد الاحتفال ، كان يمثل هنا صعوبات خاصة . وكانت المهارات المطلوبة تتجاوز القدرات التقليدية للدبلوماسيين الأقل حنكة من الدول الأخرى . وكانت هذه الايماءة البريطانية الخاصة ذات المسحة الآسيوية الخفية تكريما للنباتات ، وعبادة النبات ، وما تتضمنه من اهتمام وإعجاب بالحدائق ، من طبيعتها أن تجعل البريطانيين أعزاء لدى مجتمع إيرانى يعبد الحديقة . وتوحى حقيقة أن أعضاء السفارة الآخرين كثيرا ما كانوا ينطلقون فى رحلات طويلة وحيدة على الأقدام فى التلال والوديان بضواحى طهران الريفية ، للتأمل فى شعر السعدى ، والاستغراق فى فلسفات شمس التبريزى وابن الرومى فى أراضى الغابات المبهجة ، إن مديرى الخطط بوزارة الخارجية البريطانية كانوا على علم بهذه الاغراءات .

أما بالنسبة للايرانيين ، فإن الأمر يتطلب قليلا من البصيرة النافذة لتفسير وجهة نظرهم . إن هذا الشعب القديم ذا الكبرياء ، يتمسك بقوة بثقافته ، والاحساس الفطرى بالتفوق ، الذى يميز روح الفرس ، لقد هزموا وتعرضوا للاذلال بواسطة قوات أجنبية قوية ، وساد شعور بالاحباط ، كانوا غير راضين عن زعاماتهم ، فآل بهلوى يفتقرون إلى حد كبير إلى الثقة بالنفس وأوتوقراطية الشاهات السابقين ، ورغم أنهم كانوا يحترمون ويخافون رضا شاه ، الطاغية المحدث النعمة ، فإن ابنه لم تكن من نفس « الطينة » .. إن الأسرة المالكة لم تكن مؤثرة فى النفوس ، فالامبراطورات اللواتى يتجرن فى الساعات السويسرية ، ويقضين أوقاتهن بين حفلات اللهو والعربدة ، والحاكم الذى يخضع لتأثير خادم سويسرى ، لم يكن لديهم الكثير الذي يكفل لهم القيادة على هذا الشعب الفخور والمتواضع . وقد يكون من الانصاف أن نستنتج أن بذور الثورة التى أدت إلى حكم آيات الله قد غرست فعلا .

وفى مارس ١٩٤٥ ، وبينما كان الاتحاد السوفيتى يساعد حزب توده بنشاط فى محاولته لتشجيع النزعة الانفصالية فى الجزء الشمالى الغربى من إيران ، فى أذربيجان وكردستان ، كانت الحياة فى طهران يسيطرُ عليها الغرب ، وكان سقوط برلين قد أصاب الروس بنوع من أعراض « السوبرمان » ، وعلى أرصفة طهران ، كان أعضاء كبار من الجيش الأحمر المحتل ، وقد بدوا أكبر حجما بالمعاطف الكبيرة الطويلة التى تصل إلى الكاحل ، ومدافع التومى جان الضخمة التى يحملونها ، يشاهدون وهم يدفعون المواطنين ، وأحيانا الجنود الأمريكيين بعيدا عن الأرصفة .

وخلال الفترة التى كنا فيها هناك ، أقامت السفارة السوفيتية ، التى تحتل مجمعا كبيرا فى وسط طهران « احتفالا بالنصر » حيث راح جنرالات الحلفاء والسفراء والوزراء الايرانيون وغيرهم ممن هم أقل مرتبة يطوفون حول موائد حافلة بالفاخر من الأطعمة ، تقدم جبالا من الكافيار الأسود والرمادى ، وغيرها من الأطعمة الروسية الأخرى الشهية ، مع جالونات من الشمبانيا والفودكا الروسية وأنبذة القوقاز الحلوة .

وبعد أن أسدل الليل أستاره وانصرف الضيوف كان فى استطاعة طهران أن تستمع إلى أصوات طلقات المدافع الرشاشة تمزق السكون ، والمفروض أن الأشخاص الذين لا يحبهم الروس كانت تجرى عمليات تصفية لهم فى حدائق السفارة . وكان هناك أشخاص يختفون فى أحيان كثيرة دون تفسير لذلك . وكان البوليس الامبراطورى الايرانى الذى لا حول له ولا قوة بصفة عامة ، يمنع المحاولات التى تبذل لمعرفة أين ذهبوا . وكان هناك انطباع بأن حربا سرية تدور بين أجهزة مخابرات الدول الكبرى المختلفة المتنافسة ، وبين أنصارهم الايرانيين وجماعات أخرى غير معروفة الهوية وأن كانت خطيرة .

ووراء هذه الخلفية ، ازدهرت حياة اجتماعية واسعة .. كانت أية حجة صالحة لاقامة حفل ما . ووجد أعضاء المؤسسة الايرانية الرسمية ، والسلك الدبلوماسى ، وحتى المبعوث البابوى ، أنفسهم فى دوامة هذه الاحتفالات . وقد حضرت إحدى هذه الحفلات التى أقامها الشاه ، وكانت المناسبة هى عرض أحدث أفلام همفرى بوجارت الذى وصل إلى طهران مجاملة من برنامج « الاعارة والتأجير » الأمريكى . وقد أقيم الحفل فى القصر الامبراطورى الجديد ، وهو مبنى أنشىء على الطراز الحديث على نمط الباوهاوس الذى كانت تفضله دور السينما التابعة لشركة مترو جولدوين هاوس ، وقد ازدحم القصر الملكى بجمع متألق من الضيوف كان يشبه تماما أسلوب حفلات العرض الأولى فى هوليوود . حيث كانت النساء يرفلن فى ثياب السهرة ذات الزخارف الزاهية الألوان ، بينما كانت روائح عطور باريس المحررة تملأ الهواء ، وأربطة الرأس التى تبهر العيون .. وقد أضفت تشكيلة متنوعة من الشخصيات العسكرية

الكبيرة بما تضعه على خوذاتها من ريش ، مختلف الأشكال وريش الطاووس طابع الكرنفال على الأحداث .. وقد طافت بذهنى عندئذ لوحة « رقصة الموت » فى كاتدرائية ليوبك ، حيث يقوم طابور طويل من راقصات مرحات بشق طريقهن إلى أسفل الدرجات الفاخرة المصنوعة على النمط الباروكى للكاتدرائية ، ومن هناك إلى أذرع تمثال الموت الهيكلى الشرير .

كان وضع فوزية فى كل هذا الصخب الاجتماعى ـ السياسى مبهما . وتحت ستار الاحتجاجات المؤدبة المعهودة للصداقة الخالدة ، كان من الممكن رؤية نوع من التحفظ فيما يتعلق بالمصريين ، وكانت المؤسسة الايرانية الرسمية قد أزعجها سلوك فاروق المتعجرف بعد وفاة رضا شاه ، عندما قيل إنه اعترض متعلقات الشاه وهى فى طريقها إلى طهران من جنوب إفريقيا عن طريق القاهرة ، وانتزع سيفا للحفلات ليضيفه إلى مجموعته التذكارية العسكرية . وفضلا عن ذلك ، فإنه فى داخل المحيط الاسلامى ، كانت القاهرة هى أكبر العواصم السنية تصميما ، وبهذا الوضع كانت تعد أخطر منافس فى المواجهة الدولية بين السنة والشيعة .

وكذلك كانت الصداقة الجديدة بين فاروق والملك عبد العزيز بن سعود مزعجة لايران التى كانت هناك خلافات كامنة ومتفجرة كامنة بينها وبين العرب السعوديين . وهى خلافات كانت تطفو على السطح عادة خلال موسم الحج السنوى إلى مكة ، عندما كان الحجاج الشيعة كثيرا ما يشتركون فى مظاهرات عدائية ومهينة ضد السنيين .

وهكذا فإن وجود امبراطورة مصرية فى طهران لم يكن له أى معنى ، ومن الممكن أن يكون هناك قلق جدى على سلامتها ، وكان الشاه رغم وده وحسن نيته ، عليه أن يقنع بالضغوط المتفجرة فى داره ، ورغم أنه كان لايزال يرغب حقا فى الحفاظ على زواجه ، فقد كان من المشكوك فيه أنه قادر على أن يكفل لزوجته الطمأنينة والأمان الذى هو حق لها .

كان أبى قد قرر بعد تردد إبلاغ الملك بأن إنهاء الزواج أمر حصيف . وأصبح واجبى أن أبلغ الملك بالموقف . وكانت تلك مسألة بالغة الدقة . وقبل كل شىء كان ينبغى أن يبقى الايرانيون غير مدركين تماما للطريقة التى تهب بها الريح . وحتى وزارة الخارجية المصرية لم توضع فى الصورة . وكان البرنامج الرسمى للأحداث الذى أصبح معروفا ، هو أن الامبراطورة ستزور شقيقها فى مصر بصحبة حاشية مهيبة ، لقضاء عطلة قصيرة فى مصر . وكان ينبغى إقناع فوزية نفسها بالسفر إلى مصر . وكانت حالتها التى أصابها الضعف وشبه إرهاق قد أحدثت فيها نوعا من التبلد حتى أصبح اتخاذ أية مبادرة شيئا يجب تفاديه . وكانت مهمة شقيقتى هنا هى محاولة إقناعها بأن السفر سيكون مفيدا لصحتها ، ومبعثا قويا للمتعة .

وطرت إلى القاهرة ، حيث استقبلنى فاروق على الفور ، وقام باستجوابى بدقة عن الحالة الصحية لشقيقته .

وقال : « كنت أعرف أنه لن ينجح أبدا .. لم يكن الزواج بين فوزية والشاه لينجح .. هؤلاء الفرس متوحشون إلى جانب أنهم من الشيعة .. انظر إلى الطريقة التى يتصرف بها حجاجهم فى رمضان ! لقد كنت دائما ضد هذا الزواج ، ولكن لما كانت فوزية تريده فإننى لم أقل شيئا .. وكانت موافقتى ضد أفضل تقديراتى .

وكان فاروق صادقا فى ذلك حقا . ففى وقت الخطبة ، كان الشيخ المراغى شيخ الأزهر تساوره الشكوك . فقد كانت هناك فجوة بين وجهات النظر الروحية المتباعدة ، حيث كانت الصورة الايرانية للاسلام ينظر إليها ببعض القلق .. كانت عنيفة ، انتحارية فى تعقيداتها ، سرية وثورية فى مواقفها وفكرها المضطرب مثيرة فى أوضاعها بشأن التفوق ، بينما كان المصريون الهادئون ذوو الذكاء المرتفع أبعد ما يكون عنها فى الفكر والفعل .

وقال لى الملك : « عادل . يجب أن تعود فورا إلى طهران ، وأبلغ محمود باشا ثابت أنه يجب أن يرتقب عودة فوزية إلى مصر بموافقة الشاه أو بدونها . وسنبعث للشاه دعوة رسمية ، وسنجعل كل شىء معدا لاستقبالها . وقبل كل شىء ، احتفظ بكل شىء سرا ، وسأجعلك مسئولا عن العملية عندما تصل هى » .

وطرت عائدا إلى طهران لأجد أبى قد وجد حليفا إيرانيا ، هو حسين علاء ، وزير بلاط الشاه ، وهو دبلوماسى متميز من المدرسة القديمة ، وموضع ثقة الشاه . وكان علاء قد اقترح أن تقوم فوزية بزيارة لشقيقها ، معربا عن قلقه لحالتها الصحية . لقد كان فى مقدمة أولئك المتحررين الايرانيين الذين قدموا الكثير لخلق إيران الحديثة وإقامة علاقة مرضية مع الولايات المتحدة . وكان رجلا قصير القامة يتفق مسلكه ومكانته تماما مع شخصية الدبلوماسى الفارسى التقليدى كما ينبغى أن تكون .

وكان علاء هو الذى عمل كوسيط بين الشاه وأبى ، ونتيجة لذلك تم تنظيم زيارة رسمية تقوم بها الأميرة فوزية لمصر بكفاءة بالغة ، وأكثر المبادلات الودية بين الطرفين . وقد أعرب الشاه نفسه عن سروره ، وانهمك البلاط فى جمع أعضاء حاشية فوزية ، وتم تنظيم بعثة برئاسة ارستقراطى إيرانى من أبناء القبائل هو محسن قرا جوزلو وهو رجل لطيف للغاية وصديق شخصى مرح ومتحضر ، له بعض الصلات العائلية بالشاه ، وكان هناك عضو آخر ، هو مدام عرفة الهائلة الحجم ، وهى سيدة إنجليزية عجوز كانت متزوجة من أحد جنرالات الشاه .

وعندما أتذكر ما حدث . يبدو أنه كان من المحتمل أن يعتبر رحيل فوزية عن

إيران أمرا من المتوقع أن يكون دائما ، وذلك لدى أولئك الذين كانوا يعرفون ما يحدث ، ومع أن فسخ الزواج وأن بدا احتمالا بعيدا فى ذلك الوقت ، إلا أنه يمكن أن يعتبر فى عيون الايرانيين أمرا مرغوبا فيه سياسيا .. وكانوا هم أيضا بارعين ولبقين فى عدم الكشف عن هذا التفكير الداخلى ، ولكن لم تكن هناك حاجة لأى ذكاء خاص لكى يتنبأوا بمثل هذه النتيجة .

١٦ - فى فيللا أنطونيادس

انتقل المشهد الآن من طهران إلى الاسكندرية ، حيث اختار الملك فيللا انطونيادس لاقامة شقيقته بعد وصولها إلى مطار النزهة القريب . وتقع فيللا أنطونيادس فى حدائق النزهة ، ضاحية اليوزيس السابقة فى عهد البطالسة ، وكانت فى وقت ما دارا لأحد سماسرة القطن اليونانيين الاغنياء الذى أطلق عليها اسمه . وكان مسيو أنطونيادس صديقا للخديو ، الذى كانت سيدات أسرته يغمرنه بأفضالهن ، والمفروض أن هذه الصداقة الحميمة أدت إلى عوائد مادية جوهرية ، وعلى أية حال فإن مسيو أنطونيادس اعترافا منه بالجميل أوصى بفيللته إلى مدينة الاسكندرية .

وتقدم حدائق النزهة أمثلة وفيرة للمناظر الطبيعية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر ، حيث تتنافس التماثيل الرخامية للآلهة ، والأبطال ، وحوريات الماء مع زهور الجلاديولا القرمزية اللون والورود ، مع برك مائية وطيور البطريق ، وأحواض الزهور التى تنثر روائحها فى الجو ، والأشجار العريقة ، ومناظر تحف بها التماثيل ، ومنصات للفرق الموسيقية ، وبيوت للنباتات ، وكل هذا البهاء طابع مميز للاسكندرية ، المدينة التى كانت لسنوات عديدة موطنا لملوك القطن ، وصورة مصرية لمدينة نيويورك ، حيث طبقة ارستقراطية بالغة الثراء من اليونانيين الأجانب ، وباشوات الشرق الأدنى الذى يعيشون فى جو مذهل من الأعمال ، والسمسرة ، وحفلات الرقص التنكرية .

وبذلت جهود محمومة لاعداد الفيللا لوصول امبراطورة إيران، وتولى فاروق بنفسه بما عهد فيه من اهتمام دقيق بالتفاصيل ، الاشراف على كل شىء ، ولما كنت قد منحت اللقب الشرفى بأن أكون رئيسا لبلاط شقيقته ، فقد انغمست الآن ، وأنا غير سعيد نوعا ما ، فى هذه الاستعدادات . وكان صاحب الجلالة يساوره القلق بصورة خاصة حيال ردود الفعل المحتملة للملكة نازلى ، حيث كان قد أبقى الملكة الأم فى الظلام بشأن الموقف فى طهران ، وأعلن فقط نبأ الوصول الوشيك لشقيقته قبل حدوث ذلك بيوم أو يومين .

وقال لى وهو يمسح حاجبه .. : « آمل أن يمضى كل شىء على مايرام ، فأنت لا تعرف أبدا ما قد تفعله أمى ! » .

ودون أن أدرى كنت على وشك أن أحدث أزمة فى علاقتى بفاروق ، لأصبح ضحية دسائس رجال البلاط ، والتفاعل المعقد لمشاعر الغيرة والعداء التى تراكمت حول الملك ، ولكن حدث المزيد من ذلك فى وقت تال .

وقد عينت السيدة ناهد رشاد كبيرة للوصيفات ، وهى سيدة ذكية مسيطرة ، كانت صديقة مقربة للملك ، أما زوجها السمين الدكتور يوسف رشاد ، الذى يمثل وجودا طبيا غير رسمى ، فقد عهد إليه بأن يحوم باستمرار فى الخلفية . وصدرت التعليمات للأميرة فائزة شقيقة الملك وزوجها اللذين كانا يأملان فى الطيران إلى أوربا ، بالبقاء فى مصر للمساعدة فى تسلية فوزية . وفى نفس الوقت ، كانت مهمتى أشبه بمهمة المارشال ، لتنسيق الأنشطة ، وقد جعلت نفسى غير محبوب بصفة عامة لدى المساعدين « ذوى المكانة الرفيعة » ، الذين كانوا مستائين من التدخل فى خططهم للسفر إلى الخارج من أجل ما كان بالفعل جزءا من احتفالاتهم التى تشبه حفلات الزفاف .

وصلت فوزية وسط مظاهر الأبهة المعتادة إلى مطار النزهة ، حيث استقبلها شقيقها فى حالة من الانفعال الشديد والحساسية البالغة لأمراضها البدنية ، وقد صدم لرؤية حالتها التى أصابها الهزال .

وقال لى فيما بعد : « إنها فى حالة رهيبة .. إننى أتوقع منكم جميعا أن تبذلوا كل ما فى استطاعتكم لادخال البهجة إلى نفسها وإعادتها إلى حالتها الطبيعية » .

كان واضحا أنه ساخط على الايرانيين ، ويلقى اللوم على ضعف الشاه وإهمال البلاط فى طهران ، ونظمت مأدبة رسمية لتناول الشاى داخل الفيللا احتفالا بوصولها . وهنا وقع حادث .. فقد استدعانى الملك لابلاغى أنه لما كان يجمع العملات ونماذج من العملة الأجنبية ، فإنه يود شراء العملات الايرانية من وفد الشرف !

وقلت له : « لن يكون ذلك أمرا صعبا ، لأن صديقى محسن قاراجوزلو أخرج لتوه الآن حافظة تنتفخ بالنقود الايرانية ، وسأذهب لأسأله » .

وتوجهت إلى محسن ، الذى نظر إلى فاروق ببعض الشك دون ريب ، وكان من الواضح أنه غير سعيد جدا بهذا الطلب ، ولعله اعتقد أنه لما كان الملك هو الذى طلب ، فإن العرف قد ينتظر منه أن يعطى النقود لجلالته ، ولما لم تكن لديه نية للانغماس فى مثل هذه الايماءة اللطيفة ، فقد التفت محسن نحوى وقال : « ولكن ليس معى أية نقود ! » .

وقلت له : « ولكننى رأيتك الآن وأنت تخرج حافظة ملآى بالنقود يا محسن ! » ولكنه أخرج حافظة أخرى أكثر رثاثة وأظهرها خالية وهو يقول : كلا .. كلا .. لابد أنك كنت مخطئا »

وعدت إلى فاروق لأبلغه ذلك ، وثار الملك غضبا وقال :

« عادل .. اذهب واطلب من الحرس أن يجروا تفتيشا ذاتيا لكل الايرانيين لمعرفة إن كانت معهم نقود ! » .. كانت تلك مهمة ينبغى أن يقوم بها أحد الأمناء ، ولحسن الحظ كان أحدهم موجودا وهو محمود بك يونس ، وعلى الفور تولى الأمر ، واستطاع أن يتحدث مع الملك ويقنع جلالته بقبول حل وسط . وفجأة تحولت مأدبة الشاى المقامة فى داخل المبنى إلى حفل فى الحديقة ، فوق مروج النزهة الجميلة ، وبعد دخول وخروج جيش من الخدم ، انتقلت الجماعة التى تضم مائة شخص إلى الحدائق ، وفى نفس الوقت ، وبينما كان الاحتفال مستمرا ، تم تفتيش أمتعة الايرانيين الموجودة داخل الفيللا بهمة .. وفى هذا الحدث ، تصرف فاروق على غرار ما كان الملك هنرى الثامن يمكن أن يفعله فى ظروف مماثلة ، تمشيا تماما مع مذهب الملكية المطلقة .

ومرت الامبراطورة بفترة كآبة عقب عودتها .. كانت تدخن بإفراط ، وبدا أنها فقدت شهيتها ، وكانت أختى هى مرافقتها ، وتعيش معها فعلا فى فيللا انطونيادس . حيث كان الملك موجودا أيضا باستمرار ، وجاءت الملكة نازلى بسحرها الخاص المعتاد واستقبلت ابنتها بعاطفة فياضة واحتضنت ابنها بمشاعر الأمومة الفياضة ، وعلقت فى ألم على صحة ابنتها التى يبدو عليها المرض ، ولم تظهر أى شعور بالاهتياج لأنهم تأخروا فى إبلاغها عن وصولها ، وكان فى استطاعتى أن أرى فاروق يتنفس الصعداء ، فقد كان يتوقع مشهدا انفعاليا مثيرا !

وقد أظهر الحادث أن الملكة نازلى كانت امرأة ذكية حاذقة ، إذ رغم أنها كانت غاضبة فى داخلها على ابنها ، فإنها عكس الملكة فريدة كانت تدرك جيدا أنه لابد من حمايته من الاذلال إذا انتقدته فى حضور الآخرين .. وقد يكون لدى المرء حزازات شخصية ، ولكنه ينبغى أن يحترم ويحمى صورة الملك . ومع ذلك فإننا لم نر الملكة نازلى كثيرا بعد ذلك ، فقد اعتكفت فى فيللتها الصيفية بالرمل ، إعرابا عن خلو بالها بطريقة كريمة فيما يتعلق بمشكلة ابنتها الامبراطورة .

١٧ ـ مجموعة الزهرية

اجتذبت فوزية الآن إلى فلك العالم الزاهى المفعم بالنشاط لأختها فائزة وزوجها التركى بولنت محمد على رؤوف ، اللذين تزوجا حديثا ، وتركزت احتفالات ما بعد شهر العسل فى ركن فاروق ، وهو كشك ملكى رائع المنظر على النيل عند حلوان ، جنوب القاهرة ، واستمرت أكثر من شهر ، وكان من المتوقع أن تستمر أطول من ذلك كثيرا .. كان الضيوف يأتون إلى ركن فاروق فى أية ساعة من النهار أو الليل ليجدوا استعدادات تامة لاستقبالهم . وخلال ساعات الليل كانت فائزة ورؤوف يتناوبان استضافتهم حتى الافطار ، وانضمت فوزية الآن إلى هذا الجو المثير .

كانت القاهرة فى ذلك الحين مكانا تجرى فيه عمليات التسريح التى أعقبت الحرب ، وأصبحت نوعا من مناطق التجميع العسكرية الضخمة ، حيث يجرى سحب الألوية من جبهات القتال فى أوربا لتمر بإجراءات التسريح . وبين هؤلاء كان هناك ضباط من لواء حرس الحياة البريطانى المهيب ، الذين كان لديهم معرفة وثيقة بطرق وقواعد البلاطات الملكية ، وكان هناك بالمثل فتيات بريطانيات نبيلات ممن عملن فى الخدمة العسكرية والدبلوماسية بالقاهرة ، وقد تبين لنا أنهن أصبحن مرافقات مناسبات للأسرة المالكة المصرية . وقد أدرجت فائزة وبولنت أسماء كثيرات منهن فى قوائم ضيوفهما ، والتى أثارت فى إحدى المناسبات حادثا مثيرا للضحك .

وكانت فائزة بصفتها رئيسة للهلال الأحمر المصرى لديها جدول عمل حافل

يتطلب قدرا معينا من المشاركة فى النشاط الاجتماعى الدبلوماسى . وكان عليها فى أحد الأيام أن ترد زيارة للزوجة الانجليزية للسير فردريك ليث روس رئيس البنك الأهلى ، فى وقت لم تكن هناك أى من وصيفاتها فى متناول يدها ، وتطوعت إحدى صديقاتها ، وهى ليدى مارجريت فورتسيكيو ، التى كان والدها ايرل فورتسيكيو ، وأمها وصيفة المخدع للملكة اليزابيث ، لتقوم بعمل وصيفتها فى ذلك اليوم ، مما أثار فزع الجالية البريطانية ، وبصفة خاصة الأعضاء البورجوازيين بالسفارة البريطانية ، وصحبت مارجريت فورتسيكيو فائزة إلى ليدى روس ، وقامت بالعمل الروتينى العادى للوصيفة .

وقد قيل لنا إن هذا الحادث استقبل بالأسى فى بعض الأوساط البريطانية ، التى يفترض أنها أحست بأن ليدى مارجريت قد تخلت عن كرامتها بخدمتها لأميرة « من أبناء البلد » ورغم ذلك فقد وجدت صلات عديدة بيننا نحن المصريين وأولئك البريطانيين ذوى الأصل الكريم ، وكانت مارجريت فى الواقع تقوم بعمل طيب من العلاقات العامة لبلدها ، بإدراكها أن الأسرة المالكة المصرية جديرة بمكانة تماثل تلك التى تحظى بها الأسر المالكة الأوربية .

كان « بلاط » فوزية فى ذلك الحين يضم مجموعة متهورة وبالمقارنة بمثيلاتها الأوربيات ، كانت « المؤسسة » المصرية الشابة التى تتكون من خليط من المصريين ، والجراكسة ، والأتراك ، والألبان ، وسلالة الشرق الأدنى ، مجموعة ذات نزعة فردية عالية ، جامحة وفوضوية إلى حد ما . وعلى عكس الأوربيين ، كانوا يمثلون مجرد جيل أو اثنين ، انتزع من مجتمع إقطاعى كان يميل إلى السخرية بالقوانين ويطأ العادات السائدة ، وفى حالات كثيرة ، أدت نزعاتهم الفردية إلى أطوار غريبة ، وانفعالات شديدة مثل الأمير المصرى الشاب إسماعيل حسن الذى كان لديه عشق مجنون حماسى ، بعرض مشاهد الانتحار من الأوبرا الايطالية فى الساعات الأولى من الصباح ، وفى إحدى المناسبات الجديرة بالذكر ، أعد إسماعيل وأحد أبناء عمومته عملية على غرار جهاز ك. ج. ب للمخابرات السوفيتية . على أحد الروس البيض المسالمين ، يدعى ميشيل بيبيكوف ، واقتحما شقته فى منتصف الليل « لاعتقاله » وخلال هذه العملية أخذا يطلقان نيران مدافع تومى جان الرشاشة من نافذته على الشارع الأسفل .

وكان بيبيكوف ، وهو نفسه صديق مقرب للأميرة وزوجها ، غريب الأطوار بالمثل ، وكان إلى جانب أنه إخصائى فى تحديد جنس الأوز ـ وكانت براعته هذه تدر عليه مرتبا من مدينة لوزان السويسرية ـ يفرط فى الشراب ، مما يؤدى إلى كوابيس وهذيان تجعله يتخيل أحيانا أنه يتعرض لهجوم من نمل عملاق ، ولما كان غير راغب فى التخلى عن شرب الخمر ، فقد قرر أن يكرس نفسه لدراسة النمل ، وكان يقضى لياليه إلى ساعة متأخرة يدرس طباع النمل ، ويتابع أسلوبه

فى الحياة داخل مستعمرات للنمل ذات غطاء زجاجى يمكن نقلها ، وسرعان ما تبعثر فى غرفة نومه بالفندق ، وكان يستشير كتب العلماء والوثائق ، وسرعان ما أصبح بيبيكوف من كبار الخبراء فى حياة النمل مما أكسبه عضوية جمعية علم الحشرات البريطانية المهيبة ، وأدى ذلك بالتالى إلى أحاديث ومحاضرات جعلته يحظى بالاعتراف به كخبير عالمى كبير فى النمل . وكانت هناك أطوار غريبة أخرى تشمل ابن عمى فايد ، الذى كان بين مهاراته الخاصة ، عادته فى جر عربات اليد عبر الشانزليزيه وشوارع رئيسية أخرى فى أنحاء العالم .

وكانت هناك شخصية أخرى هى جابرييل دى صعب الاسكندرى ، وهو كونت بابوى ، كان هدفه الغريب ، هو أن يكون رجل عصر النهضة الكامل ، حيث يضع إحدى قدميه فى ميدان الزراعة ، والأخرى بعالم الثقافة والموسيقى ، وسعيا وراء هذه الغاية ، كان يشتغل بتأليف سيمفونية جريجورية كئيبة ، وكان يوجد أوركسترا سيمفونى ألمانى فى ضائقة مالية وقائده على قيد الحياة ، وكان يتدرب على القيادة مع هذا الأوركسترا ، عادة خلال مواعيد فى وقت الغداء فى الفنادق السويسرية الصغرى ، وكان يعوض مثل هذه الأنشطة الثقافية بشراء أبقار سويسرية لتربيتها فى صحارى مريوط .

غير أن هناك شخصية أخرى نابضة بالحياة ظهرت فى حاشية فائزة ، ولم تكن غير دونالد ماكلين ، الذى وصل إلى القاهرة مع زوجته الأمريكية الحسناء ميلندا لتولى منصب مستشار بالسفارة البريطانية ، كانا زوجين شابين نموذجيين ، حسنى الطلعة يتمتعان بالذكاء ، وما كادا يصلان إلى القاهرة ، حتى سيقا إلى إحدى حفلات فائزة ، وكان السكرتير الأول للسفارة البريطانية فى ذلك الحين قد سأل الأميرة عما إذا كان فى إمكانه أن يحضرهما إلى الحفل مباشرة من المطار حتى يستطيع تقديمهما إلى الحياة الجميلة فى القاهرة منذ البداية . وحدث ذلك ، ولم ينظر ماكلين وزوجته بعد ذلك إلى الوراء أبدا ، وسرعان ما أصبحا محبوبين للغاية لدى مجموعة القاهرة ، التى كان فى استطاعتهما عقد صداقات عديدة معها ، ولم يكن فى استطاعة أحد منا مهما أجهد خياله أن يرى عميلا لموسكو يختفى وراء هذه الواجهة البريطانية الرشيقة ، ولم يكن أى سلوك لماكلين يوحى بأية عمليات سرية وراءه لحساب موسكو ، الواقع أن افتقاده إلى الحذر ، ومباهاته بمركزه الدبلوماسى إلى جانب حماقاته قد تعتبر عوامل لا تشجع أية وكالة تجسس معقولة على استخدامه .

وكان عدم التبصر والسلوك الطائش هو الذى أدى إلى سقوطه فى النهاية فى القاهرة ، وقد أخرج من مصر بسرعة بواسطة البريطانيين ، بعد أن حطم شقة فتاة أمريكية فى ضاحية الزمالك الأنيقة فى لحظة هجر لم يستطع خلالها السيطرة على نفسه . وكان معاونه فى عملية الهرب هو الكاتب والصحفى فيليب تونيبى ، وقد استيقظ الاثنان من صداع الخمر فى إحدى طائرات الخطوط

الجوية البريطانية لاعادتهما إلى إنجلترا . وإذا كان قد أعيد بعد ذلك إلى العمل بوزارة الخارجية البريطانية كرئيس للقسم الأمريكى ، فإنه أمر يبدو مثيرا للدهشة مثل أى شىء آخر فى قصته !

وكانت الفرقة البريطانية ممثلة فى ضباط من ألوية الصفوة المختارة ، وكان هؤلاء يكونون خليطا غريبا من النزعة المحافظة المسئولة ، وفوضى الأطوار الغريبة ، وكانت هذه السلالة الجديدة أكثر اهتماما بالثياب غير العادية ، أو يتسللون إلى « ماخور » أقامه فى الأصل إسكافى مغمور فى قرية الحمام بالصحراء على الساحل فى الطريق إلى العلمين ، وفوق كل ذلك كانوا يرتدون أوشحة حريرية زاهية الألوان من صنع سولكا .. وكان من الطبيعى أن يجتذب هؤلاء الضباط بملابسهم التى تشبه ملابس جمهوريات الموز فى أمريكا اللاتينية ، إلى صالونات القاهرة الرفيعة الثقافة ، حيث تزدهر أزياء باريس مع استمرار الحياة الطيبة رغم الحروب ، وتضاؤل شبح ادولف هتلر .

وكان ديريك كوبر قائد فرقة حرس الخيالة مزيجا متميزا للغاية لضابط ارستقراطى من طراز « أويدا » ممزوجا بقدر من سحر جون بوكان .. طويلا حسن الطلعة على نمط القرن التاسع عشر ، مع شارب كث يتدلى طرفاه ، ونائبه فى القيادة كان الميجور جون جريتيش ، وهو قائد لايهاب شيئا ، متهور ، يبدو ملائما لشخص مرشح لقيادة حرس حياة صاحبة الجلالة ، وهو منصب يتطلب إلى جانب الناحية العسكرية ، خبرة فى الرقص بقاعات الرقص ، وأسلوبا خاصا مع السيدات ، وولاء مخلصا للعرش . غير أن زواجا محطما وطلاقا من جانب واحد (لأنه وزوجته كانا كاثوليكيين) أفقداه فرصته فى الحصول على هذه القيادة المهيبة .. أما بقية الأعضاء الأصغر مرتبة فى حرس الحياة ، فكان بينهم جيريمى ترى الوقور الهادىء عاشق الخيل ، والذى كان مظهره وشخصيته يتناقضان بشدة مع الفورة المفعمة بالشباب للمركيز الشاب « سونى » بلاند فورد .

وكان بين الزائرين الآخرين الكثيرى التردد على دار فائزة الدائمة ، مايكل كيوبيت من آلاى البنادق ، وكان وسيما ضخما ، وهو الآخر كاثوليكى ، وكان شاعرا ورومانسيا ، طويلا نحيلا يميل بصورة خطرة نوعا نحو الاستبطان ، والصوفية ، والنزعات الخفية من مختلف الأنواع . وقد اتهمه ضابط مصرى بغير حق بأنه عشيق لفائزة ، فطرد من مصر بدون كياسة ، ولكن لعل أكثر الرجال طيشا كان جون جرايس ، وكان يرتدى مسوح « الأسقف » على ثوبه العسكرى القذر غير المكوى لآلاى الخيالة الملكى ، ويعمل فى تهريب الأسلحة ، وكان مجنونا بالسيارات ، ويقطع القاهرة كالنجم المذنب غير المنتظم ، تاركا فى أعقابه ذيلا من السيارات المهجورة والنساء اللواتى هجرهن !

وكانت المجموعة الجذابة ذاتها تحوى بعض السيدات البارزات ، ورغم أن

منافستهن مع فائزة الرائعة الجمال لم يكن فى مصلحتهن ، إلا أنهن كن جميلات فى حد ذاتهن . فقد كانت مارجريت فورتسيكيو تشبه « مسز تاتشر فى ثيابها » وكانت تتمتع بالسحر الخاص والشخصية المسيطرة التى تتمشى معها ، وكان أكثر معجبيها مثابرة هو تونى ويرثايمر ، الضابط فى آلاى الحرس الملكى السيىء الحظ المعروف باسم « دراجون جاروز » وكان من أعمدة نادى « الشانزليزيه ترافيلرز » ، وابن كونتيسة مجرية مغتربة اشتهرت بالحفلات التى تقيمها فى لندن . وكانت هناك حسناء أخرى هى المهرانى أوف بالابنور ، وهى استرالية تزوجت مهراجا من الهند ، وكانت ترتدى السارى وتبدو هندية أكثر من الهنود ، كما كانت هناك سيدة هندية أخرى هى مهرانى جيبور ، التى جمعت بين الثقافة الغربية ، مع ارستقراطية شرقية متهيبة نوعا ما . وكذلك كانت هناك الجميلة الفاتنة البهيجة شيلاج باركر المضيفة الرسمية للجالية البريطانية فى الاسكندرية ، وهى نفسها فرع من الجالية البريطانية من أمراء التجارة فى الشرق الأدنى ، وكانت شيلاج زوجة مايكل باركر ، سليل آل باركر فى الاسكندرية ، وكانت تقوم بخدمة والد زوجها الوين باركر (رئيس الجالية البريطانية فى مصر) فى المناسبات العظيمة مثل الحفلة السنوية الراقصة البريطانية للأعمال الخيرية .. وكانت هناك تاتيانا برستون الحسناء نصف الروسية ، التى كانت تغنى أغنيات حزينة تمزق الفؤاد من روسيا القيصرية ، وماريا بيلار سيرانو ذات الشعر الأسود من شيلى بوجهها الأمازونى الرائع ولوحاتها الغامضة ذات الخلفية الزرقاء للنوبيين السود ، والأمريكيتان « القنبلتان » بيى هويتون ، ولقيا لتيل من المنتجات الحديثة لكلية فاسار بكل ما يمثله ذلك من ثقة بالنفس وامكانيات أنثوية .

هؤلاء وكثيرات أخريات كن يواجهن المنافسة المروعة للمصريات ، ومن أبرزهن الأميرات أنفسهن ، فائزة وماهيواش طوسون ، ونسل شاه ، وهان زادة ، وفاطمة طوسون ، وألفيا ونيفين عباس سليم ، وليلى ومنى سامى ، واليان فالساميدس وكثيرات غيرهن .

وقد يتساءل البعض ، كيف كانت تلك المجموعات تحوى مثل هذه النسبة المرتفعة من الأجانب ، ولماذا لم يكن هناك مزيد من المصريين ؟

والرد بطبيعة الحال هو أن الأجانب كانوا يأتون ويذهبون باعتبارهم عابرين ليست لديهم نية الاستقرار وبلا مطامع سياسية ، وبالتالى فقد كان من الممكن اعتبارهم مصاحبين « مأمونين » مثل مماليك العصر الحديث فى الواقع . وهذه المجموعة من الشباب كانت تعيش وفقا لطبيعتها وطبيعة الحياة فى القصور ، حيث يقال ويعمل كل شىء ، بلا عائق ، وخاصة أن فاروق كان يمنع ظهور أخته علنا أكثر مما يجب ، فقد كان على هؤلاء الناس أن يبتكروا وسائل للتسلية داخل البيت ، بعيدا عن الحفلات المعتادة وارتباطات مآدب العشاء .

وكانت بيت فائزة « الزهرية » الذى تديره هذه المجموعة ، يقع بجوار نادى الجزيرة الرياضى مباشرة ، ومن ثم كان موقعه بديعا لمناسبات « الحضور لتناول كأس ». ولا يزال قصر الزهرية ، الذى كان فى وقت ما بيتا للفيلدمارشال ويفل يحتفظ بهالة معينة من السلطة الكامنة ، وقد أنفق زوجها بولنت ثروة على إعادة زخرفة الأجزاء الداخلية « الخالية من الذوق » نوعا من آثار شاغليه البريطانيين السابقين .. وكان هناك رئيس خدم بريطانيا أبيض الشعر يرأس فريقا من الخدم المصريين الأذكياء ، الذين يرتدون سترات بيضاء نظيفة تماما وبنطلونات سوداء وطرابيش ، لخدمة الضيوف ، بفطنة تثير الاعجاب تماما .

وفى نهاية هذا الصيف من عام ١٩٤٥ قرر الملك أن الوقت قد حان لكى تعود فوزية إلى قصرها وإخلاء فيللا أنطونيادس الرسمية . وقد بقى وفد الشرف الايرانى السيىء الحظ الذى جاء معها فى المنزل حتى أقنعهم الاختفاء التام لامبراطورتهم بأن عودتهم إلى إيران أمر مرغوب فيه ، وقد أحسست بالأسف البالغ من أجلهم . فقد كانوا يعاملون معاملة سيئة ، كما جعلوهم يشعرون أن تجارب فوزية فى إيران كانت مثيرة للاستياء ، ولكننى كنت عاجزا عن عمل أى شيء فى هذا الشأن ، حيث أننى نفسى كنت فى ذلك الحين مطرودا وممنوعا من دخول القصر . وكان هذا نتيجة لمكيدة تعسة ضدى أنا وشقيقتى من رجال البلاط الذين كانوا غيورين من مركزنا حيال الامبراطورة ، وقد كانت لنا مقابلة مؤلمة مع الملك ، تحدثت أنا وشقيقتى خلالها عن كل ما فى نفسينا بصراحة غير عادية تماما هزت فاروق المسكين الذى لم يسبق أن تحدث إليه أحد بهذه الطريقة من قبل ، وكانت النتيجة أننا منعنا عن القصر .

وقد استدعتنا الملكة نازلى لتستمع إلى حكايتنا عن الحدث ، ونصحتنى بأن أرى حسنين باشا . وقابلت الثعلب العجوز فى غرفة نومه بفندق ونتر بالاس .

وقال لى : « ينبغى أن أقدم لك نصيحة يا عادل .. لاتحاول إصلاح علاقتك مع فاروق . فإننى أعرف أنه ما إن يتحول عن شخص ما ، فإن ذلك يكون للأبد ، ويجب أن تروض نفسك على ذلك » .

كان يتحدث كمتآمر قديم فى القصر ، رجل يهتم بعزل الملك ، تلك العزلة القاتلة التى كلفت فاروق عرشه فى النهاية . ولحسن الحظ أننى اخترت تجاهل النصيحة ، واستطعت أن أعيد علاقات وثيقة مع فاروق بعد أقل من ستة شهور .

وفى نفس الوقت كانت فوزية قد تركت فيللا أنطونيادس وعادت للعيش مع شقيقها ، كما سمح لفايزة بالذهاب إلى أوربا ، وأصبحت ناهد رشاد وصيفة لفوزية . وبرزت الآن مسألة طلاق فوزية من الشاه على السطح ، إذ أن صاحب الجلالة الامبراطور رغب فى عودة زوجته ، وعندما أدرك أنها تريد إنهاء الزواج ، فقد قبل قرارها بأدب وسلوك لاعيب فيه . وهكذا انتهت ملحمة فوزية ، وبعد أن

أصبح طلاقها رسميا فى ١٩٤٨ تزوجت من إسماعيل شريف ، الذى سيظهر بصورة بارزة فيما بعد فى هذا الكتاب ، وقد انتهز الملك فرصة طلاق أخته لكى يفعل نفس الشيء مع الملكة فريدة ، وبهذا أنهى زواجه فى نفس العام الذى طلقت فيه شقيقته .

ومن الممكن أن نسمح لأنفسنا هنا بتعليق عن فاروق . لقد كان شخصا لا يحس بالأمان بصورة أساسية ، وكان يفتقر إلى القدرة على إظهار أى حكم غير متحيز على الأشخاص الذين حوله ، وتنقصه تلك المزية الممتازة ، التى يجب أن تكون لدى أى ملك .

وأعنى بذلك ، القدرة على اختيار النوع المناسب من المتعاونين معه أو الوزراء ، وكان فى أغلب الأحوال يميل إلى وضع حاشيته المباشرة فوق أى أحد آخر ، مما كان له عواقب خطيرة على المدى الطويل ، كما سيظهر من هذا الكتاب .. وكان محاطا بأشخاص طموحين يضعون مصلحتهم الشخصية فوق مصلحة الملك والبلاد ،.وكانوا يبذلون ما فى وسعهم لابعاد أى شخص تظهر أى دلائل على أنه فاز بثقة صاحب الجلالة .

غير أنه علاوة على جوانب السعى إلى السلطة من جانبهم ، فإن البلاطات الملكية كانت تميل بصورة تقليدية إلى البحث عن اللهو والتسلية وراء الحدود المباشرة لقيودهم الملكية ، فإذا كانت لديك غابات مليئة بالغزلان ، فإنك تذهب للصيد ومعك السيدات بالاضافة إلى الحاشية ، وكان فرنسوا الأول ، أو هنرى الثامن من هواة صيد الوعول وهم على ظهور الخيل فى موكب مهيب ، والأمراء السعوديون اليوم يذهبون للصيد بالصقور ، وكانت مارى أنطونيت تحب القيام بدور راعية الغنم ، وهكذا كان الملل فى حياة البلاط يولد مثل هذا الهروب من واقع المنصب ، وكان هذا نوعا من الكيمياء أثر بقوة على بلاط فايزة بقصر الزهرية ، الذى كان يتسم بالخيال والنشاط ، وبعض الأطوار الغريبة ، واتخذ ذلك شكل غزوات طموحة إلى هواية صناعة الأفلام السينمائية ، وكان مما يشجع على ذلك وجود أشخاص من صناع الأفلام الجادين فى حاشيتها ، وبينهم زوجتى فرانسيس رافسدين ، التى عملت نجمة فى فيلم « خطايا هارولد ديدلبوك » الذى عاد به نجم الكوميديا هارولد لويد إلى السينما ، ثم أطلق على الفيلم عند عرضه فى بريطانيا اسم « يوم الأربعاء المجنون » . وكانت فرنسيس إلى جانب بطولتها فى أول أفلامها ، قد درست الانتاج السينمائى أيضا على أيدى واحد من أشهر مخرجى هوليوود ، وهو برستون ستيرجيس .

ومن المترددين الآخرين على قصر الزهرية واحد من سلالة مجتمع نيوبورت ، هو هارى كوك كاشنج الثالث ، الذى كانت أمه من عائلة فاندربيلت ، وقد جلب معه نفحة من سحر سكوت فيتزجيرالد القديم ، وقد انضم هارى بحماسة بالغة إلى أنشطة صناعة الأفلام ، وقبل مضى وقت طويل بدأ قصر الزهرية يتخذ مظهر

أحد ستوديوهات هوليوود الصغيرة ، وبسرعة تم إحضار معدات عمل أفلام ، من مولدات الكهرباء الضخمة إلى آلات الرفع المتنقلة ، وتكرمت الاستوديوهات الكبيرة بتقديم كل التسهيلات .

وكان بولنت زوج فائزة مخرجا مثاليا . وهو رجل ضخم ودود ، كانت لديه معرفة بالسيكولوجية البشرية ، وقدرة على إظهار ضغوط انفعالية شديدة ، مما مكنه من التأثير فى الأشخاص بصفة عامة ، وهذه الصفات بالاضافة إلى سخرية ماكيافيلية جعلته من المخرجين السينمائيين الذين يستطيعون الحديث وإقناع أكثر الممثلات غباء بأنهن سيصبحن مثل سارة برنار .

وكان نجمنا ، ابن عمى فايد ثابت ، رجلا قصيرا مصابا بعرج طفيف ، وقد ولد مقلدا ممتازا ، ولديه روح مرحة حادة وقاسية نوعا ما . وقد ابتدعنا معه شخصية « مفتش البوليس السرى الممتاز » البروفيسور سترومبولى الذى يشبه شخصية هركيول بوارو الكوميدية ، كما كان سترومبولى أيضا رجل مغامرات على نمط ايرول فلين ، وفى إنتاجنا الملحمى « بترول ورمال » وهى قصة مغامرة تجرى فى الشرق الأوسط ، وقد تحدى مسترومبولى وسكرتيرية (زوجتى) التى كانت تتبعه على ظهر جمل لكتابة ما يمليه على الآلة الكاتبة ، أحد شيوخ الصحراء الأجلاف ومعه مائة من مقاتليه ، وقد قام بهذا الدور بشكل رائع الأمير محمود ناموق ، أحد ورثة العرش العثمانى ، ومن سلالة سليمان العظيم ، وقد هزم مستر ومبولى المسكين ، وأخذ أسيرا ثم قيدوه مثل الدجاج وترك ليلقى حتفه فى شمس الصحراء الحارقة ، ولكنه استطاع أن يحرق قيوده بنظارته ، ويهرب لينقذ ابنة رجل البترول الأمريكى المليونير .

وبطبيعة الحال كانت آلة تصويرنا من طراز بل وهاول ١٦ ملليمترا ، تبدو ضئيلة إلى جانب معدات صناعة الأفلام بالحجم الكامل ، ولكن التحدى جعلنا نقرر أن نصور كل جزء على حدة بأسلوب مختلف لعمل الأفلام ، وهكذا جاء مشهد حريم شيخ الصحراء بشكل يمكن أن يجعله جزءا من ملحمة تاريخية عن حياة الأمير ديمترى وونسكوى الذى أوقف زحف « الجحافل الذهبية » للمغول ، وقد امتزجت بشىء من انيشتاين بمناظر العربدة الجامحة ، والتى ظهرت فيها فتاة حسناء ملفوفة فى سجادة توضع تحت أقدام الشيخ وفتيات حريمه الغيورات ، لكى ترقص « رقصة الغلالات السبع » المثيرة للشهوة . وكان من المقرر أن تؤدى هذه الراقصة ريتاهايورث التى كانت تزور القاهرة فى ذلك الحين مع زوجها على خان ، ولكنهما تشاجرا لسوء الحظ وغادرا البلاد .

وانتهى الفيلم بتصوير حفل راقص بطريقة هوليوود ، كخاتمة لملحمة صناعتنا للأفلام ، وقد صور الفيلم فى قصر فائزة لاضفاء لمسة من الواقعية إلى المسألة ، وقد بعثت الأميرة دعوات إلى أعضاء السلك الدبلوماسى تدعوهم للحضور فى ثيابهم الرسمية الكاملة ، وهكذا استعد السفراء والملحقون لما كانوا

يعتقدون أنه عمل هام ، دون أن يدركوا أنهم سوف يقومون بأدوار الكومبارس فى الفيلم ، وكانت تلك المناسبة من نوع العروض الفاخرة التى اعتادت هوليوود اقامتها فى الأيام الماضية الطيبة ، حيث يستطيع المرء أن يتوقع بسهولة أن يرى نلسون ادى ، وجانيت مكدونلد ، ودوجلاس فيربنكس الابن ، وموريس شيفالييه أو جريتا جاربو وقد ظهروا فى المكان فجأة !

كانت السيدات يرتدين ثياب الرقص الفاخرة ، والرجال يتحلون بأوسمة حقيقية ، وكان كل شىء يبدو وكأنه منظر حفل راقص من فيلم « الأرملة الطروب » مع هالة كاملة من الأصالة ، كان الدبلوماسيون هم الشىء الحقيقى ، فقد كان السفراء سفراء فعلا ، والأمراء والأميرات ، أمراء وأميرات حقيقيين ، والمضيفة شخصية ملكية كبيرة من أسرة محمد على .

ولم نفكر كثيرا ، فى أن هذا سيكون آخر حفل راقص تقيمه الأسرة المالكة فى مصر ، أسرة اشتهرت بمهرجاناتها وحفلاتها ومناسباتها الاجتماعية ذات الزخارف الفاخرة . وقد لوحظ فى أسى أن فاروق لم يدع ولم يحضر ، فقد كان الحشد الموجود فى الزهرية لا يهتم به .. كانوا يعتبرونه هادما للذات . وقد اعترض بولنت رؤوف على اقتراحى بضرورة أن يكون الملك هناك ، ولو بشكل مستعار ، متنكرا فى هيئة هارون الرشيد أو فى هيئة وزير .

وقال بولنت : « لو جاء فسيفسد كل شىء كما يفعل عادة ، ولن يشعر الناس بالراحة . وسيكون السفراء مرتبكين ، بل إن النساء قد يفلت زمامهن .. كلا إننا لا نستطيع إحضاره » .

وكانت تلك مجرد واحدة أخرى من سلسلة غدر لا ينتهى .. كان على فاروق أن يعانيه قبل تنازله عن العرش !

الجـزء الثـالث
ملك موجود .. ولكن !

١٨ ـ « مصر الكبرى »
ضد « مصر الصغرى »

قال لى فاروق فى مباهاة : « لقد نسوا اننى من سلالة محمد على الكبير » ..

كنا نتناول العشاء فى خريف ١٩٤٤ بحدائق فندق شبرد القديم بالقاهرة . وفى اليوم السابق كان فاروق قد طرد حكومة النحاس بما يمكن أن يوصف بأنه انقلاب ملكى .. لقد استيقظ النحاس باشا رئيس الوزراء المذهول ليقرأ صحف الصباح ، وعلم من خلال المانشيتات الحمراء المثيرة ، أن صاحب الجلالة تكرم بقبول استقالة الحكومة الوفدية ، وصحبت الاستقالة المفروضة رسالة شكر لطيفة موقعة من الملك ..

وقال صاحب الجلالة : « ان انقلابى على الأقل لم يكن دمويا ، فى حين أن محمد على اضطر الى ذبح حوالى ثلاثمائة رجل » ..

وعلمنا أن الملك كان قد أرسل سرية من لواء الحرس الملكى الخاص لتطويق مبانى البرلمان ، وقد نضيف الى ذلك أن الحامية البريطانية فى القاهرة لابد أن عددها فى ذلك الحين كان يبلغ عدة مئات من الألوف . ولكن البريطانيين الذين كان من الممكن أن يتدخلوا عادة لصالح الرجل الذى عينوه رئيسا للوزراء لم يتحركوا . وقد حدث « انقلاب » فاروق ، فى وقت كانت الحرب فى أوربا قد انتهت ، وكان البريطانيون مشغولين بمسائل ومنازعات أقرب الى وطنهم . وكان كيلرن بعيدا ، وأخذت حياته العملية تنزلق نحو التقاعد فعلا .

وكان الانقلاب يعتبر نقطة تحول فى الشئون المصرية . وكان المظهر السياسى « لمصر الصغيرة » على وشك أن ينبذ ، وبدأت محاولة محددة تعمل للاستيلاء

على الزعامة المصرية فى السياسات العربية . كانت اقالة النحاس ، والاختفاء الفعلى للتدخل والمذل للورد كيلرن فى السياسات المصرية ، تعنى فى الواقع أن فاروق أصبح لأول مرة فى عهده ، الزعيم الحقيقى لبلده ، بينما أصبح كبار موظفى البلاط ، حسنين باشا وحسن يوسف باشا والباقون وزراء ظل فى حكومة عليا .

ومع حل السلطة الثلاثية التى كان يمثلها مجلس وزراء حزب الوفد ، والسفير البريطانى ، وقصر ضعيف ، موضوع على الرف الى حد كبير ، تولى فاروق امتيازات وسلطات مجلس الوزراء ، ورفع مرتبة القصر ، وبدأ يتمتع بعلاقة أفضل كثيرا مع السفارة البريطانية ، بعد أن انحسر دورها كنوع من ادارة المدارس السياسية . والحقيقة أن البريطانيين ، الذين انغمسوا بشدة فى المشاكل الموجودة فى وطنهم ، وحكومة مستر آتلى العمالية فى الحكم ، لم يكونوا ميالين ولا مستعدين لابقاء أصوات الأبواق الامبراطورية القديمة تدوى فى أرض الفراعنة ..

فما هى نوايا فاروق إزاء هذه الخلفية السعيدة من السلطة السياسية التى استعادها ؟ ..

أولا فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، فإنه دعا الى توحيد صفوف الأحزاب ، وإلى تشكيل حكومة وطنية متعددة الأحزاب ، استبعد منها الوفد . وقد عرقلت جهوده بمشادات طفيفة بين زعماء الأحزاب ، رغم انهم تجمعوا فى النهاية لتشكيل حكومة برئاسة أحمد ماهر باشا زعيم حزب السعديين الموالى للقصر ، وكان فى حكومته الجديدة عضو آخر هو حافظ رمضان باشا زعيم الحزب الوطنى ، والذى كان حتى ذلك الحين يقف متباعدا فيما يتعلق بمناصب مجلس الوزراء . وعاد الى الظهور الآن عامل سياسى ببعض القوة ولعل أفضل وصف له هو المواجهة بين ما يمكن أن يطلق عليه اسم مفهوم « مصر الكبرى » ومفهوم « مصر الصغرى » .

وكان مفهوم « مصر الكبرى » بعبارة تقريبية مستمدا من وجهات نظر سياسية قديمة . فمنذ العصور الأولى من تاريخ مصر ، كانت كما يقول البروفيسور أرنولد توينبى ، « دولة شاملة » أى أن نفوذها وسلطتها كانت فى بعض الأحيان تتجاوز حدودها الطبيعية . ويتضمن هذا الاصطلاح أكثر مما فى كليشيه مصطلح « الامبريالية » الذى استخدم بإفراط ، إذ أن الدولة الشاملة تطبق قيما أخرى فى تأثيرها تتجاوز الأطماع السياسية والمادية للمذهب الاستعمارى فى العصر الحديث ، وتشير هذه القيم الى الزعامة الثقافية ، والروحية ، والفكرية .. وتستطيع مصر ، كدولة شاملة أن تنظر الى الوراء الى مجموعة من الحوادث والأحداث التى تؤيد هذه التسمية . ففى عصر الفراعنة على سبيل المثال ، أدى قلقها على أمن منابع نيلها الى شن حملة مقررة لانشاء

امبراطورية فى الجنوب . ومن الأمثلة الأخرى ، الغارات التى لا حصر لها والتى انطلقت من مصر الى فلسطين ، وسوريا ، وقبرص ، ورودس والتغلغلات فى الأناضول . بيد أن هناك مثلا آخر يمكن التعرف عليه فى السيطرة الثقافية والعلمية للاسكندرية فى عهد البطالمة على عالم البحر المتوسط القديم . وأصبحت مصر فى العصر الفرعونى ، واليونانى ـ الرومانى مكان التقاء للحضارة المصرية ـ الافريقية ـ السامية ، وأحدث زميلاتها ، حضارة اليونان ، وقد أنتج اجتماعها معا ظاهرة اجتماعية ـ سياسية ، كانت لها سيطرتها التاريخية ، وهو ما اخترنا اليوم أن نطلق عليه « الحضارة الغربية » .

وفى الأعوام الأكثر حداثة ، تواصل نفس الكيمياء السياسية عملها . ففى المحيط الاسلامى ، عادت مصر لتصبح حاضرة للامبراطورية لعدة قرون . ومن القاهرة حاول الفاطميون اقامة امبراطورية شيعية فى الشرق الأوسط ، ومن هنا أيضا حطمت الجيوش الاسلامية المد المغولى ، وطردت ذلك الغزو الآخر للأراضى الاسلامية ، الذى سمى بالصليبيين . وامتدت امبراطورية المماليك التى اتخذت قاعدتها فى القاهرة ، لفترة من الزمان من القرنين الرابع عشر والخامس عشر من آسيا الصغرى الى جنوب السودان . وفى القرن التاسع عشر كرر محمد على الجد الأكبر لفاروق نفس الأسلوب ، وأرسل الجيوش المصرية بعيدا حتى كريت واليونان وآسيا الصغرى . وفى عامى ١٨٣٥ و١٨٣٩ أنزل المصريون هزائم ساحقة فعلا بالأتراك ، وتقدموا الى مسافة لا تبعد مسيرتها عن استانبول أكثر من يومين . وكذلك بعث الخديو اسماعيل حملة طموحة الى افريقيا .. انني أذكر كل هذه الأمثلة التاريخية لكى أظهر أن صورة الدولة الكبرى تمثل « استمرارا تاريخيا » فى العقلية السياسية المصرية .

فماذا إذن عن فكرة « مصر الصغرى » ؟ لقد كانت تلك الى حد كبير نتاجا للانتصار العثمانى على المماليك فى القرن السادس عشر ، ونقل الخلافة الاسلامية الى استانبول . وأصبحت مصر لأكثر من قرنين تابعة للعثمانيين . ورغم حالات تمرد عديدة حدثت ضد السيطرة التركية ، ولاسيما تمرد زعيم المماليك الشراكسة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر ، فإن محمد على هو الذى قاد أكثر تمرد فعال ضد الأتراك .

ولقد أدت الانتصارات المصرية المتتابعة على جيوش الامبراطورية العثمانية المضمحلة الى اثارة التدخل الكبير لدول أوربا الغربية العظمى وروسيا . وطوال القرن التاسع عشر ، كانت محاولات انشاء امبراطورية مصرية سعى اليها من خلفوا محمد على وابراهيم باشا ، ولكنها فشلت كلها فى وجه التدخل الأوربى ، وضعف العثمانيين ، وفى النهاية الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ .

ومن هذه الاحباطات برزت وجهة نظر « مصر الصغرى » وكان ذلك فى جوهره نتيجة أن مصر لا يمكنها أن تمضى بمفردها ، ولكنها فى حاجة الى التحالف مع

قوة كبرى من أجل أن تبقى . ومع فرض سياسات « مصر الصغرى » على البلاد بحكم الظروف ، بقيت أفكار « مصر الكبرى » بين صفوف المعارضة الوطنية للبريطانيين .

كانت أفكار « مصر الصغرى » شيئا جوهريا لسياسات شخصيات كبيرة مثل الأرمنى نوبار باشا ، ورياض باشا اليهودى الأصل ، ومصطفى فهمى باشا المحب للبريطانيين ، وبطرس باشا غالى السيىء الحظ ، الذى أغتيل فى ١٩٠٦ بسبب سعيه لاجراء تعديل فى اتفاقية قناة السويس يمتد بموجبه الوجود البريطانى على القناة . أما فى عهد فاروق ، فلعل أبرز مثال لسياسة « مصر الصغرى » هى التى انتهجها حزب الوفد فى وقت الحرب . وقد يجادل البعض بأنه لم يكن أمامهم فرصة كبيرة للاختيار فى هذه المسألة ، غير أن ناقديهم يتهمونهم بالاهتمام الزائد عن الحد بمصالحهم التى يرعاها البريطانيون . وكان اهتمام البريطانيين بفرض وجهة نظر « مصر الصغرى » واضحا .

وبالنسبة لعزام باشا والمصريين من جيله ، الذين أيدوا فى شبابهم قضية البعث والوحدة الاسلامية ، التى كان يروج لها حزب تركيا الفتاة ، فإن حلم إنشاء كيان اسلامى موحد يحكمه برلمان مركزى فى استانبول ، أو بعد ذلك فى القاهرة ، كان حلما ملحا دائما . وكان يحمل معه فوائد لاشك فيها ، ويبشر بحياة جديدة للقضية الاسلامية ، التى استخدمت منذ وقت طويل للتدخل والمناورات من دول أوربا الكبرى .

وإزاء هذه الخلفية ، فإن كشف التحركات الماكرة فى السياسة المصرية فيما يتعلق بالوحدة العربية جديرة بالمراقبة . وقد أصبح فاروق فيما بعد لاعبا أساسيا فى هذه « اللعبة الكبرى » وبفضل خلفيته الكشفية ، وقراءة مجلات الأطفال قد يكون هناك ما يبرر الاستنتاج بأن فاروق فى هذه الناحية ، كان مفتونا بنفس الدعوة الامبريالية التى كانت تدفع بناة الامبراطورية البريطانية . وكان تعيين عزام باشا أمينا عاما للجامعة العربية هى أول خطوة لفاروق فى محاولته من أجل الهيمنة المصرية . وقد أصبحت أنا شخصيا منذ البداية وسيطا سريا لعزام وفاروق ، الذى كنت أستطيع الاتصال به مباشرة عن طريق ترتيب مع بوللى بك ، رجل الملك للشئون السرية ..

كانت الخطة الرئيسية التى وضعها عزام فى خطوطها الأساسية بسيطة . فقد كانت له عن طريق زوجته اتصالات مباشرة بملك المملكة العربية السعودية ، إذ كان والد قرينة عزام باشا هو خالد أبوالوليد الذى كان من زعماء المقاومة الليبية ثم أصبح مستشارا للملك عبدالعزيز بن سعود ، كما كان صديقا شخصيا للأمير فيصل الوريث الشرعى للعرش . وكانت المرحلة الأولى فى التحرك نحو الوحدة سوف تتركز على جامعة الدول العربية .. كان ذلك هو عصر التمثيل الاقليمى ، وكانت مصر احدى الدول الموقعة على ميثاق سان فرانسيسكو فى

مؤتمر ١٩٤٥ الذى أنشأ منظمة الأمم المتحدة . ولم يكن فى استطاعة أحد أن يعترض على تشكيل منظمة اقليمية عربية ، تقوم على خطوط مماثلة ، ولكنها تخدم احتياجات أكثر محلية . والواقع أن ميثاق الأمم المتحدة كان يميل الى تشجيع مثل هذه التشكيلات . وكان لابد بطبيعة الحال من الحرص على اخفاء أية تضمينات دينية أو عنصرية ، ولكن كما قال عزام :

« لم تكن هناك حاجة لأية عبقرية لرؤية البعد الاسلامى وراء انشاء الجامعة العربية ، رغم اننا لن نعترف به أبدا . ان الطبيعة الغالبة للعامل الاسلامى فى الشئون العربية لابد أن تجعل الجامعة فى النهاية جامعة اسلامية . وعلى أية حال ، فإن كلا من اليهود والمسيحيين فى جوهرهم مسلمون ، إذ أن المسلم فى لغتنا العربية يعنى أساسا الخضوع للاله الواحد ..

وقد وردت نظريات عزام بوضوح فى كتاب تمت كتابته ونشره فى ذلك الحين فى طبعات بعدة لغات (بينها التركية) بعناوين مختلفة « الرسالة الخالدة » ، أو « الرسالة الالهية » بالانجليزية ، و « وإبيبدى رسالتى » بالتركية . وكان واضحا أن عزام وفاروق كانا يريان فى الجامعة العربية أداة تدريجية لربط الدول الأعضاء فى وحدة متنامية ، الى أن يبرز ذلك فى دولة فيدرالية موحدة ، وإن كانت الرغبة الكامنة لاقامة سيطرة مصرية أقل وضوحا . ومع ذلك بقيت النية ، ولاشك أن اقامة خلافة حديثة كانت موجودة فى خلفية فكر فاروق ، وسوف نتحدث فيما بعد عن الرابطة الدينية بأنظمتها السياسية .

وفى نفس الوقت استمرت مصر تمثل عاملا مقلقا لصانعى السياسة البريطانية ، وقد علق عزام باشا على ذلك فى محادثة معى فقال :

« ان حكومات أجنبية قليلة يمكنها أن يكون لها ذكاء وعمق التخطيط الذى يقدر عليه الدبلوماسيون البريطانيون ، وتبدو داوننيج ستريت متقدمة الى حد كبير فى هذا الصدد ، ولعل هذا هو الذى يجعلهم يميلون الى النظر الينا فى مصر كمنافسين . ومن الحقائق انه عندما يضطر البريطانيون الى مغادرة الشرق الأوسط ، فإن مصر وحدها ستبقى لملء الفراغ الناشىء » .

ونأتى الآن الى الجانب التكتيكى من « اللعبة الكبرى » التى اتخذت شكل تحالف مصرى - سعودى ، كانت العلاقات بين الوهابيين وأسرة محمد على قد توترت لسنوات عديدة . ففى العشرينات من القرن التاسع عشر ، سحقت جيوش ابراهيم باشا التمرد الوهابى وسلمت زعيمه عبدالله بن عبدالوهاب الى استانبول لاعدامه . وكان على عزام الآن أن يعبىء مهاراته الخاصة مع السعوديين ، وأن يشكل من خلال ذلك ما سيكون فى الواقع محورا سياسيا مصريا - سعوديا .

وكان الملك عبدالعزيز بن سعود قد زار مصر فى ١٩٤٤ للالتقاء بالرئيس الأمريكى فرنكلين روزفلت وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا على ظهر

مدمرة أمريكية فى ميناء السويس . ولم يبلغ فاروق بأمر هذه الزيارة مسبقا ، ويبدو أن كيلرن كان يرغب فى ابعاده عن المشاركة فى اللقاء ، وهو تصرف فظ تافه آخر من تصرفاته ولكنه أحبط لحسن الحظ بواسطة الملك سعود نفسه ، الذى بادر الى تنظيم لقاء سرى مع فاروق فى واحة الفيوم حضره عبدالرحمن عزام .

وقبل مضى وقت طويل توجه الملك فاروق بصحبة عزام لأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة ، حيث استقبله الملك السعودى الشيخ كما يستقبل ابنا له ، وقبل دعوة الملك لزيارة مصر رسميا . وتمت تلك الزيارة فى مارس ١٩٤٦ ، ومنذ ذلك الحين نشأت علاقة سعودية ـ مصرية خاصة . وبتحقيق تجمع يضم أكبر دولة متحضرة فى العالم العربى ، وأكبر وأقوى دولة قبلية فيه ، كان عزام قد شكل أداة سياسية ذات قوة كبيرة مبشرة بالنجاح .

وكان هناك بطبيعة الحال ـ فيما يتعلق بالعلاقة القائمة حديثا ـ الكثير مما يبدو أمام العيون ، فقد كانت المملكة العربية السعودية هى البلد الذى تقع فيه أهم آبار البترول الخام فى العالم ، والأهم من ذلك أن بترولها كان موضوعا لصدام كبير من المصالح البترولية البريطانية والأمريكية . وبعد أن كان الأمريكيون دخلاء فعلا فى أعمال بترول الشرق الأوسط ، جاءوا ووطدوا أنفسهم فى امتيازات بترول المملكة العربية السعودية على نطاق واسع . ومما أزعج البريطانيين بصفة خاصة ، أن هؤلاء الأمريكيين الدخلاء فيما كان يعتبر مجالا للنفوذ البريطانى تماما ، أبرموا صفقات مع الحكومة السعودية تضمنت قدرا كبيرا من السخاء للجانب العربى ، أكثر مما منح للايرانيين وللعراق ، وهما الدولتان اللتان تتعاملان مع المؤسسات البريطانية ، ومن ثم كان يعتبر تحديا للدبلوماسية فى ذلك الحين للافادة الكاملة من هذا الخلاف الانجليزى ـ الأمريكى . وكانت العلاقات مع السعوديين تعنى تجنيد جماعات الضغط البترولى الأمريكية فى واشنطن الى المواجهة السياسية بين بريطانية ومصر .

كانت تلك هى الخطوات التى سبقت محاولة مصر لكسب الأمم المتحدة الى جانب مصر ضد المملكة المتحدة فى « ليك ساكسس » بنيويورك فى أوائل صيف ١٩٤٧ . ولكن الافتقار الى مجموعات ضغط والخبرة فى المناقشات داخل أروقة المنظمة العالمية ، بواسطة الوفد المصرى القليل التجربة الى حد ما ـ وكان برئاسة النقراشى باشا ، أدى الى فشل كسب أصوات متعاطفة فى الأمم المتحدة . ولقد عرض النقراشى القضية المصرية بحماسة وذكاء ، ولكن العملية الضرورية وراء الكواليس للمساومة مع الوفود الأخرى كان ينقصها روح الالهام ، ودبلوماسية الغرف الخلفية المستنيرة .

وفى مجال آخر ، وهو المجال الفلسطينى ، كانت الدبلوماسية العربية أكثر كفاءة ووضوح . فقد كان عزام باشا مشتركا هنا فى أهم عمل للجامعة العربية ،

حيث قاد ونسق المحاولة العربية لمنع اعتراف الأمم المتحدة بدولة اسرائيل وإنشائها . وقد ساعدنا فى ذلك اثنان من اليهود الأمريكيين غير الصهيونيين هما جو ليفى وجيمس باتال اللذان ساعدا جهود علاقاتنا العامة بنشاط ، وبفضلهما تعلمت الكثير من طرق ووسائل اللوبى الأمريكى الحديثة والترويج للقضايا ، واستطعنا أن نقوم بعملية دعائية وصحفية جيدة للقضية العربية . وفى خلفية البرنامج العربى كان الدكتور جودا ماجنس الفيلسوف العملاق أستاذ العلوم الانسانية ورئيس الجامعة العبرية بالقدس ، الذى كان واحدا من كبار مؤيدى فكرة الوطنية الثنائية فى فلسطين .

وكانت المقترحات العربية رائعة بسبب مضمونها المنطقى وتضمنياتها المتحررة ، وكانت فى ايجاز تتكون من طلب رفع الانتداب البريطانى على فلسطين ، على أساس أن الطوائف الاسلامية ، والمسيحية ، واليهودية المختلطة معا على استعداد لحكم أنفسها وينبغى أن تمنح فرصة لكى تتخذ بأنفسها قرارات بشأن المسائل الرئيسية مثل الهجرة غير المحدودة ، وإقامة كيان يهودى منفصل يمارس تفرقة عنصرية ودينية . واقترحت تكوين دولة تشترك فيها الطوائف الثلاث بتمثيل نسبى كامل على كل مستوى حكومى ، كما اقترحت بالاضافة الى ذلك ضمانا من الأمم المتحدة للحفاظ على الهويات الثقافية والقومية لليهود والمسيحيين والعرب فى بناء دولة فلسطين الجديدة . وقال العرب أن البديل سيكون الحرب ، وأبلغ تهديد العرب بخوض الحرب لصالح الفلسطينيين رسميا الى جورج مارشال وزير الخارجية الأمريكى فى يونيو ١٩٤٧ بواسطة عزام باشا ، بناء على تفويض من الجمعية العامة للجامعة العربية . وقد مضى عزام ليقول فى نفس المقابلة أن مثل هذه الحرب ستكون على غرار الحروب الصليبية التى قد تستمر أجيالا ، وهو ما كررت الوفود العربية قوله فى الجمعية العامة للأمم المتحدة .. هكذا كانت قوة الهجوم الدبلوماسى العربى الذى كاد ينجح فى احباط الاقتراع على انشاء اسرائيل ، رغم الظرف غير العادى من اقتراع كل من الأمريكيين والسوفييت بتأييد مشروع القرار . وقد اضطرت واشنطن الى أن تلوى أذرع اثنتين من جمهوريات الموز الصغيرة ، اللتين اضطرتا تحت التهديد بعقوبات اقتصادية أمريكية الى منح القرار الخاص بإنشاء اسرائيل الصوتين اللازمين لحصوله على الأغلبية ..

وفى الختام فإننا يمكن أن نستشهد بكلمات شكسبير فى رواية « ريتشارد الثانى » : « هذه العروش الملكية للملوك .. تلك الأرض ذات الجلالة .. ومقعد المريخ هذا .. » فقد كان لدى مصر هذه الأشياء وأكثر منها . كانت أحلام الامبراطورية تأتى الى حكامها بسهولة :

● الفراعنة ، الاسكندر ذو القرنين ، مارك انطونى الرومانى ، وبعد هؤلاء ، المسلمون ، الذين فتحوا أسبانيا من قاعدتهم فى مصر ، وبلغوا بواتييه فى

فرنسا .. وفيما بعد الفاطميين الذين حلموا بإقامة امبراطورية شيعية ، وصلاح الدين الذى قاتل الصليبيين من أجل امتلاك القدس وانتصر ، وتبعه المماليك ذوو الصفات الفروسية التى لا تقاوم ، الذين قهروا جحافل المغول فى عين جالوت ، وأقاموا امبراطورية تمتد من جنادل السودان الى سفوح القوقاز الباردة .. وفى عصور أكثر حداثة حلم نابليون بونابرت من قصره فى القاهرة بإمبراطورية تشمل فارس ، والهند ، والشرق الأدنى .. ولابد من اشارة تكريم الى جد فاروق ، محمد على وابنه وقائده المهيب ابراهيم ، الذى غزا شبه الجزيرة العربية ، وسحق التمرد اليونانى ، وزحف الى أبواب استانبول .. كل هؤلاء وغيرهم ، الذين يهجعون الآن على سفوح تلال المقطم أو الأهرامات الغربية فى الصحراء ، مازالت أصوات أبواقهم تدوى من بعيد مرددة ذكرى مغامراتهم وفتوحاتهم وحروبهم ..

كان البريطانيون منذ لورد بونسونبى فى عهد فيكتوريا وما بعده ، يعرفون هذا التاريخ جيدا . وعلى أية حال فهم أيضا ذاقوا خمر الفتوح الاستعمارية ، وعرفوا جيدا المنافسة التى يمكن أن تبرز فى المناطق التى يمتلكونها . ولقد قاموا بصورة منتظمة بدور كلب الحراسة على طموحات الحكام المصريين ، واتخذوا عند الضرورة أعمالا مناسبة لاحباط مخططاتهم . وليست بنا حاجة الى أن ننظر الى أبعد من الأحداث التى أحاطت بشق قناة السويس ، التى ما ان تم انشاؤها حتى جعلت مصر قاعدة رائعة لاخضاع الهند فى النهاية ، وبذلك أوجدت مبررا قويا لاحتلال مصر فى ١٨٨٢ ، مما أعطى بريطانيا تسهيلات جوهرية لاقامة امبراطورية افريقية .

ولقد فعل الحكام العسكريون الكبار : كرومر ، كيتشنر ، واللنبى ، ولويد ، وأخيرا بطبيعة الحال كيلرن الكثير لقص أجنحة الزعامة المصرية .. ونحن فى القاهرة نعتقد أن غوردون قد ضحى به لصالح النصيب البريطانى فى السودان من خلال اعادة فتحه . وبالمثل أحبطت عمليته نمو الزعامة داخل المجموعة المصرية ، وقد عمل كرومر على تأكيد ذلك بإحضاره مستر دنلوب من دلهى ، حيث كان يعمل مربيا للهندوس وموظفى الحكومة الهندية . وكان هو الذى دعا الى الطاعة العمياء ، التى لا تزال تحوم فوق معاهد التعليم المصرية حتى اليوم !

١٩ ـ الجامعة العربية والحرب العربية الإسرائيلية الأولى

كان هناك حلم آخر بالامبراطورية يمكن تبنيه فى عهد فاروق ، وقد ألمحت اليه فعلا فى أماكن أخرى من هذا الكتاب .. كان من الممكن رؤيته فى جهود على ماهر باشا والشيخ المراغى وعزيز المصرى باشا وآخرين لوضع أسس دولة اسلامية عصرية .. وهنا أيضا عمل كيلرن لوضع فرملة على الأمور ، وكان قد طلب من فاروق أن يقبل على ماهر وعزيز المصرى باشا واخرين بوضع أسس دولة اسلامية مصرية وهنا ايضا عمل كيلرن لوضع فرملة على الامور وكان قد طلب من فاروق ان يقبل على ماهر وعزيز المصرى فى ١٩٤٠ ـ كما رأينا ـ ومع عودة فاروق الى السلطة فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حدث تغيير مثير للمشهد ، كان الملك حرا لبدء صحفة جديدة فى محاولته للهيمنة ، وهى عملية ترمى الى جعل الجامعة العربية قوة عظمى جديدة .

ولبلوغ هذه الغاية كا ن مطلوبا براعة معينة لصالح الوحدة الفيدرالية ، ولم تكن مصر قادرة بقوتها الخاصة أن ترجح كفة الميزان ، وكان من الضرورى وجود عنصر عربى قبلى وتقليدى يتمم ويكمل المصريين المتحضرين المتطورين والتقدميين . وقد حقق التحالف مع المملكة العربية السعودية هذه الحاجة ، وهذا بدوره أدى الى سيطرة مصرية ـ سعودية داخل التصويت فى الجمعية العامة للجامعة العربية . كان حلم انطونى ايدن بجامعة عربية تستخدم خادمة للسياسة البريطانية فى الدول العربية قد واجه يقظة عنيفة فى أكتوبر ١٩٤٦

عندما وافقت هذه « الاداة » التى شجعتها وزارة الخارجية البريطانية على ادانة السياسة البريطانية تجاه مصر ، خلال اجتماع لا ينسى لمجلس الجامعة العربية بالقاهرة ، بل أن لبنان وسوريا اللتين كان من المتوقع أن تبقيا محايدتين ، منحتا صوتيهما للمصريين ..

وقد أوضح عزام باشا أمين عام الجامعة العربية السياسات التى تعتزم الجامعة انتهاجها ، فقال : « اننا نؤيد حق تقرير المصير لكل الشعوب ، وسنبذل أقصى ما فى وسعنا لتحقيق ذلك . بل اننا سنقف الى جانب الشعب الألمانى ، لأن تقرير المصير مبدأ عام .. وقد وضحت هذه المشاعر بعد وقت قصير ، عندما أصدرت الجمعية العامة للجامعة العربية اعترافها بسوكارنو وتأييده . وقبل أن تنهى هولندا نزاعها مع أندونيسيا ، كانت الجامعة العربية أول مجموعة من الدول تعترف باستقلال أرض آسيوية بعيدة جدا عن الشرق الأوسط . وقيل فى ذلك الحين أن نهرو شعر بانزعاج شديد لهذا التطفل العربى فى الساحة الخلفية للهند .

وكانت هناك مبادرة أخرى من هذا النوع ، وإن كانت أكثر قربا من الوطن ، وهى المفاوضات السرية التى أجراها عزام باشا والسفير الايطالى الكونت فراكاسى فى جليمونو بولو بالاسكندرية فى أواخر ١٩٤٧ عندما أبرمت صفقة مع الايطاليين ، وبمقتضاها وقفوا الى جانب الجامعة العربية لمساندة التحرك من أجل استقلال ليبيا ، ورفع الحماية عنها فى الأمم المتحدة ، مقابل تأييد العرب لصالح المصالح الايطالية فى الصومال .

وكان من الممكن تبين حدوث صدام خفى مع الغرب فى كل هذه الأنشطة . وبسبب المثالية الروزفلتية المتبقية الى حد كبير ، فقد يكون من الممكن الاعتماد مبدئيا على الأمريكيين للتعاطف مع مثل هذه المواقف العربية ، غير انه مع مرور الوقت وظهور ادارة ترومان الموالية للصهيونيين ، بدأ الضغط العربى فى واشنطن يفقد أرضه . وقد أشارت وفاة جيمس فورستال وزير الدفاع الأمريكى الذى مات منتحرا ، وكان خصما قويا للأطماع الصهيونية فى الشرق الأوسط ، بوضوح الى قوة الصهيونيين . وقد لقى فورستال حتفه وهو فى حالة كآبة ، كانت نتيجة مفترضة ـ لفشله فى احباط تكوين دولة اسرائيل ، والحملة المكثفة لتشويه سمعته والاهانات التى وجهت اليه . وهنا بالفعل اشارة حقيقية الى قوة المؤسسة الصهيونية فى واشنطن . فقد بلغ من قوتها انها تحكمت فى المصالح القومية الأمريكية ، وكذلك فورستال وجيشه من المستشارين .

وهكذا اعتبر الصهاينة عنصرا مروعا فى لعبة السلطة ..

ولم يكن الوفد العربى فى الأمم المتحدة ندا للصهيونيين ، الذين لم يكونوا قادرين على فرض أنفسهم فحسب ، بل استطاعوا أيضا اخماد معارضة لم تكن هينة داخل الصفوف اليهودية . وكانت رؤية مناهضة قوية للسامية داخل

المجتمع الأمريكى أمرا يثير بعض القلق ، وهى ظاهرة يحتمل أن تثير ردود أفعال مباشرة موالية لليهود فى الانتخابات .

وقد كانت لى تجربة طريفة فى ذلك الحين ، إذ اننى لما كنت مسئولا عن العلاقات الصحفية ، فقد أدهشنى أن أجد أن تلك الصحف التى تمتلكها مجموعة « واسنبر » التقليدية ـ وأعنى مؤسسة الأمريكيين الانجلو ـ ساكسون البروتستانت البيض ، والتى كانت معادية للسامية الى حد كبير ، كانت موالية للصهيونية بشكل ملحوظ ، فى حين أن صحيفة نيويورك تايمز التى يملكها اليهود ، كانت أكثر اتزانا فى آرائها ، كما كانت صحيفة « نيويورك ميرور » التى تصدر فى حجم صغير ، كانت موالية للعرب بشكل مدهش تماما رغم أن ملاكها كانوا من يهود نيويورك . وقد وجد تفسير جزئى لهذا اللغز ، عندما تذكر عزام باشا حديثا دار بينه وبين سيد متقدم فى السن فى القطار فى طريق عودته من واشنطن . وقد تبين أن هذا السيد العجوز هو صاحب الميرور ، وانه مثل كثيرين غيره من قبل كانوا ضحايا لبلاغة عزام باشا .

لقد قال عزام باشا : « لقد هددنا بالحرب ، ومن الضرورى أن نستعد للحرب . ان التهديد بالحرب اذا أخذ على محمل الجد قد يؤدى الى قرار مقبول وحل وسط . وعرضنا للسلام الذى يضمن الحقوق السياسية للمسيحيين والمسلمين واليهود فى فلسطين عرض معقول ومنطقى ، وفى النهاية يمكن أن تقبله الطوائف الثلاث تماما بما فيها اليهود ، ومن الممكن أن يكون أساسا لتفاهم دولى ، ومثل هذا التفاهم أمر ممكن اذا استطعنا اقناع دول الأمم المتحدة اننا سنكون عازمين على القتال من أجله ، واذا لم نكن مستعدين للحرب ، فسوف نفقد كل مصداقية ، وسوف يفرض علينا حل يمالىء الصهيونيين » ..

وطلب منى أن أؤكد وجهة النظر هذه للملك . وعندما طلبت مقابلة الملك ، طلب منى جلالته أن أذهب الى قصر عابدين ، حيث استقبلنى فى احدى غرف الطابق الأول ، وهو مكان يكاد يخلو من الأثاث ، ذو جدران بيضاء ويحوى أثاثا قليلا بسيطا ..

وبعد أن سلمت رسالة عزام ، سألنى قائلا : « حسنا .. ما رأيك ياعادل ؟ »

فأجبت : « انه يبدو منطقيا يا صاحب الجلالة .. ان بعض الناس كما يبدو يعتقدون اننا نعنى الحرب ، حتى الجنرال سبيرز اعتقد أنه يجب أن يحاول إثناءنا عن ذلك » ..

وكان الجنرال السيرادوارد سبيرز ، الذى يميل الى الفرنسيين ، يزور القاهرة ، وقد وصفت للملك الحديث الذى دار فى مأدبة غداء أقامها حافظ رمضان رئيس الجزب الوطنى ، وكان كبار الوزراء جميعا حاضرين فيها . وقد سألهم سبيرز عما اذا كانوا يوافقون على خوض الحرب ، وكان الرد هو : نعم .. وعندئذ وجه سبيرز تحذيرا قائلا : « أيها السادة ، عندما تذهبون الى الحرب ،

فسوف يتكشف واحد من أمرين ـ قوتكم أو ضعفكم ، وإحساسى انه سيكون ضعفكم » .

وقال فاروق : « أعرف ذلك ، فإننى أتعرض لضغط للتخلى عن فكرة الحرب ، ولكننى أعتقد أن مصر سوف يجللها العار اذا تخلت عن الالتزام الفلسطينى وليس لدينا أى بديل الا احترام السياسة التى بدأناها .. أما فيما يتعلق بالدول العربية الأخرى ، فإننى سأعقد مؤتمرا لملوكهم ورؤسائهم من أجل تنسيق السياسات وتحقيق جبهة موحدة فى وجه هذا الموقف » ..

وخلال حديثنا الذى دار فى ١٩٤٨ لم يذكر الملك شيئا عن الصفقة التى أبرمت بين ملك الأردن عبدالله والاسرائيليين ، ولعله لم يكن يعرف شيئا عنها .

وكان دور فاروق فى تشجيع حرب ١٩٤٨ موضع مناقشات كثيرة ، فقد انتقد واتهم بأنه من تجار الحروب لأنه دفع بالبلاد الى حرب لم تكن معدة جيدا لها ، بل وانه المخطط الرئيسى للكارثة . ومن ثم فإننى أعتقد أنه ينبغى وضع الأمور فى نصابها الصحيح . ان سنوات طويلة من الخضوع لبريطانيا جعلت أذهان الزعماء المصريين متبلدة وكان من أعراض ذلك العجز عن الربط بين السياسة بالنتائج والعمل الذى يليها . والتهديد بالحرب ليس مناورة خفيفة فى أى وقت . والكلمات إما تكون جوفاء ، وإما أن تؤخذ جديا ..

وليست هناك دولة يمكنها تحمل أن تكون عابثة فى تهديداتها ، أو فى خطب وزرائها . وكان فاروق لديه مبررات كاملة فى أن يتابع السياسات التى وضعتها أغلبية الدول العربية . لقد كانت حرب فلسطين بالفعل أول اختبار لفعالية الجامعة العربية ، وكانت سمعة أعضائها موضع اختبار هنا . ولعل غلطة فاروق الى حد كبير هى الاعتماد على حسن نية حلفائه .. وكان يفتقر الى عقلية السوق القادرة على التمييز بين الواقع والمبالغة فى الأقوال .. وقد خدعه فعلا الملك عبدالله الأردنى ، كما أن المصريين بصفة عامة غدر بهم حلفاؤهم ، الذين كانت مشاركتهم فى الجبهة المشتركة إما لا تذكر وإما تتضمن خيانة ..

والقول ـ كما فعل البعض ـ بأنه كان ينبغى أن يعرف أن جيشه قد لا يكون قادرا على كسب معركة مع اليهود خاطىء أيضا . فالجيش المصرى فى ذلك الحين كان مدربا تدريبا جيدا ، حسن التنظيم ، وروحه المعنوية مرتفعة ، وهو ما شهد به اليهود أنفسهم . وفى المواجهة مع القوات الاسرائيلية النظامية مثل البالماخ والجماعات الارهابية الأخرى ، استطاع الجيش أن يؤكد وجوده ، مما يبرر تماما الثقة التى وضعها فاروق فيه .. فلماذا كانت الهزيمة إذن ؟ ان الرد الأول هو أن الجيش دخل حرب فلسطين وليس لديه الا مخزونات من الامدادات والتموين تكاد تكفى ثلاثة أيام . وفى الوقت الذى وصل فيه الى غزة كانت الذخيرة قد نفدت . ولم تبذل أية جهود بواسطة القيادة العليا خلال الشهور التسعة كلها التى كانت متاحة للاعداد للحرب ، فقد نوقشت قضية فلسطين

فى ١٩٤٧ . والواقع أن اللواء حيدر باشا ورجاله من الضباط غير الأكفاء لم يفعلوا شيئا للاستعداد للحرب . وفى الوقت الذى فرض فيه حظر الأمم المتحدة على شحنات الأسلحة كانت الفرصة قد ولت ..

ومن الصعب سرد كل الأدلة الواضحة على التخطيط غير الكفء للامدادات والتموين . ومن الواضح أنه كان من السهل تنظيم مشتريات كبيرة من الذخائر للمدفعية التى تستخدم على أية حال المعايير البريطانية القياسية ، كما أن الحكومة البريطانية كانت تتخلص من كميات كبيرة من المواد الفائضة ، ولم يكن هناك أى سبب يحول دون حصول الجيش المصرى على مخازن كاملة من كل شىء يكون فى حاجة اليه ، من ذخائر مدافع برن الى قذائف بحرية عيار ٦ بوصة ، ولوريات كانت تباع يومئذ فى السوق المدنية بحوالى مائة جنيه مصرى للواحد . وفى منطقة قناة السويس فوق الأرض المصرية كانت توجد مخازن تزود جيشا يزيد على المليون ، وكان البريطانيون مستعدين لبيعها ..

وعندما كنت ضابط فحص بالجامعة العربية مسئولا عن تجار الأسلحة ، أخبرنى البريطانيون أن حمولة قطارين من الذخائر للجيش المصرى تم تجهيزهما فى فايد على قناة السويس ، وانها لا تحتاج الا لقاطرات مصرية لسحبها الى حيازة الجيش المصرى .. كان ذلك قبل عشرة أيام كاملة من الحظر الذى طبق ، ولكن لا حاجة للقول بأن شيئا لم يحدث بشأنها . ولا يمكن تحت أية ظروف اعتبار فاروق مسئولا عن مثل تلك الأمور ..

وفى مجال آخر من الاستعداد العسكرى ، يمكن أن يشير المرء بأصبعه الى عدم كفاءة العاملين فى هذا المجال . ففى عصر ، كانت الحرب منذ فترة قريبة قد بدأت تجرى بفرق مدرعة ، تكتيكاتها هى حرب تحرك التفاف ، وتطويق ، أمر قادة الجيش المصرى باتباع طريقة للقتال كانت شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر . وبعثوا فرقا من المشاه يحملون السونكى ، حيث كانوا يحصدون بواسطة المستوطنين اليهود المتحصنين جيدا والمسلحين بمدافع رشاشة متينة جدا . وكانت الخطوة التالية اساءة استخدام صارخ للمدفعية ، حيث كانت الذخائر الثمينة تبدد فى قصف الاسرائيليين القابعين فى الخنادق والمتحصنين . وثمة سخافة أخرى هى تطويق المستوطنات الاسرائيلية ، وبذلك يجبرون المستوطنين على القتال حتى الموت ، فى حين أن توفير امكانية الانسحاب أمامهم من الممكن أن يدفعهم الى الفرار ..

وعلى أية حال ، فقد كان رد فعل الجنرال الألمانى شميت جديرا بالاهتمام ، فقد قال :

« سيد ثابت . لماذا تقلقكم مستوطنة صغيرة شبه مدنية ، غير قادرة تماما على شن هجوم جانبى ضد جيشكم ، ولو أن ضباطكم قرروا تجاهلها وتجاوزها

لوصلوا الى غزة بما معهم من ذخائر ، ولأسرع المستوطنون عائدين الى خطوطهم بلا نظام . لقد كان الجيش المصرى حقا رغم عدم استعداده أقوى كثيرا نسبيا من الفيلق الافريقى الألمانى عندما اضطلع بمواجهة البريطانيين أول مرة ..

٢٠ ـ سبب الهزيمة وعواقبها ..

لعل حرب ١٩٤٨ مع اسرائيل .. كانت واحدة من أسوأ الحروب فى التاريخ الحديث .. كانت نتاجا غير عادى فى تصورها ، والاعداد لها ، لقد وضعت موضع التنفيذ بوساطة فريق دولى من الملوك ، ورؤساء الوزارات ، والسياسيين ، يطيعون جميعا ولاءات مختلفة ، والكثيرون مستعدون سرا للغدر بواحد من الآخرين لاسباب انتهازية .. ومن بين هؤلاء جميعا أصبح فاروق الضحية البريئة ، وكان على بلده ، مصر ، أن تدفع أعلى ثمن من الرجال والأموال وتكاليف الحرب الأخرى .. لقد فقدت مصر عدة آلاف من القتلى والجرحى ، بالاضافة الى سمعتها ، وفقد الملك عرشه فى النهاية !

ولكن دعونا نبدأ من البداية .. فرغم التحذيرات المتكررة من الدول العربية بأن الحدث سوف يطلق سلسلة من ردود الفعل تستمر أجيالا ، فإن العالم الغربى بمساعدة صوت روسيا أثار الدهشة ، استخدم العنف الى حد الموت لانشاء دولة اسرائيل من خلال الأمم المتحدة . وقد أمكن الحصول على الأغلبية اللازمة فى الجمعية العامة من الأصوات لدخول اسرائيل المنظمة الدولية فى آخر لحظة بضغوط أمريكية على دولتين صغيرتين من دول أمريكا اللاتينية ، كانتا عاجزتين عن مقاومة عملية لوى الذراع من دولة عظمى . وبمجرد أن برزت اسرائيل للوجود أصبحت تحديا مباشرا لاعضاء الجامعة العربية ، الذين كان كل منهم قد هدد بالحرب فى مناقشات مجلس الأمن حول هذا الموضوع ، وبذلك ألزموا أنفسهم برد فعل مسلح ، ولم يكن لديهم فعلا أى خيار عدا احترام التزاماتهم ، مهما قد تبدو لنا الآن ..

وكان دورى كحلقة اتصال بين عزام باشا والملك يحوطه كتمان شديد ، ومع ذلك فقد وجدت نفسى فى وسط الأحداث ، فقد طلب منى عزام ان أؤكد لجلالته الحاجة الى اتخاذ اجراء عسكرى فعال ، حيث أن الأمر يتعلق مباشرة،بسمعة مصر . وكان على أن أذكر الملك بمحادثاته مع عزام ، وان أسعى لمقاومة تأثير آراء سلبية معينة ربما تكون قد قدمت لاقناع جلالته بالبقاء ساكنا . وكان الملك محاطا بعصابة من منافقى القصر والمتملقين ، ممن يمكن شراء ولائهم ، والذين كانت آراؤهم تعكس الكثير من المصالح غير المصرية . وكان مما يساعد الجانب السلبى بقوة .. هو ميل كبار قادة الجيش بزعامة حيدر باشا وزير الدفاع جديا الى توقع الحرب العلنية أو الاعداد لها .

وهكذا كان فاروق يواجه مأزقا .. فقد كان فريق عزام يطالب باستعداد جدى للحرب ، والتى كانت عدا الاعتبارات العسكرية المحضة ، تتطلب قدرا عاليا من التضامن والهدف العربى ، وفى مقابل ذلك كان فاروق يواجه عمليات حث من أصحاب نفوذ آخرين فى القصر ، تعكس اتجاهات ملوك عرب آخرين ، وخاصة ملك الأردن عبد الله ، الذى كان يعمل بنشاط للتعامل مع الاسرائيليين سرا وخاصة والتر إيتان ومسز مائير للوصول الى تقسيم فلسطين لصالح الأردن ، ولكن فاروق استطاع أن يقاوم هذه الضغوط القوية ، وان يمضى فى الطريق المشرف الذى اقترحه عزام باشا .

وكانت طريقة عزام فى المناقشة بسيطة نسبيا .. ان الدول العربية التى أعربت جديا عن التزامها بحرب تحرير فلسطين فى مجلس الأمن فى حاجة الى تذكيرها بأن الواجب يفرض عليها احترام مثل هذا الالتزام . وحث عزام فاروق على أن يستخدم نفوذه وهيبته لدى الزعماء العرب الآخرين لجعلهم يوافقون على ما تريده مصر . كما ان الحرب الوشيكة كانت تطلب بالمثل أن تستعد الجيوش العربية لهذا الاحتمال ، وانها تحتاج الى مساندة بواسطة تعبئة مناسبة للموارد .

وقال عزام انه ليست هناك ضرورة لاعلان رسمى للحرب ، واقترح بدء حملة مكثفة لحرب العصابات فى فلسطين ، وكذلك تحويل كل الموارد العربية الممكنة الى انشاء وتجهيز قوة جوية عربية قوية وساحقة . وفى ضوء ذلك ، فإنه مما يثير السخرية ان نسجل هنا.كيف أنه رغم جهود فاروق ، فإن مجموعة الجيش برئاسة جيدر باشا لم تفعل الكثير للتأكد مسبقا ان القوات التى تدخل فلسطين مزودة بقدر كاف من الذخائر والمعدات العسكرية الأخرى .

وقد يجدر بنا ان نشير بصورة عابرة الى أنه كان بين الموارد العربية التى لم تستغل على الاطلاق ، ذلك الشعور المرير لدى الجيش البريطانى المعادى لمنظمة أرجون ، والمناهض للصهيونية . وكان البريطانيون فى محاولتهم لادارة الانتداب على فلسطين ، قد وجدوا أنفسهم بمجرد هزيمة النازيين ، يتحملون عبء

التكتيكات الارهابية الرائدة لمنظمة ارجون . ولو أنها شكلت قوات دولية غير نظامية ، كما اقترح عزام باشا ، لما كان هناك أى شك فى أن الكثير من الضباط البريطانيين ومن الرتب الأخرى سينضمون الى العرب .

وهناك جانب آخر للأمور يلفت النظر فى ذلك الحين ، وهو الوصول المفاجىء لعشرات من تجار الأسلحة الدوليين الى المسرح . وكان من بين واجباتى فى الجامعة العربية أن أقوم بغربلة كبار تجار الأسلحة الذين جاءوا ليعرضوا بضاعتهم . وكان هؤلاء عصبة متعددة الألوان ومثيرة للاهتمام ، وكان بينهم أوتوسكورزنى كولونيل الكوماندوز الألمانى الذى أنقذ موسولينى بعد انهيار الفاشية فى ايطاليا ، وهو الآن يعرض علينا غواصة ألمانية كاملة مع نصف طاقمها مقابل مليون دولار ، كما كان هناك أيضا بات دومثيل ، الرئيس السابق لمخابرات السلاح الجوى الملكى البريطانى فى البلقان ، وكان دومثيل ابنا للأميرال دومثيل الذى كان رئيسا لجمعية الصداقة الانجليزية الألمانية فى بداية الحرب ..

وكان هناك عضو آخر فى هذه المجموعة من تجار الأسلحة هو السفير التركى السابق لطفى توزان ، الأنيق الذى كان يعتبر نفسه ارستقراطيا فى تجارة الأسلحة ، فكان يقول لى مثلا : « عادل بك . اننى لا أهتم بأية صفقات تقل عن مليون جنيه ! » وكان سفيرا لتركيا فى صوفيا خلال الحرب ، وعمل مع بات دومثيل فى تسليح ميخائيلوفيتش والتشتنيك فى يوغوسلافيا ، وقد استخدم الثروة التى جمعها من هذه الصفقات بصورة قانونية لشراء أسهم مؤسسة أورليكون السويسرية للأسلحة وشركة هوتشكيس الفرنسية ، وباعتبار توزان شريكا ذا نفوذ فى هاتين الشركتين ، فإنه كان يتمتع بقدرة مؤثرة على تسليم سلع عسكرية أساسية معينة . وكان يعيش فى هدوء فى فيلا فاخرة تطل على بحيرة جنيف ، حيث كان يحيا حياة نموذجية فى نطاق قواعد المواطنة السويسرية والعادات السويسرية الدقيقة ، وذلك فيما بين غزواته فى سوق الأسلحة بين حين وآخر ..

ثم كان هناك بعد ذلك الأمريكى هارى بلانك ، الذى كان متزوجا من المطربة التونسية اللامعة حسيبة رشدى . وكان هذان الزوجان صورة أقوى من الحقيقة لهذا النوع من الأشخاص الذين تتوقع ان تراهم فى أحد افلام همفرى بوجارت أو هيتشكوك .. كان كل هؤلاء وغيرهم عصبة متعددة الألوان من المحترفين ، أو أحيانا تجار أسلحة ، يستطيعون تجنب قرارات الحظر ، ومن الساعين الى الاثراء بسرعة ، مع العميل الاسرائيلى الغريب الذى ينفذ من الأنظمة العربية .. كان هؤلاء نوعا من المغامرين الذين اختفوا اليوم بصورة عامة ، وقد أبعدوا عن هذا العمل بعد أن تولت عملية تجارة الأسلحة السرية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أو غيرها من المنظمات المستترة التى تخدم مصالح القوى العظمى .

وكانت السلع التى عرضت علينا مختلفة تتراوح ما بين غواصة سكورزنى عن طريق ميناء مالبرى ، الى مجموعة ضخمة من السلع الحربية التى تباع سرا بواسطة رجال مشبوهين مجهولى الهوية . وكانت المعدات ذاتها تأتى من مسافات بعيدة مثل اليابان وكوريا ، حيث تركت الفترة التى أعقبت الحرب أكداسا من الأشياء المختلفة ، أو من أماكن أقرب الى الوطن ، إذ وجدت مخابىء ضخمة من المعدات فى اليونان وجزرها من بقايا الحرب ضد ألمانيا النازية ، وكان الكثير منها ملقى للصدأ تحت شمس البحر المتوسط الساطعة ، أو الكهوف التى تجتاحها مياه البحر . وعندما تم شراء بعض هذه المواد بحسن نية بمقتضى برنامج "سريع" للحصول على الأسلحة ، ووجدت غير صالحة للاستخدام وخطرة ، آثار ذلك اتهامات عن عقد صفقات أسلحة فاسدة ، وحتى الملك لم يسلم من الادانة بصورة غير مباشرة وفتشوا قصره بحثا عن أدلة ، ولكنهم لم يجدوا شيئا ..

ولكن بعد كل ما قيل وعمل ، فإن حرب ١٩٤٨ ضد اسرائيل ضاعت من خلال مجموعة متحدة من عدم كفاءة القادة العسكريين المصريين ، والحلفاء العرب غير الموثوق بهم ، وبطبيعة الحال غدر بعض ملوك العرب . وكان على فاروق باعتباره المخطط الرئيسى للحرب أن يتحمل وطأة الاتهامات المضادة ، وحدثت عملية تغطية ، دبرها قادة الجيش غير الأكفاء بتوجيه الاتهامات ضد جلالته وعزام باشا ، ولكن لو أنه حدث اعداد جدى للحرب فى الوقت المناسب ، لما وجد الجيش أية صعوبة فى جمع ذخائر كافية ومخزونات من امدادات التموين العسكرية للاشتراك فى حملة طويلة .

ولكن كما تبين بعد ذلك ، فانه بسبب التبديد غير الحكيم للذخيرة وقذائف المدفعية على أهداف فرعية وغير هامة نفدت الذخيرة من القوات المصرية ، عندما وصلت الى غزة فى بداية الحملة ، واضطرت الى البقاء ساكنة فى نقطة حرجة من التقدم ، ودارت اتصالات محمومة بتجار الأسلحة لتقديم المعدات الضرورية . وفى ذلك الوقت كان الاسرائيليون قد اتيحت لهم فترة راحة ثمينة لدعم مستودعاتهم العسكرية ، وقد فعلوا ذلك بكفاءتهم المعهودة ، وقدرتهم التى يضرب بها المثل على تعبئة التأييد الودى فى كل أنحاء العالم .

وقد جعلت التجربة فاروق على وعى حاد بمواطن ضعف جيشه ، ومن ثم فإن اصلاح القوات وإعادة بنائها أصبح عاملا أساسيا فى جدول أعماله . ومن الناحية الأخرى ، كان حيدر باشا وزير الدفاع منهمكا فى ابعاد أولئك الضباط الذين أثبتوا وجودهم فى الحرب مثل عبد الناصر ورفاقه ، والذين قد يتمكنون من الوصول الى الملك وعرض انقاداتهم عليه . وقد تم ذلك بحيلة بسيطة .. وهى ابعادهم الى حاميات بعيدة عن القاهرة .. أو بشن حملة تصفهم بأنهم ثوريون سياسيون خطرون . ولكن عندما جاء التحدى لحيدر ، فانه بدأ من جهة أخرى

تماما .

لم يكن حيدر باشا قائدا حربيا ، ولم تكن حياته العملية لتؤهله لمثل هذه المهمة . وقد اختير بسبب ولائه للملك ، وكان قد قام فى مرحلة سابقة باحباط ما كان يبدو محاولة لاغتيال الملك ، وذلك بالهجوم على القاتل المزعوم واسقاطه على الأرض بجواده وسيفه . وقد فرض نظاما بالغ المركزية على القوات ، وسعى لادارة الحرب من مقعده الكبير المريح بثكنات قصر النيل . وقد قيل ، وان كان يبدو انه شىء لايمكن تصديقه ، انه لم يكن فى استطاعة قادة المدفعية أن يفتحوا النار على العدو الزاحف ، بدون الحصول على تفويض بذلك من خلال مكالمة تليفونية تؤكده من القاهرة . وقد أحبطت المحاولات التى بذلت بعد الحرب لتحليل أسباب الهزيمة بواسطة عملية التغطية النشيطة التى كانت تسعى لالقاء اللوم كله على السياسيين .

وكان هناك عامل آخر للهزيمة ، وهو النقص الخطير فى مستوى أركان حرب الجيش . ويبدو ان استراتيجية الحملة التى طبقها فريق حيدر باشا كانت مستلهمة من تاكتيكات القرن التاسع عشر لحروب مصر فى السودان . كانت هناك فعلا كفاءات قيادية مثل عزيز المصرى وغيره ، ولكن هؤلاء لم يكونوا معتبرين أشخاصا يمكن الوثوق بهم سياسيا ولم يستشاروا قط . ولا داعى للاسهاب حول تفاصيل المفاوضات المذلة مع الاسرائيليين فى رودس . ان مصر ذات الكبرياء عانت كارثة على أيدى جيش يهودى من الهواة . كانت الهزيمة بلا شك مؤلمة ، حيث ان فاروق كان ضحية تضليل كامل بواسطة لواءات الجيش المتبجحين . وكان جلالته الذى توقع احتلالا سهلا لفلسطين بواسطة القوات العربية النظامية ، التى كان قوادها ينظرون بسخرية الى ما يعتبرونه عصابات هواة غير محترفين ، غير مجهزة جيدا وقليلة التسليح ، قد هزته الهزيمة بعمق . وكان لابد من اتخاذ اجراءات ما .

ولم يكن فاروق من نوع الشخصيات التى تنغمس فى الاتهامات والاتهامات المضادة ، فهو لم يوجه اللوم الى الأمريكيين أو البريطانيين عن الهزيمة ، ولم يضع وقتا فى اتهام حلفائه العرب المخادعين الذين لا يمكن الوثوق بهم . وقد دفعه كبرياؤه ، وربما قلقه على عظمة مصر الى ان يتقبل فى صمت مناورات الكثيرين فى أعقاب الهزيمة لالقاء اللوم عند بابه . وكان يدرك بوضوح ان محمد حيدر باشا الذى كان يشمله برعايته .. مسئولا عن ذلك الى حد كبير ، وكان لابد من استدعاء لواء آخر لقيادة الجيش واخراج قواته من التطويق الذى قام به الاسرائيليون .

ولقد خرج فاروق من الحرب بعزم قوى للعمل فى اجراء اصلاحات أساسية فى الجيش ، وكان يدرك ان عصبة حيدر يجب ان تذهب ، ولكن قبل أن يتسنى حدوث ذلك ، كان لابد من وضع برنامج سرى وجدول زمنى للخطوات اللازمة ،

وقبل كل شيء كان ينبغى ابقاء حيدر باشا فى الظلام حيال نوايا صاحب الجلالة ، وهو أمر سيكون صعبا بصفة خاصة فى ضوء أن اسماعيل شيرين الزوج الجديد للأميرة فوزية كان ابن شقيقة حيدر ، وعاملا مخلصا لكسب التأييد له داخل القصر . ومن المتوقع بطبيعة الحال أن يدافع اسماعيل شيرين عن مصالح خاله .

كانت تلك المداولات هى التى أسفرت عن خطة احضار الجنرال أرتور شميت ـ الذى كان أحد قواد روميل فى وقت هجوم « المقاتل الصليبى » الذى شنه الجنرال البريطانى أوكينليك فى الصحراء ـ سرا من ألمانيا الى مصر للعمل كروح موجهة فى انشاء جيش مصرى جديد ، وفى نفس الوقت كان الاهتمام بالسرية الكاملة قد ادخل عزام باشا فى الصورة .

كانت الجامعة العربية منظمة متميزة تماما عن الحكومة المصرية ، وبصفة خاصة عن وزارة الخارجية ، فى حين أن عزام نفسه كان قد أصبح هدفا لنفس الاتهامات الموجهة للملك . وكنت حاضرا خلال التقرير العام للغاية الذى قدمه عزام شفهيا عن الوضع السياسى والعسكرى الى جلالة الملك بعد بضعة أيام من وصول الجنرال شميت . وقد بدأ عزام باشا باستعراض سريع لأسباب هزيمتنا (وهذه الرواية ، على أساس المذكرات التى أعددتها للملك فى ذلك الحين) :

« علينا ان نشترك جميعا فى اللوم لاساءة تقدير قوة اليهود ، والثقة الزائدة فى قوة جيوشنا النظامية ، فهى مكونة من جنود محترفين وضباط متفرغين ، وكان ينبغى أن تتمكن بسهولة من تحطيم جيش المستوطنين الاسرائيليين . ولكننا كنا مخطئين ، فالاسرائيليون كانوا مستعدين وقاتلوا جيدا ، وقد كرسوا انفسهم تماما لنضالهم . أما بالنسبة للجيوش العربية ، فإن المصريين وحدهم يمكن القول بأنهم قاتلوا فعلا . أما الاردنيون فقد تركوا ميدان المعركة دون انذار وتركوا فراغا على جناحنا الأيمن استغله اليهود الذين نجحوا فى حصارنا بالفالوجة »

وقد حاولنا أن نقاتل فى الحرب بالطريقة التقليدية ، وخلال ذلك أحبطنا عمل قواتنا غير النظامية التى كان قد دخلت فلسطين قبل الجيش النظامى . وقد أصبنا بفقد واحد من أكفأ ضباطنا ، وهو القائمقام أحمد عبد العزيز قائد قواتنا غير النظامية ، الذى كان فى وضع يمكنه من تطويق غزة قبل وصول الجيش النظامى ، وقد رفضت القاهرة السماح له بذلك ، معتبرة غزة غنيمة للجيش النظامى ، وهو مثال آخر على المكائد الداخلية فى الجيش .. وقد قتل أحمد عبد العزيز بطريق الخطأ بواسطة حارس مصرى ..

أما الأسباب الأخرى لفشلنا .. فمن الممكن أن نجدها فى تكوين القيادة للجيوش العربية ، وكذلك فى حالات النقص إلى حد الكارثة فى قطاع الامدادات والتموين العسكرى ، فلم تكن هناك قيادة موحدة أو أى جهاز بحيث يمكن القاء

الثقل المنسق للجيوش العربية العديدة الى المعركة . والواقع ان الأهداف السياسية للدول المكونة لهذه القوات كانت تغلب على الولاءات المشتركة .
أما فيما يتعلق باعداد الامدادات العسكرية للحرب ، فقد كان لاشيء فعلا . وفى حين كان الاسرائيليون سوف يلقون بحوالى ٧٠ ٪ من مواردهم فى جهدهم الحربى ، فان العرب لم يستخدموا حتى ١ ٪ ولو اننا عبأنا ١٠ ٪ وهى نسبة متواضعة لاحتياطاتنا الممكنة ، لا ستطعنا أن يكون لدينا جيش حديث من مليون رجل تحت تصرفنا ، وقوة جوية قوية تتكافأ معها .

« وليس هناك أى داع للبكاء على اللبن المسكوب ، وعلينا أن ننظر الآن الى الأمام ونضع سياسة جديدة من أجل فلسطين تقوم على أساس خبراتنا . ولابد من تحقيق مطلبين أساسيين ، أولهما احكام الروابط بين الدول العربية ، بحيث توضع كل القوات المسلحة تحت قيادة موحدة ، تكون مسئولة عن التدريب ، والذخائر والامداد والتموين ، والأهم من ذلك كله .. المعركة . ولتحقيق ذلك يجب علينا ان نفكر جديا فى تحويل جامعة الدول العربية الى دولة عربية موحدة فيدرالية كبيرة ، ذات برلمان مركزى وحكومة حرب فيدرالية .

وفيما يتعلق بالقوات المسلحة ، فسوف يكون من الضرورى اجراء عملية اعادة بناء كبرى ، ويجب ان يكون الهدف جيشا حديثا تماما على أحدث نظام يضم مليون رجل . ويجب ان ينظم ويدرب وفقا لأحدث تجارب الحرب . وبالمثل يجب انشاء قوة جوية من حوالى ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ طائرة مقاتلة ، وكل هذا فى نطاق مواردنا العربية الموحدة . ولو استطعنا ان ننجح هنا ، فلن تكون هناك حاجة أخرى للحرب .. واذا استخدمنا مستوى معينا من الدبلوماسية ، وكان الاسرائيليون مستعدين لقبول المقترحات المتحررة والمفتوحة التى قدمناها للأمم المتحدة فى ١٩٤٧ ، فاننا يجب أن نكون مستعدين لدعوتهم للانضمام الى دولتنا الفيدرالية ..

كان هذا كلاما ثوريا فى ١٩٤٩ . وكانت حقيقة الاتصال بضباط ألمان من الدرجة الأولى يمكن أن يطلب منهم تصميم وتدريب فرقة نموذجية عاملا ايجابيا ، وقد قرر فاروق هنا ان يبدأ دحرجة الكرة ، وكان من الواضح انه كان يعتقد انه لو استطاعت مصر أن تبدأ الاصلاحات العسكرية التى هى فى مسيس الحاجة اليها ، فإن الجيش الذى سوف يبرز سيكون فى حد ذاته عامل ربط قويا بين العرب ..

كان الملك يوافق تماما على وجهات نظر عزام باشا الذى كان يكد ويكدح لتأكيد الخطر الذى قد يبرز اذا ظهرت هذه الآراء على السطح قبل الأوان . فقد كنا نتوقع ردود فعل خطيرة من الدول العربية ، حيث اننا نعمل لتنفيذ برنامج سوف يغير ميزان القوى فى البحر المتوسط تماما . ومن ثم فقد تقرر فرض سرية تامة على المسألة برمتها ، واخفاء وجود شميت فى القاهرة عن الجيش ، وعن

الحكومة فصاعدا ، وفوق الجميع المخابرات البريطانية والأمريكية . وفى الوقت نفسه القيت مسئولية موضوع شميت على عاتقى ..

٢١ ـ التعرف على الجنرال

عندما وصل الجنرال ارثر فيلهلم شميت الى القاهرة فى ١١ يوليو ١٩٤٩ ، عهد الى باستقباله فى مطار القاهرة . وكان الملك قد ابلغ عزام باشا بأن الجنرال سوف يستقبل بأقصى قدر من السرية ، وقد فرضت اجراءات أمن تامة حوله ، حتى لا يعلم حتى حيدر باشا بوصوله أو وجوده فعلا . وكان الأشخاص الوحيدون الذين يعرفون هم عزام باشا ، وأنا والسفير المصرى فى برن الذى زوده بأوراق مصرية زائفة تحت اسم جولدشتين ، وقد وصل الجنرال شميت الى مصر باسم الهر جولدشتين . ولا حاجة بنا للقول بأن الجنرال لم يكن سعيدا باسمه المستعار ، ويعتقد أننا تجاوزنا الحدود المعقولة من اجراءات الأمن .

ولم أكن على ثقة مما اتوقعه وأنا أقود سيارتى الى المطار لاستقباله .. ترى هل يكون طويلا أشقر الشعر من تلك العينة الشمالية التى اعتاد هتلر أن يشيد بها ؟ ونزل من الطائرة دون ان يلحظه أحد . ولم يكن يبدو لأول وهلة شبيها بأى شىء كنا نتوقعه ، بل كان ـ كما وصفته فى المقدمة قصيرا ممتلئا قوى البنية صغيرا الرأس ، قصير الشعر ، بلا عنق تقريبا ذا عينين زرقاوين باهتتين نفاذتين . وعجلت بأنهاء اجراءات الوصول الشكلية للخروج ، وسرعان ما كنا ننطلق فى طريقنا للقاهرة بسرعة ، حيث استقبلنا عزام باشا ، وحجزنا للجنرال فى فندق كلاريدج وهو فندق متواضع فى وسط المدينة ، ولم نضع وقتا حول بدء جلسة المعلومات الموجزة قبل ان يستقبله الملك .

وسجلنا آراء الجنرال المبدئية ، وكان يرى نفسه نسخة عصرية من الجنرال الراحل كولمار فون دير جولتس ، الذى كان مستشارا للجيش التركى فى الحرب العالمية الأولى ، وقد عرض تقديم كل خدماته لمصر ، وكان على استعداد للحصول على الجنسية المصرية وارتداء الطربوش اذا كان ذلك ضروريا . وفى الجيش الألمانى لا توجد أية تفرقة بين جنرالات فرق المدرعات أو المشاه ، فقد كانت الرتبة تعنى ببساطة ان حاملها قادر على قيادة أى نوع من الأعمال الحربية ويقوم بكل نوع من الوظائف التى يعهد بها اليه ، فالجنرال أخصائى فى القيادة ، ومن ثم فإن شميت كان يرى ان مهمته فى مصر ليست للعمل كمستشار ، بل كمدرب للرجال للنضال فى حرب حديثة ، وسوف يتاح للمصريين الحصول على خبرات الجيش الألمانى خلال معارك القتال المتوقعة ، واذا دعت الحال ، فسوف يحضر ضباطا أخصائيين من الصفوة الألمانية للمساعدة فى مهمة تشكيل جيش مصرى على أحدث طراز ، ينظم على أساس خبرة القتال الفعلى الحديثة . وسوف تتاح أيضا تقارير ألمانية سرية عن التدريب على الأسلحة ، واستخدام وتطوير القوات .

وكان المنسق المحتمل للعمل فى ألمانيا هو الفيلد مارشال جودريان ، وقد اقترح شميت الاتصال بجنرال آخر هو الجنرال شبيدل لتولى مهمة رئيس الأركان لقيادة خاصة للتدريب ، وقد أصبح شبيدل فيما بعد قائدا لقوات حلف شمال الأطلنطى . .

وقد أبلغت كل هذه المعلومات الى فاروق ، وبدا أن جلالته كان مسرورا بوضوح من الجنرال ، وقال لى :

« وأخيرا سنفعل شيئا ايجابيا للجيش » واستطرد يقول « ابلغ الجنرال اننى أؤيد وجهات نظره تماما ، واننا ندرس فعلا الطرق التى نضع بها المقترحات موضع التنفيذ . واننى أميل الى الاعتقاد بأننا يجب أن ننشىء وحدة تدريب تجريبية ، يتم تشكيلها وتكوينها وفقا للتجربة الألمانية ، وستكون تلك الوحدة تحت القيادة المباشرة للجنرال شميت . وبمجرد تكوينها وتدريبها ، فاننا يجب أن نجعل وحدات الجيش العادية تمر بعملية التدريب ، وبذلك يتم اصلاح الجيش كله تدريجيا . وسيكون ذلك نظاما جديدا وسنطلق عليه هذا الاسم .. »

وكان الملك يلمح ، بطبيعة الحال الى الاصلاح الكبير للقوات المسلحة فى عهد جده الأكبر محمد على ، حيث أطلق أيضا على الجيش الجديد اسم « النظام الجديد » .

كان هذا فى ايجاز هو الخط العام لفكر الجنرال والمناقشات التى دارت بين شميت وفاروق عندما التقيا بعد ذلك بوقت قصير . وقد تأثر الجنرال بمعلومات الملك وفهمه لمشكلات القوات المسلحة ، واهتمامه الحقيقى بالجيش . وكانت النقطة الرئيسية التى قدمها شميت .. هى انه ليست هناك حاجة فعلية لاحلال الطرق الألمانية محل التدريب العادى ونظام السير للقوات وما الى ذلك ، والتى

كانت يتبعها الجيش البريطانى ، إذ أن الاصلاح يجب أن يكون ذا طابع أكثر اتساعا ..

ان الممارسات الحديثة تتجه نحو تشكيل متكامل ، توجد فيه المدرعات والمدفعية وقوات الهجوم من المشاة على مستوى الكتيبة ، وهكذا .. فإن المستهدف هو تشكيل مختلط ، يمكن فى البداية أن ينظم على مستوى لواء . ويجب نبذ التكوين الموجود لصالح التشكيل المختلط .

وكانت الأفكار التى قدمها حيدر باشا ، الذى كان يفكر فى انشاء فرق منفصلة للدبابات والمشاة ، والمدفعية عبث غير معقول فى رأى شميت وتوحى بجهل بظروف القتال . وتساءل قائلا : « كيف يتسنى تحقيق حشد فعال للقوات فى مثل تلك الظروف ؟ لا ينبغى أن يقف أى شىء فى طريق قدرة أى قائد على أن يلقى أقصى قدر من قوة النيران على نقطة اقتحام معينة . أما أنظمة الفرق التى يقترحها ـ حيدر ـ فلن تستطيع إلا أن تعرقل وتضعف أى هجوم »

وقد ختم الملك حديثه بمطالبة الجنرال بالبدء فى العمل ببرنامجه ، وعرض تقديم كل مساندة وتسهيل .. وسأله : « ما هى مطالبك ياجنرال ؟ »

وأجاب شميت قائلا : « ان لى مطلبين : (١) اننى أود أن أدرس الجيش المصرى ، وان أطلع على تقارير الأركان ونقد الحرب الأخيرة (٢) أود أن يكون لى الحق فى اختيار الضباط الألمان واعتمادهم ، فاننى لا أريد أن يتعاون معى أعضاء سابقون من تشكيلات الحرس الخديوى . ان ما يحتاج اليه الجيش أكثر من أى شىء ، هو تدريب شامل فى الميدان فى ظروف أقرب الى ظروف الحرب » ..

كان وجود روح قتالية فى الجيش التى يطلق عليها كلاوزفيتز « الروح العسكرية » أمرا جوهريا ، وما رآه شميت من القوات المصرية جعله متفائلا بامكان تحقيق ذلك . ولابد أن يكون لدى الرجال الثقة فى القيادة وقدرة ضباطهم ، كما يجب أن يكونَ للضباط ثقة فى قدرة القيادة العليا على القيادة ..

ولم يكن هناك أى شك فى مؤهلات اللفتنانت جنرال أرتور شميت فى هذا الصدد . فقد كان من ذلك النوع من الضباط الذين لايمكن أن ينتجهم غير النظام الألمانى العسكرى ، بتقاليده واطلالاته على المستقبل والتى تتفق تماما مع روح فردريك الأكبر وأرتوفون بيسمرك . وكان شميت الذى ينتمى الى ولاية الراينيلاد ، قد بدأ الخدمة العسكرية فى لواء ليب البافارى الملكى ، وهو الحرس الخاص الممتاز للملوك فيتلزباخ ، ولما كان شابا رومانسيا ، فقد انتقل من هذا اللواء ذى الدم الأزرق الى فرقة شولتشتروبى الألمانية الامبراطورية التى كان يقودها الجنرال الاسطورى فون ليتوف فوربك . وكانت هذه الفرقة قد شكلت كقوة استعمارية مختارة للامبراطورية الألمانية . كانت هيئة امبراطورية تعتمد على برلين مباشرة ، وتأخذ مجنديها من كل أنحاء الممالك الألمانية المجتمعة ،

والامارات الصغيرة ، ومع ذلك فقد كانت ترفع العلم البروسى ذا الألوان الحمراء والبيضاء والسوداء ..

وشارك شميت فى حملات فى افريقيا استمرت أطول من الحرب فى أوربا ، وانتهت بعد اعلان الهدنة فى ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ باثنى عشر يوما باستسلام جيش شولتستروبى الذى لم يهزم . وعند عودته الى ألمانيا انضم الى تلك العناصر من جيش الألمانى التى قاتلت الشيوعيين فى شرق ألمانيا ، وتبع ذلك الخدمة فى جيش سيكت الذى ضم مائة ألف رجل ، والذى انشىء بعد معاهدة فيرساى . وفى ١٩٣٦ قاد شميت أول لواء ألمانى يعبر جسور الراين ، عند كولونيا المنزوعة السلاح . وقد عقب على ذلك بقوله : « لقد عبرت قواتنا بدون أية طلقة من الذخيرة ، وأى تحرك مضاد من الحلفاء كان سيعقبه انسحابنا بصورة مذلة »

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وجد شميت نفسه يقود القوة المقاتلة المكلفة باحتلال سترا سبورج ، واقتحام خط ماجينو فى تلك المنطقة . ولما كان شميت قد أحس بتدهور الروح المعنوية لدى الفرنسيين نتيجة لدنكرك وانسحاب قوات الحلفاء فى بلجيكا وشمال غرب فرنسا ، فقد استخدم شميت الخداع للاستيلاء على ستراسبورج بهجوم مفاجىء ، حيث انطلق مع ياوره ، واثنين من الجاويشية ، فى دراجتين بخاريتين لهما عربات جانبية . وقد تحقق ذلك باجراء بسيط ، حيث عبروا الراين خفية فى قوارب مطاطية ، وابعاد أول حامل رسائل فرنسى راكب قابلهم على طريق ستراسبورج العام ، واضطروه تحت تهديد المسدس الى أن يتقدم المركبتين الألمانيتين ، وقد ظهر الجنرال بشكل بارز فى الأولى خلال الخطوط الفرنسية ، واتجه مباشرة الى أبواب مبنى البلدية فى وسط المدينة ..

وهنا وجد الكولونيل الفرنسى المسئول الذى استولت عليه الدهشة نفسه فجأة يواجه القائد العسكرى الألمانى الجديد الذى نصب نفسه قائدا لستراسبورج . ولما كان قد افترض أسوأ الأمور ، فقد سارع الى اطاعة أوامره ، وقام بتعبئة بوليس ستراسبورج من راكبى الدراجات ، لتسليم انذار عام الى القلاع والوحدات الفرنسية المختلفة ، ونجحت الخطة تماما . وقد تم كل ذلك قبل ست ساعات من الموعد المقرر لعبور القوات الألمانية المقاتلة للنهر . وتمت العملية برمتها بدون أية خسارة فى الأرواح ، وأخذ حوالى ١٢٠ ألف رجل أسرى .

من أجل هذا التاكتيك البارع ، حصل شميت على واحد من أعلى الأوسمة العسكرية الألمانية ، وهو وسام الصليب الحديدى مع أوراق البلوط . وكان لسقوط ستراسبورج تأثير هام على الوحدات التالية . وكان أقصى الجناح الشرقى لخط ماجينو قد تعطل ، أما الخطط الألمانية للطوارىء لشق الطريق خلال سويسرا لمهاجمة هذه الدفاعات الضخمة من الجانب والمؤخرة ، فقد

أصبحت لا ضرورة لها بفضل مباغتة شميت ..

وشهدت « عملية بارباروسا » وهى حملة هتلر الروسية ، شميت فى أركان حرب الفيلد مارشال فون كلوج ، حيث كان قائدا لأجهزة الامدادات والتموين لجيوش الجبهة الوسطى التى تزحف على موسكو . وفى نفس الوقت كان أحد أصدقائه وزميله فى التخرج من الأكاديمية العسكرية ، وهو المارشال أدوين رومل قد هبط فى ليبيا مع الفيلق الأفريقى ، وبسرعان ما كان هناك طلب فى الطريق لنقل شميت الى منصب القائد العام لمنطقة ليبيا العسكرية .. وقد أتاح له ذلك القيام بدور مساعد هام .

وكان دفاع شميت ، الذى يعمل من قصر قيادته فى البردية ، عن مثلث البردية ـ السلوم ـ كابوتزو ، هو بلا شك العملية الرئيسية التى أحبطت فى النهاية هجوم الجنرال البريطانى أوكينليك المسمى « المقاتل الصليبى » ، وأتاحت لرومل الوقت للتقهقر الى بنغازى ، دون أن يعانى هزيمة الفيلق الأفريقى ، والتى كان من الممكن ان تحدث لو أن البريطانيين استطاعوا القاء الثقل الكامل لقواتهم المتفوقة ضد الألمان المتقهقرين . وكان البريطانيون قد استخدموا مالا يقل عن فيلقين من الجيش فى المعركة كل منهما يعادل فى الاعداد وقوة النيران الفيلق الألمانى بأكمله . وفى نفس الوقت كان يجرى ارسال تعزيزات من الدبابات جوا من الولايات المتحدة ، وشهد القتال وصول الدبابات الأمريكية الجديدة « ستوارت » الى الميدان ..

وقد أمكن تأخير هذه القوة الكبيرة ، التى تمثل ضعف قوة النيران لدى القوات الايطالية ـ الألمانية مجتمعة بالمقاومة المستمرة للقوة المختلطة من الألمان والايطاليين التى يقودها الجنرال شميت عبر الحدود المصرية ، والتى كانت متحصنة فى البردية ـ السلوم ـ كابوتزو . وكان يتولى القيادة فى السلوم الميجور باخ الباسل ، الذى خرج بدعاية أكثر من شميت ومع ذلك فقد حصل شميت على وسام صليب الفارس للصليب الحديدى ، وهو أعلى وسام ألمانى فى ميدان القتال ، لموقفه لحراسة المؤخرة الذى كان يستهدف منح رومل فرصة للتقهقر واعادة تشكيل قواته . وقد سقطت البردية بعد أن تحقق ذلك ، وارسل شميت الذى أسره جنود جنوب افريقيا الى كندا ، وهناك جعل الكنديون يتذكرونه باعتباره القائد الألمانى للتمرد والاستيلاء على معسكر الأسرى المعروف باسم معسكر بومانفيل ، حيث احتجز ـ لفترة على الأقل ـ وحدات أساسية من الكنديين ..

وقد أنهى شميت الحرب ، رجلا محبطا . إذ بينما كان لايزال شابا نسبيا ، فقد أسره العدو ، وباعتباره أسير حرب ، كان مضطرا الى قضاء العامين ونصف العام الأخيرين من الحرب فى كندا ، وعندما عاد فعلا الى ألمانيا ، تأكدت براءته السياسية ، وسرعان ما أطلقت سلطات الحلفاء سراحه ، ولكن رغم انه لم يكن

من المعجبين بالنازى ، فإنه مع ذلك لم يستخدم ، ولم يكن من الممكن استخدامه !

□ □ □

كان النزاع بين مصر واسرائيل ، والذى كان تعاطفه حياله يتجه نحو المصريين ، يحمل فى طبيعته تحديا لروحه المغامرة . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت لدى الجيش الألمانى تقاليد للخدمة مع المسلمين . إذ كان الفيلد مارشال العظيم مستشارا لجيوش الخليفة فى استانبول فى ١٨٣٩ ، وبعد ذلك قام الجنرالات كولمار فون دير جولتس ، وفون ساندورز ، وكريس فون كرينشتين بالخدمة فى جيوش اسلامية وقياداتها خلال الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم فإن شميت كان يتبع تقليدا مشرفا عندما عرض خدماته شخصيا على الملك فاروق .

وبالمثل كان الملك يعمل وفقا لتقليد قديم وفعال ، حيث كان محمد على نفسه شاهدا على الخدمات التى قدمها سليمان باشا الفرنساوى ـ جد فاروق لأمه ـ لمصر .

كانت تلك هى خلفية مهمة شميت فى مصر من ١٩٤٩ الى ١٩٥١ ، وكان هذا هو الرجل الذى عرض خدماته على الملك فاروق ..

٢٢ ـ الاهتمام بسعادة الجنرال

كان الرأى المبدئى لشميت حول متطلبات الجيش المصرى ، هو أنه يجب ان تكون له قدرة كبرى على التحرك ، وان يتمتع بأقصى قدر من الاستقلال الذاتى فى حرية الحركة والمناورة ، ويتطلب ذلك فرقة موحدة ومتكاملة ، ولابد من تدريب للدبابات والمشاه المنتقين فى عربات مدرعة لنقل الجنود فى تشكيل واحد لديه قدر عال من امكانية العمل بصورة تبادلية . ويجب ان يكون هناك جهاز كفء للامداد والتموين العسكرى ، وايضا مدفعية مضادة للطائرات متنقلة وقادرة ، ودفاع ميدانى كجزء من هذه الفرقة ، التى يمكن ان توصف بأنها احدث تطور يقدم على اساس التشكيل الألماني المعروف باسم « فرقة المدرعات »

وسوف يتاح لنا الحصول على تقرير الجيش الالمانى عن كل جوانب التنظيم ، وتسليحه وتدريبه ، ودروس حملات الصحراء التى اشترك فيها الفيلق الأفريقى ، وكذلك القتال فى العمق على الجبهة الروسية ، حيث ستعطى كلها الى منظمى هذه القوات التجريبية . وسيتم تجنيد ضباط سابقين بالجيش الألمانى مختارين بصفة خاصة كمدربين للعمل بالاشتراك مع ضباط مصريين مختارين خصيصا لذلك .

وكان المفهوم ان دور المدربين الألمان سيكون غير سياسى تماما ، حيث ان المانيا فى ١٩٤٩ لم تكن لديها اية طموحات أو خطط سياسية فى الشرق الأوسط ، غير انه كان من الضرورى منح المدربين الألمان سلطة اصدار الأوامر والتأكد من اطاعتها . واذا أثيرت أى مسائل بشأن السيادة المصرية ، فسوف يطلب من

المدربين الألمان الحصول على الجنسية المصرية على أساس مؤقت . ولم تكن الجمهورية الفيدرالية الألمانية مشتركة فى هذه المغامرة بأية صورة ، وفيما يتعلق بالعاملين الألمان ، فقد كان ذلك بموجب ترتيب خاص ، بحيث يكون الضباط الألمان كأفراد هم وحدهم المسئولين .

وكان الغرض من التدريب تشكيل فرقة مقاتلة تجريبية ، يمكن اعتبارها الى جانب امكانياتها المهنية كوحدة تدريب ، قادرة على المشاركة فى العمل للبناء العسكرى لجيش عربى جديد ، ومن ثم فإنها ستكون بطبيعتها بمثابة كلية عسكرية فنية وعملية حديثة رفيعة المستوى .

كانت تلك هى الخطوط العريضة للاتفاق الذى تم الوصول اليه بين الجنرال شميت والملك فاروق ، ونوقش ووضع موضع التنفيذ بأمر شخصى من الملك الى شميت . وكان قبول شميت لهذا التكليف يتطلب فى نفس الوقت موافقة الملك على نقطتين :

١ ـ يخضع كل الضباط الألمان لعملية غربلة بواسطة لجنة مختارة تشكل بالاشتراك بين المصريين وكبار الضباط الألمان (وقد اقترح شميت هنا اسم الفيلد مارشال جودريان) وسيقوم الجنرال شميت نفسه بالموافقة النهائية على التعيين .

٢ ـ لما كانت الجيوش بعد كل حرب تصدر تقارير تحليلية وتفصيلية عن اسباب النصر أو أسباب الفشل ، فقد طلب شميت الحصول على تقرير عن الجيش المصرى حول اسباب هزيمة ١٩٤٨ ، بالاضافة الى صور من الأوامر الاساسية للجيش التى اصدرتها القيادة العليا .

ووافق فاروق على ذلك ووعد بتنفيذه ، كما نوقش مشروع لتنفيذ البرنامج العسكرى ايضا . وكان من رأى عزام باشا ضرورة اعداد مكان مناسب بعيد فى الصحراء الغربية لاقامة الفرقة ، بحيث يكون منعزلا تماما عن وادى النيل والدلتا ، وان يجرى تقييم لواحات الفرافرة ، والداخلة والخارجة باعتبارها اكثر الأماكن احتمالا لهذا المشروع . وهنا سوف يجرى تشكيل يضم رجالا يختارون من الجيش النظامى يمثلون مختلف فرق الأسلحة ، على اساس لواء أو كتيبة ، كوحدة فرعية أولية تكون أساسا لتكوين الفرقة . وكان ذلك بطبيعة الحال قبل أيام أقمار الاستطلاع ، وقد رئى انه اذا اتخذت احتياطات معقولة ، فان الفرقة الأولى يمكن ان تنشأ فى أقل وقت ممكن مع أقصى قدر من الأمن ، وكان من المعتقد من الناحية السياسية انه رغم الاعتراضات المتوقعة فى واشنطن تجاه الخطة ، فإنه بمجرد وصول الخطط إلى مرحلة متقدمة من الانشاء ، فسوف يقبل الأمر الواقع .

وكانت اكبر مشكلة سوف تبرز هى حيدر باشا نفسه ، وقد ذكر عزام باشا انه لما كان حيدر يتحمل مسئولية هزيمة ١٩٤٨ ، فانه ليس من المتوقع ان يتعاون مع

ضابط اجنبى عمله الأول هو التحقيق فى ادارته للعمليات . وقال الملك انه يفهم هذا الموقف ووعد بابعاد حيدر باشا .

وتبع ذلك شهور عديدة من التردد ، بدا خلالها ان فاروق يفتقر الى الحسم الضرورى . وفى النهاية طلب من شميت العمل مع حيدر ـ وهو قرار يمكن ان يوصف بحق بأنه من اكثر قرارات الكوارث التى اتخذها جلالته ، لأنه كلفه عرشه فى النهاية .

وتبين بعد ذلك ان الحاجة الى تنفيذ الاتفاق تعنى انه لابد من رفع نطاق الأمن حول شميت للسماح بابلاغ حيدر باشا عنه ، حتى يستطيع بدوره ان يتعاون مع الألمان . ولاحاجة للقول بأن كشف الأمر قد هز حيدر هزة عنيفة ، كما ان طلب دراسة أسباب هزيمة ١٩٤٨ أزعجه بصورة اشد ، اذ انه فى الواقع لم يتم وضع أى تقرير عن ذلك ، وكان حيدر منهمكا فى حملته لالقاء مسئولية الفشل على عاتق فاروق وعزام ، ومن ثم فقد حاول حيدر تسييس المسألة برمتها ، وقال ان احضار شميت كان مؤامرة من عزام للدس ضده . ولم يكن لذلك أية صلة بطبيعة الحال بالرغبة الحقيقية لاصلاح الجيش ، وبدأت حملة تشويه من هذا النوع ، وأيدها اعداء فاروق ، كما كانت الصحافة التى لحيدر اتصالات بها مستعدة تماما للمشاركة فى اللعبة .

وقد اتهم فاروق بالغدر بالجيش بتورطه فى شراء الأسلحة الفاسدة ، وانه لم يبد أى اهتمام بصالح قواته ، وانه كان يذهب الى النوادى الليلية ويرفه عن نفسه ، بينما كان الجنود يلقون حتفهم . وفى ذلك الحين اختلقت إفتراءات ضد فاروق ، ولاتزال باقية فى ذاكرة الجمهور ، رغم ان التحقيقات القانونية فى هذه الجرائم المفترضة سواء فى عهد فاروق أو عهد عبدالناصر برأت جلالته كلية .

وأصبح من الواضح تماما انه مادام حيدر باقيا كقائد عام للقوات المسلحة ، فلن يمكن أن نتوقع اى اصلاح جدى فى الجيش ، وطلبت لقاء عاجلا مع الملك ، الذى طلب حضورى الى قصر المنتزه .

وقال لى الملك : اننى اعرف الموقف ، اطلب من شميت أن يصبر ، فسوف تتم اقالة حيدر قريبا . وفى نفس الوقت عليك ياعادل ان تبقى شميت سعيدا .

وكانت عملية ابقاء الجنرال سعيدا مهمة غير هينة . وبالتشاور مع عزام تم الاتفاق على برنامجين :

أولا : سوف نطلب من شميت اجراء عملية مسح عسكرية لحدود مصر الغربية مع ليبيا ، التى ستستخدم كدراسة أساسية لدفاعات مصر الغربية . وسيعتبر هذا التقرير مرجعا للوفد المصرى فى الأمم المتحدة خلال مناقشة استقلال ليبيا . ولما كان شميت قد قاد الفيلق الأفريقى والقوات الايطالية على حدود مصر الغربية فى ١٩٤٢ ، فانه كان افضل خبير مؤهل حول هذا الموضوع . وثانيا سنطلب اليه اجراء مسح للحدود السورية ـ الاسرائيلية على

مرتفعات الجولان واعداد تقييم عسكرى للموقف هناك .

وبالنسبة لدراسة « الأساليب الغربية » فان خطة رحلتنا كان : الاسكندرية ، والعلمين ، ومرسى مطروح ، وممر حلفاية والسلوم ، على ان ننتهى فى واحة سيوة . وقد اعطانا الجيش سيارة نصف نقل من طراز شيفروليه ، وأخذت معنا سيارتى الجيب الممتازة حاملة الأسلحة طراز دودج ، التى حملت معدات اللاسلكى ومولدات كهرباء . وكان معنا سائقان احدهما من رجال الجيش ، واسماعيل وهو شركسى يتقن اعمالا كثيرة مختلفة مع ولع خاص بالسيارات والآلات الميكانيكية والالكترونية ، كما بعث لنا عزام بسته ليبيين كانوا جزءا من قوات الجامعة العربية غير النظامية التى قاتلت فى فلسطين ويريدون العودة الى بلادهم ، ولم تكن معهم اية أوراق لأنهم كانوا قد غادروا ليبيا سرا ، ولابد من عودتهم سرا .

وما كادت قافلتنا تنطلق بخفة فى ذلك اليوم من ايام ابريل ١٩٥٠ ، حتى كان الجنرال شميت اخيرا ، ومنظاره المعظم فى يده قد أخذ يلاحظ فى مثابرة الأراضى التى كنا نسير فيها ، فيما يتعلق بطابعها التكتيكى ،وقد شكا طاقمنا الذى يضم خليطا من الليبيين والشراكسة والمصريين بمرارة من نظام الجنرال : لاشراب ، ولاتوقف حتى الغروب ، وقرص من الملح للعشاء . وكان السائقان يتوقان بشدة الى قدح من القهوة التركية المحلاة بالسكر ، فى واحد من المقاهى القليلة على جانب الطريق ، ولكنهما شعرا بالتعاسة عندما رفض السماح لهما بذلك . ومن حسن الحظ انه لم يكن معنا أى ملح وبذلك تجنبنا تجربة من الطهى من المؤكد انها ستكون كئيبة الى حد ما . كانت رحلة خالية من الأحداث استمرت حتى تجاوزنا مرسى مطروح .

ولانزال الليبيين المرافقين لنا استخدمنا ممر حلفاية الشهير ليقودنا الى الحدود الليبية المتمثلة فى سور محطم من الاسلاك الشائكة . وقد عبر اصدقاؤنا الحدود بأمان وسرعان ماكانوا فى طريقهم الى وجهتهم ، بينما عدنا أدراجنا عبر الممر الذى كان طريقا ضيقا خلال.حقول الغام لم ترفع . وكان فى استطاعتنا ان نرى على مبعدة منا الهياكل المحطمة لدبابات محترقة مازالت فى اماكن يتعذر الوصول اليها ومن المحتمل جدا انها لاتزال تحوى بقايا أطقمها . ودخلنا السلوم من الطريق الرئيسى ، وقد سحرنا فقط قرية.الصيادين الجميلة الصغيرة القابعة عند سفح مد الجرف الليبى المرتفع المطل على خليج السلوم ، وكانت السلوم يومئذ مركزا للغوص بحثا عن الأسفنج ، حيث تزورها سفن الأسفنج اليونانية بانتظام .

وفى السلوم استقبلنا القائمقام الذى يقود قوة الحدود الصغيرة هناك ، والذى لم يكن قد تلقى اى اخطار عن وصولنا الوشيك ، فضلا عن انه انزعج كثيرا لمعرفة الجنرال شميت الوثيقة للسمات الاستراتيجية للمنطقة ، وقد

وضعنا فى حالة اعتقال مستترة ، كانت أساسا فى مطعم الضباط ، حيث قدم لنا العشاء ، بينما دارت اتصالات تليفونية محمومة مع قيادة مرسى مطروح ، ثم اطلق سراحنا بعد ذلك بعد جولة بالسيارة على الحدود ، وسرعان ماكنا فى طريقنا الى سيوة .

كان السفر فى الصحراء مع الجنرال شميت تجربة طريفة ، وبينما كنا نمر خلال الأشجار المنخفضة على الطريق الى واحة سيوة ، صاح الجنرال بحماسة :

« انها أرض بديعة لاقامة دفاع صامد . فهذا الشجر المنخفض يعتبر غطاء فعالا لمواقع المدافع الرشاشة الثقيلة . وتستطيع قوات من الصفوة ان توقف جيشا هنا . وبطبيعة الحال فانهم يجب ان يتلقوا تدريبا مكثفا ، ويتمتعوا « بانسجام الطقس » .. هنا يستطيع الجندى المصرى ان يتفوق حقا »

وكنا قد مررنا فى العودة بمعسكر للجيش حيث كان الجنود يتدربون تحت الشمس المحرقة .

وقال لى الجنرال : « سيد ثابت ، هذا هو التدريب بالاسلوب البريطانى . انه ليس قاسيا مثل تدريبنا ، ولكنه جيد ، وحيث ان جيشكم يستخدم الأشكال البريطانية فإنه ينبغى ألا تتغير »

ان سيوة التى امضينا فيها يومين هادئين . أشبه بفردوس على الأرض : واحة جميلة خصيبة حافلة بالنخيل واشجار الزيتون والتين .. وبركة كبيرة باردة ، مياهها تنبعث منها فقاعات من تحت الأرض ، يفترض أن تكون باردة عند الظهر ، دافئة عند منتصف الليل ، والفاكهة تسقط من الأشجار .. التين والبلح يتساقط عند قدميك ، والأهالى اناس ذوو رقة لامثيل لها .

وعندما قمنا بمغامراتنا الثانية فى الشهر التالى لمحاولة اجراء تقييم عسكرى لمرتفعات الجولان من الجانب السورى ، سافرنا أولا الى بيروت على سفينة الركاب الأمريكية « اكسكامبيون » وهى سفينة مكيفة الهواء لديها اكمل قائمة طعام فى أية سفينة تطفو على الماء .

وكانت القائمة تشمل وجبات من مطعم ماكسيم بباريس ، ومنتجات أشهر المطاعم العالمية ، وخاصة من فرنسا وايطاليا والصين والهند وغيرها .

غير اننا عندما هبطنا الى بيروت سمعنا اخبارا مزعجة .. لقد حاول شاب مصرى يدعى حسين توفيق اغتيال الدكتاتور السورى اديب الشيشكلى قبل وصولنا بيومين .

وأثار بذلك ازمة كبرى فى دمشق . وترددت شائعات فى الخارج بأن عزام باشا كان وراء محاولة الاغتيال . وفى اللحظة التى وصلنا فيها الى دمشق أدركنا ان أزمة حادة تسود هناك . وقررت ان أضع الجنرال فى فندق رخيص نسبيا يدعى « ريجنت » حيث يمكن ان يعتبر صحفيا المانيا مسالما . وذهبت انا الى

فندق « أورينت بالاس » الذى كان مسرحا لجرائم مختلفة ، بينها قتل شخص يدعى الكولونيل ستيرلنج قبل ذلك ببضعة شهور ، وكان هذا الفندق هو أفخر فندق بدمشق فى ذلك الحين ، وان كان يخدم عملاء مختلفى الألوان وخطيرين الى حدما . وماكدت أصل حتى اكتشف هويتى على الفور أحد مرشدى البوليس السورى ، وكان قد عمل فى الجامعة العربية فى القاهرة باعتباره الساعد الأيمن لعزام باشا وكلف اثنين من عملاء البوليس بمتابعة تحركاتى .

وبينما كنت فى طريقى الى غرفتى التقيت مصادفة بالمستشار القانونى للسفارة البريطانية فى القاهرة ويدعى بيزلى الذى كان يعرفنى جيدا وقد حيانى بحرارة . وكان بيزلى يعتبر شخصية كبيرة فى جهاز المخابرات البريطانى المعروف باسم م.خ ١٥ بواسطة السوريين الذين يشتبهون فى أمره . وجاءت لطمة أخرى جديدة عندما أبلغت ان الرئيس الشيشكلى اعتكف فى قصر الرئاسة وانه لايقابل احدا . وكان قد أحاط نفسه بكل القوة المدرعة لدى الجيش السورى . وبالمثل اختفى رئيس الوزراء ناظم القدسى عن الأنظار ، وان كان احدا لايعرف أين ذهب ؟ وقد جعلنى كل ذلك رجلا يثير اهتمام جهاز المخابرات السورى ، فاننى كما يظهر أصاحب المانيين مشبوهين وأتحدث بلا كلفة مع عملاء بريطانيين ، وقد أوفدنى عزام باشا فى مهمة مجهولة قد تكون بلا أمل ، ومالم اتمكن من تسليم رسالتين معى أحداهما للشيشكلى والأخرى للقدسى ، فاننى قد أجد نفسى فى متاعب عميقة .

وقد فتشوا غرفتى وأنا أتناول العشاء فى اليوم التالى ، ولكنهم بطبيعة الحال لم يجدوا شيئا لأننى كنت احمل أوراقى معى . غير ان مما زاد فى الشكوك حيالى ، اننى اكتشفت مصادفة ان رئيس الوزراء كان فى الطابق الثالث من الفندق المحيط به حرسه الخاص . وهكذا فقد توجهت بعد العشاء فورا الى الطابق الثالث ، حيث كان الحرس جميعا ، قد ذهبوا بمعجزة ما لتناول طعامهم ، تاركين جندى بوليس متقدما فى السن يبدو عليلا ، لكى يغفو امام باب رئيس الوزراء . وقرعت جرس جناحه ، فخرجت ممرضة جذابة . وقلت لها ان معى رسالة من عزام باشا للسيد القدسى واعطيتها اياها . وأجلستنى فى الصالون الملحق بالجناح ، وذهبت الى رئيس الوزراء ، وبعد دقائق قليلة عادت الى وقادتنى الى غرفة نوم رئيس الوزراء التى ماكدت أدخلها حتى اكتشفت ان القدسى يرتعش رعبا .

وصاح بصوت مرتفع : « من انت ؟ اننى لا أعرفك ! »

كان من الواضح انه اعتقد اننى على وشك تصفيته .. ولما كنت لا أبدو عربيا فى مظهرى ومن الممكن بسهولة الاعتقاد بأننى قاتل أوربى فربما كان مسلكه طبيعيا ، ولكننى كنت خالى البال من مثل هذه الأمور . وأحسست فقط بالغضب لأن رسول عزام باشا يعامل بهذه الطريقة ، واظهرت ذلك له . واستعاد ناظم

القدسى رباطة جأشه عندما رأى اننى لست على وشك قتله وقال لى : « اجلس .. ماهذا ؟ هل غزام مجنون لكى يرسل جنرالا المانيا فى هذا الوقت لتفقد الجبهة ؟ انكم تريدون الشيشكلى ، وسوف تحتاج الى اقتحام مقره ، ولكن خذها منى نصيحة وغادر دمشق بأسرع مايمكن ان الحالة هنا خطيرة ! »

وعدت الى الجنرال فى فندق ريجنت وأبلغته بما حدث ، فقال لى : « اننا لسنا هنا ياسيد ثابت لكى نغمس فى مغامرات . يجب ان نرحل »

ولسوء الحظ لم تكن هناك وسيلة لمغادرة البلاد قبل الصباح التالى . ووطدت نفسى على قضاء ليلة ثانية فى فندق اورينت بالاس ، مدركا ان البوليس السرى سيحاول مرة أخرى الوصول الى أوراقى ، ومن ثم فقد توجهت الى غرفتى مبكرا . وفى الساعة التاسعة سمعت طرقا على الباب : كانت السيدة الشابة جميلة جدا .. شعر اسود بديع ينحدر على ظهرها ، وكانت ترتدى ثوبا باريسيا دون شك من المخمل الأخضر المضلع ، أما قلادتها فلا يمكن ان تأتى الا من كارتييه .

وسألتنى : « هل يمكننى مساعدتك ؟ »

قلت : « كيف ؟ »

« اننى خادمة الليل »

ورغم انه كان من الصعب تصديق ذلك ، فاننى ترددت كثيرا قبل ان ارفض خدماتها ، واحسست بتوتر متزايد لو اننى استغرقت فى النوم ، فانهم سيقتحمون الغرفة ويحاولون سرقة أوراقى . ولما كانوا مشهورين بقتل الناس « بطريق الخطأ » والاعتذار بعد ذلك فقد قررت ان النوم سيكون امرا غير حكيم ، ومن ثم فاننى سوف انقل التحدى الى العدو . ومرت الليلة دون ان يغمض لى جفن فعلا ، حيث تركت بابى مفتوحا جزئيا ، مع اطفاء كل الأنوار واسدال الستارة التى تخفينى عن الخارج ، لعل أى قادم سوف يعتقد على الأرجح اننى مسلح فى انتظاره ، وطوال الليل كنت اسمع أصواتا تغدو وتروح فى صبر نافد خارج باب غرفتى ، بينما كانوا يتساءلون عما اذا كنت قاتلا خطيرا متمرسا ..

وعند الفجر كنت لا أزال حيا ، بعد ان قرر رجال المخابرات السورية حوالى الفجر ان التعقل هو افضل جزء من الشجاعة ، واسرعت باحضار الجنرال شميت وانطلقنا الى بيروت حيث أمضينا بقية اليوم فى حمام السباحة بفندق الملك داود تحت سماء البحر المتوسط الزرقاء .

هاتان المغامرتان جعلتا شميت سعيدا لفترة من الوقت ، وان كانت سعادة الجنرال قد قدر لها ان تكون قصيرة الأجل . واستمررنا فى ارسال الرسائل الى فاروق ، الذى واصل التذرع بالصبر . وفى الوقت نفسه ازددنا رؤية لعجز فاروق عن تحقيق رغباته من جنراله الألمانى الجديد . ورغم الطلبات المتكررة لرؤية

تقرير أركان الحرب عن الحرب الأخيرة ، فقد استمر تجاهلها وعدم الرد عليها ، فقد كان حيدر باشا اكثر اهتماما بعملية تغطية لمنع أى تحليل انتقادى لقدراته الخاصة أو قدرات ضباطه .

والواقع ان مثل هذا التقرير لم يكن له وجود للأسباب نفسها . وكانت الضغوط التى مارسها الملك قبل ذلك فى أوائل العام قد أدت الى زيارة من أحد ضباط حيدر ، هو القائمقام حمدى هيبة الذى كلف بشرح الحرب لشميت . ولما كان هيبة بعيدا فى وقت الحرب حيث كان يعمل ملحقا عسكريا فى واشنطن ، فان روايته لم تشبع احتياجات الضابط الألمانى ، الذى دهش علاوة على ذلك وأحس ببعض الحيرة لمحاولات هيبة إلقاء محاضرات عليه عن الحرب بوجه عام . وقال لى عندئذ :

« اننى لا أستطيع ان أفهم القائمقام ياسيد ثابت .. هل يعتبرنى مجندا غشيما من الريف ؟ اننى لا احتاج الى اشخاص لكى يلقوا على مسامعى تفاهات عسكرية أولية . اننى أرغب فى دراسة وتقييم استراتيجية الاركان العامة المصرية فيما يتعلق بحرب ١٩٤٨ ، طرق ارسال الأوامر ، والأوامر ذاتها ، والطريقة التى كان الضباط على كل المستويات يفسرون بها مثل تلك الأوامر . ودرجة المبادرة الشخصية والقرارات التى تجد تشجيعا . وفى رأيى ان هذه المسائل وتدريب القوات هى العوامل الحاسمة فى الحرب ، بل انها اكثر أهمية من الحصول على الأسلحة »

كان يبدو واضحا ان الفجوة بين حيدر وشميت سوف تبقى دون ان تسد ، وان الملك رغم كل الجهود ، كان يواجه بصورة متزايدة عملية عصبة القصر التى يرأسها حيدر باشا .. وجاء اليوم فى النهاية فى يونيو ١٩٥٠ ، عندما وصلت تعليمات من القصر بأننا يجب ان نتوجه الآن لرؤية حيدر باشا ، الذى وافق أخيرا تحت الحاح الملك ، على مقابلة شميت ومساعدته فى مهمته . وصحبت الجنرال الى مكتب حيدر فى الثكنات البريطانية السابقة بقصر النيل ، حيث يقع اليوم فندق النيل هيلتون . واستقبل حيدر الجنرال شميت بفظاظة وهو جالس وراء مكتبه . ورغم انه كان قادرا على التحدث بالانجليزية جيدا ولن يجد اية صعوبة فى اجراء حديث مباشر معه ، فقد فضل الحديث بالعربية تاركا لى مهمة الترجمة .

وقال حيدر : اسأله ماذا يريد .. مكتب ؟ سوف نوفر له ذلك ! سوف نعطيه غرفة مدير الدفة فى الباخرة النيلية التى ترسو امام قصر النيل .. هل يريد ضابطا ؟ سوف يوضع القائمقام مصطفى تحت تصرفه .. هاهو ، تحدث معه »

هكذا تم صرفنا بسرعة من حضرة حيدر . وكان واضحا ان رغبات صاحب الجلالة يجرى تنفيذها بأسوأ قدر من الكياسة ، وأقل قدر من المجاملة .

وفى التاسعة تماما من صباح اليوم التالى وصل شميت الى مكتبه الذى أعد فى

غرفة مدير الدفة باحدى البواخر النيلية القديمة ، التى حملت فى شبابها حملة الجنرال ولسلى لانقاذ غوردون فى الخرطوم ، ومع ان تجهيزات المكان كانت قليلة ، ان لم تكن ناقصة .. فإن شميت اخذ مكتبه الجديد بطيب خاطر :

وقال لى : « هذه المكاتب ياسيد ثابت اكثر فخامة بالتأكيد من مقر القيادة الذى كنا نشغله فى معارك غزالة بالصحراء . ان الجنرال يجب ان يكون مستعدا للعمل بكفاءة تحت ايه ظروف ، ويجب ان نشكر اللواء حيدر على كرم ضيافته .. ولكن أين مساعدى الأول ؟ وكان يشير الى الضابط كبير المساعدين ، القائمقام مصطفى الذى خصص للعمل معه ، والذى لم يكن قد وصل بعد ـ وقال لى شميت : « هذا امر خطير جدا ياسيد ثابت ، فإن اقل مايستطيع ان يفعله اى ضابط ، هو ان يصل فى موعده . كان ينبغى ان يكون هناك قبل الجنرال »

ولكن كلا ! لقد اخذت الدقائق تمر والقائمقام لم يصل . وفى التاسعة والربع بالضبط نهض الجنرال واقفا وقال : « لن انتظر أطول من ذلك »

وهبطنا من باخرتنا وسرنا نحو سيارتنا ، وعندئذ فقط وصل القائمقام مصطفى وخرج من سيارته بسرعة ، وهو يكرر اعتذاراته وصاح :« لقد ثقب اطاران فى سيارتى فى الطريق »

والتفت الجنرال اليه مبتسما وقال : « اننى شديد الأسف ياكولونيل . ففى الجيش الألمانى ليس هناك أى اعتذار يقبل من أى ضابط . يؤسفنى اننى سأقدم تقريرا الى قائدك .. والآن ارجو ان تعذرنى فاننى يجب ان انصرف »

هذا الحديث المتبادل يعد نتاجا لنموذج تقليدى للدسائس التى كانت تجرى فى القصر . وتلقيت فى وقت تال من اليوم مكالمة تليفونية تتسم بالهياج من اسماعيل شيرين الذى قال لى :« لقد أهان جنرالك الجيش المصرى . ان الملك غاضب ، وقد طلب منى ان ابلغك بضرورة احضار الجنرال الى مكتبى حيث اننى سوف اتولى أمره ، ولكننى أود أولا ان يبعث لى ببيان من مؤهلاته والمناصب التى تولاها حيث اننا نفهم انه جنرال للامدادات فقط ، وأريد ان أعرف المزيد عنه قبل ان اتخذ اية قرارات »

وقررت ان أذهب لمقابلة اسماعيل ، اذ كان من الواضح ان اية طلبات كهذه اذا قدمت لشميت ، سوف تجعله يجهض خططه المصرية ويعود الى المانيا . وفى نفس الوقت كان الجنرال من جانبه قد قرر ان حيدر خصم صعب المراس وانه ليس هناك اى مستقبل حقا فى اجراء محادثات معه أو رجاله أو أعضاء أسرته ، وقال انه من الآن سوف يتعامل مع جلالة الملك مباشرة . لقد أعطى كلمة للملك ، وحصل على ضمان جلالته شخصيا .

ولم تسفر مقابلتى لاسماعيل عن أى شيء حاسم . فقد أعرب عن شعوره بالصدمة لمواقف شميت المهينة ، ومضى يحذرنى من ان الجيش لن يسمح بأية انتقادات مباشرة أو غير مباشرة لقائده العام المحبوب حيدر باشا . وقال : على

أية حال فقد فهمت أنه مجرد جنرال امدادات ، واذا وجدناه مفيدا فسنكون على استعداد لأخذه كمستشار من نوع ما ، ولكن ليس هناك أمل فى اعطائه حق قيادة قوات مصرية ، حتى لأغراض التدريب . واذا أصر الملك على تأييده ، فانه يجب ان يتوقع عواقب ذلك داخل القوات المسلحة »

ونتيجة لهذه الأحداث كتب شميت فى يوليو ١٩٥٠ رسالة استقالة للملك ، ونظرا لطرافة ماورد فى الرسالة وماجاء فيها من تنبؤات الى حدما ، فاننى انشر هنا صيغتها كاملة ، من خط يد شميت نفسه ، مع الاحتفاظ بلغته الانجليزية بطابعها الخاص وذلك فى الملحق رقم واحد فى نهاية الكتاب ، وكان رد الملك لايزال نصحه بالصبر ، فقد كان جلالته يعتزم اقالة حيدر باشا فى المستقبل القريب ، وعلينا ان ننتظر .

وقد ايد عزام باشا نفسه هذه النصيحة ، وقد دام الانتظار قرابة عام آخر ، الى ان وقع حدث جعل شميت فى النهاية يقرر ضرورة الرحيل . ففى ذات صباح تلقيت مكالمة من وزارة الحربية .. ان نصرت باشا الوزير يود رؤية الجنرال ، فهل يمكنه تقديم نفسه فى التاسعة من صباح اليوم التالى بالوزارة ؟ ووصلنا الى وزارة الحربية فى التاسعة تماما من الصباح التالى ، حيث أدخلونا غرفة مدير مكتب الوزير وهو قائمقام بدين من سلاح المشاه . وحدق القائمقام فى شميت بدهشة ، حتى تبين له ان هناك خطأ ما ، وقال : كلا ! ليس هذا اننا نتوقع الآخر ! »

وشرعت على الفور فى استقصاء الأمر ، واكتشفت مالايمكن اعتباره الا الغدر الأخير . كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، بدون علم الملك ، ومن وراء ظهورنا ، قد تم الاتصال بها لطلب « جنرال المانى » وكان فى الواقع موجود فعلا فى شخص الجنرال فارمباخر ، الذى كان « القائد الألمانى الأخير لميناء برست الفرنسى » ثم أخذه الأمريكيون أسيرا بعد فتح الجبهة الثانية وكان دور فارمباخر ، ان يزود عصبة حيدر ببديل لشميت ، حتى يمكنهم مواجهة الملك بهذا البديل كضابط اكثر ملاءمة .

وبمواجهة هذا الأمر الطارىء الجديد ، اضطررنا الى اعادة النظر فى موقفنا . ان اشتراك وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى الأمر يعنى ان الاسرائيليين أصبحوا الآن فى الصورة ، وان كل جهودنا المضنية وترتيبات الأمن الفعالة قد تطايرت فى الهواء ، وان السر أصبح معروفا للعدو بواسطة قادة جيش فاروق الفعليين* وكان الضحية الأخير لكل ذلك هو فاروق ذاته ، اذ ليس

* تبين فيما بعد فعلا ان « الصفقة » تمت مع الجنرال جيهلن عن طريق عميل لوكالة المخابرات المركزية يدعى بات اينشلبرجر ، المتعاون مع الموساد ـ وكالة المخابرات الاسرائيلية ـ وهو افتراض وارد وكانت علاقات الموساد مع منظمة جيلهن ، التى أصبحت فيما بعد جهاز مخابرات المانيا الغربية الرسمى ، معروفة تماما بصورة علنية ولم يخترق عملاء اسرائيل منظمة جيهلن فحسب بل ان جيهلن نفسه كان على علاقة بها انظر ايضا كتاب ريتشارد ديكون « اجهزة اسرائيل السرية » شركة تابلينجر للنشر ـ بنيويورك .

من المتوقع ان يبقى نظامه عندما يمارس الغدر والخيانة على هذا النطاق فى اعلى المستويات .

وحزم شميت حقائبه . وغادر مصر خلال الاسبوع فى ٥ يونيو ١٩٥١ ، قبل اكثر قليلا من عام من اندلاع ثورة عبدالناصر فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وعجلت بتنازل فاروق عن عرشه بعدها بأربعة ايام .

ويمكن اعتبار رحيل الجنرال بأنه كان نهاية لأية آمال لدى النظام فى احباط أى تمرد عسكرى ، كما أنه يمكن اعتباره علامة على بداية الفصل الأخير فى عهد الملك فاروق .

٢٣ ـ الضباط الأحرار والصلات الأمريكية

كان ذلك فى أبريل ١٩٤٧ ، عندما كنت فى نيويورك ، حيث اتصل بى عزام باشا ليقول لى : « سأرسل لك شابا أمريكيا يدعى كيرميت روزفلت ، إنه ذاهب إلى القاهرة ويود مقابلة أشخاص هناك ، فهل يمكنك إعطاؤه بعض خطابات التقديم ؟ » . ومن ثم فقد زودت كيرميت برسائل لعدة أصدقاء ، من بينهم الأميرة فائزة وزوجها محمد على رؤوف ، ولعل ذلك كان بداية لعملية جعلت كيرميت روزفلت بعد أربعة أعوام راعيا مزعوما للثورة المصرية .

وكان اندرو تاللى قد نشر فى عام ١٩٦٢ كتابه : « المخابرات المركزية الأمريكية : القصة الداخلية » ومن الواضح أنه صدر بمباركة رسمية ، لأننى تلقيت نسخة مع تحيات السفارة الأمريكية ، ووفقا لما ذكره تاللى ، فإن كيرميت روزفلت عاد إلى القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، قبل ثورة الضباط الأحرار بستة شهور بالضبط ، وكان قصده تنظيم « ثورة سلمية » بقيادة فاروق ، ولم يكن واضحا تماما ما تستلزمه هذه الخطة الطموحة ، ولكن لم يكد يمر شهر حتى قيل إن كيرميت « خاب أمله فى فاروق » ونتيجة لذلك تخلى عن فكرة « الثورة السلمية » وأجرى ترتيبات للالتقاء بالضباط الأحرار المصريين ، ولكن فى نفس الوقت ـ كما يقول تاللى ـ كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد قررتا منذ أكتوبر ١٩٥١ أن فاروق يجب أن يذهب ، ويقول إنه بمجرد وقوع الانقلاب ، امتنع روزفلت والعاملون معه عن أى اتصال مباشر مع عبدالناصر تجنبا لأى

إيحاء بوجود أى علاقة مستترة*

ولم يكشف تالى قط عما جرى وراء الكواليس بالضبط ، ولكننا إذا صدقنا رواية تالى ، فقد يكون هناك ما يبرر لنا أن نستنتج أنه كان هناك بالفعل مستوى من التواطؤ بين مسئولى المخابرات الأمريكية والضباط الأحرار ، حيث يقول تالى بوضوح :

« لم يقم عبد الناصر بأى تحرك إلا بعد أن استشار أشخاصا كان يعتبرهم أكثر خبرة بأشياء مثل الانقلابات العسكرية . وكانت تلك هى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التى كانت قد أرسلت عددا من العملاء المهرة إلى القاهرة ليراقبوا عن كثب نظام فاروق الآخذ فى الضعف . وكان بين هؤهؤلاء العملاء ضباط سابقون فى مخابرات الجيش ، الذين أمضوا أغلب حياتهم العملية فى الشرق الأوسط ، والذين كان يستريح إليهم عبد الناصر .. وقد أعطت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الاشارة فى أواخر يوليو ١٩٥٢ ، فهب فريق الضباط الأحرار بزعامة عبد الناصر إلى العمل[١] » .

« إن الاعتماد على التقارير الأمريكية والمعلومات التى نشرت وحدها يترك الدوافع غامضة ، غير أن الاستنتاج المعقول ، هو أن الهدف الأمريكى كان إنهاءُ القتال فى فلسطين عن طريق صلح بين مصر وإسرائيل ، وفى نفس الوقت إحباط أية خطط قد تكون لدى مصر لشن حرب ثانية ، وكان إخلاص فاروق للقضية الفلسطينية ، ورفضه أية رشوة ـ كما سوف نرى ـ يمثل عقبة لا يمكن تذليلها أمام أى نهج كهذا . وهكذا أصبحت إزالة فاروق نتيجة منطقية يبدو الموقف الأمريكى فى ضوئها واضحا ومفهوما . وكانت حقيقة أن عصبة القصر وفرق حيدر باشا قد نجحوا فى منع فاروق من إقامة أى اتصال شخصى مع شباب الضباط فى الجيش ، وبذل عززوا مشاعر السخط والعداء بين جماعات الضباط حيال عزلة الملك ، وقدمت لوزارة الخارجية الأمريكية موقفا جاهزا للاستغلال .

وفى هذا الصدد ، فإن الدور الذى قام به صحفى شاب ذكى هو حسنين هيكل ، الذى تدرب فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يتخذ أهمية خاصة ، وقد ذكر ما يلزكوبلاند ، العميل السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية صراحة فى كتابه « لعبة الأمم » (أن بيل ليكلاند كبير المسئولين السياسيين بالسفارة الأمريكية ، أصبح على علاقة ودية لأول مرة مع ضباط عبد الناصر الأحرار عن طريق محمد حسنين هيكل) . ومن المفترض أن هيكل قام بدور بارز كحلقة اتصال بين الأمريكيين والضباط المصريين فى الشهور التى أدت إلى تنازل الملك عن العرش .

★ اندرو تالى .. المخابرات المركزية : القصة الداخلية ـ وليم مورو نيويورك ١٩٦٢

(١) نفس المصدر السابق ص : ١٠٥

وقد نفى هيكل مزاعم كوبلاند وقال أنه لم يتورط قط فى مثل هذه المسائل .

وهناك مسألة هامة هنا تتعلق بحادثة موت أحد المؤسسين الأصليين لحركة الضباط الأحرار والتى أشرنا إليها فى هذا الكتاب ، وهو القائمقام أحمد عبد العزيز الذى قتل بيد حارس مصرى فى فلسطين فى ظروف غامضة بإطلاق النار . وكان القائمقام شخصية ساحرة ، وقائدا شجاعا إلى حد غير عادى ، وكان قبل وفاته بفترة قصيرة قد قاد وحدات غير نظامية من الجيش تغلغلت داخل فلسطين قبل نهاية الانتداب البريطانى ، كانت عند اندلاع حرب ١٩٤٨ تتأهب لاقتحام غزة قبل دخول الجزء الأكبر من الجيش . ولو أنه بقى على قيد الحياة لاستطاع تحرك الجيش أن يتخذ شكلا مختلفاً ، ولما وقع الانقلاب ، وكان سيسخر بالتأكيد من أى تعاون مع الأمريكيين ، رغم أنه ـ وهو الأهم فى هذا السياق ـ كان ينتقد إدارة حيدر للحرب بشدة ، ومازال هناك فى مصر حتى اليوم من يعتقدون أن مصرع أحمد عبد العزيز كان جريمة قتل وليس حادثا عرضيا . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن قدرا كبيرا من التغطية استخدم على حوادث عديدة سبقت التنازل عن العرش ، وقد يجد مؤرخون آخرون أنفسهم بترتيب أحداث رواية جديدة تثير الاهتمام عن هذه الأحداث .

وكما رأينا من قبل فإن الأمريكيين ، لأسباب خاصة بهم ، قرروا فى أواخر ١٩٥١ ، أنه لابد أن يفعلوا شيئا بشأن فاروق . وقد أرسل كيرميت روزفلت إلى القاهرة فى يناير ١٩٥٢ بواسطة آلن دلاس بأوامر من الجنرال بيدل سميث ، وقيل إن روزفلت بدأ بالعمل مع فاروق من أجل إحداث « ثورة سلمية » ولكننى أرى أن هذا الأمر كانت له مظاهر هدف غريب ، إذ أن الحضور إلى القاهرة فى المقام الأول يفترض مسبقا وجود نوع من الدوافع ، والقيام بهذا العمل بمصاحبة آخرين ، كان من بينهم عملاء لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية مثل مايلز كوبلاند وبات ايتشلبرجر ، يجعل المشروع بأسره يبدو مثيرا للشبهات ، مثل وصول « فرقة هجوم » تابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

هذه الحقائق فى حد ذاتها تميل بطبيعة الحال نحو تأكيد كتابات كوبلاند* وتاللى ، وبعدهما جون رينلاغ ، الذى وصفت صحيفة الواشنطن تايمز كتابه الأكثر حداثة « الوكالة : صعود وانهيار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية » بأنه أكثر تأريخا وتقييما لوكالة المخابرات المركزية موضوعية سيكون لدينا بواسطة شخص غير محترف » . وقالت صحيفة بوسطن جلوب « إنه أكثر تواريخ الوكالة التى نشرت إنصافا وثقة » وقد كشف المؤلف جون رانيلاغ نقلا عن كيرميت روزفلت فيما يتعلق بمشاركته النشيطة فى إيران ، حيث ساعد فى

* مايلز كوبلاند « لعبة الأمم » شيمون وشوستر ـ بنيويورك ١٩٦٩ .

الاطاحة بالدكتور مصدق فى عام ١٩٥٣ ـ قوله « إن هذه العملية نجحت ، لأن الشعب وأغلب الجيش ، كانوا يريدون نفس الشيء الذى فعلناه ، ومن ثم فإنه كان شيئا يمكن عمله بوسائل سرية .. وقد قلت إنك إذا كنت لا تريد شيئا يريده الشعب والجيش ، فلا تعهد به إلى العمليات السرية ، بل أعهد به لمشاة البحرية » .

وفى مصر ، كان الضباط الأحرار يريدون بصورة إيجابية للغاية التخلص من فاروق ، ومن ثم فإن « العمليات السرية » يتوقع أن تصبح هى الأمر السائد ، وكما يؤكد رانيلاغ « فقد كان عبد الناصر يحظى بمساندة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للوصول إلى السلطة » :

« قام كيرميت روزفلت بنصح وتمويل زعماء الانقلاب بطريقة سرية وذلك ضد السياسة البريطانية التى تحاول إنجاح النظام الملكى للملك فاروق . غير أنه بالنسبة للأخوة دلاس ، كانت محاولات البريطانيين لاستمرار فى استخدام النماذج الاستعمارية الأولى ليست أكثر من دعوة للشيوعيين الوطنيين ، وهى بمثابة أمر توجيهى لهم[1] » .

ويقترح رانيلاغ ـ إذا كنت تريد أن تقرأ حكايات مثيرة عن « مآثر روزفلت المصرية » فعليك أن تستشير كتاب مايلزكوبلاند « لعبة الأمم » و « علم الجاسوسية الحقيقى » وكذلك كتاب ويلبر كرين ايفلاند « حبال من رمال » من أجل الحصول على سرد أكثر تفصيلا عن دور وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى أوائل الخمسينات[2] .

ويقول رانيلاغ « أنه فى حين أن ايفلاند يعترف بتورط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .. فإنه يتحدث عن تواضع كيرميت روزفلت بطريقة ملتوية بشأن الموضوع ، وهناك مسألة أخرى مهمة ، يبدو إنها تتطلب استقصاء آخر وتوضيحا ، وهى الزعم بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أهدت الضباط الأحرار ١٢ مليون دولار . فإذا كان مثل هذا المبلغ قد قدم حقا بواسطة تنظيم العمليات السرية ، فإن ذلك بدوره يدل على وجود دافع سياسى يتجاوز المبادلات الدولية العادية » .

ويقول رانيلاغ :

« وفى إيماءة تحد ، استخدم عبد الناصر أموال وكالة المخابرات المركزية

---

(١) جون رانيلاغ « الوكالة .. صعود وانهيار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية » هودر وستوتون ١٩٤٨ ص ٢٦٤

رانيلاغ ص ٣٠١

(٢) مايلز كوبلاند ص ٦٢ ـ ٦٤ « عالم الجاسوسية الحقيقى » سفير لندن ـ ١٩٧٨ ـ الصفحات من ٦٠ ـ ٦٤ ؟ ويلبر كرين ايفلاند « حبال من رمال » و . و . نورتون ـ نيويورك ١٩٨٠ الصفحات من ٩٥ ـ ١٠٥

الأمريكية .. جزءا من الاثنى عشر مليون دولار التى أعطيت لزميله اللواء محمد نجيب ، الذى كان زعيما مشاركا فى الانقلاب ضد فاروق ـ لبناء برج القاهرة ، الذى كان عبد الناصر وأصدقاؤه يسمونه فيما بينهم « النصب التذكارى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية » أو « نصب روزفلت » نسبة إلى جهود كيرميت روزفلت فى مصر » . وكانت الرشوة على نطاق واسع سمة مميزة لوكالة المخابرات المركزية فى الشرق الأوسط »

كانت العملية فيما يتعلق بفاروق تبدو فى الظاهر وكأنها نفذت لدوافع غامضة . كما يبدو وكأن روزفلت لم يكن مقتنعا منذ البداية بفائدة ما اقترح القيام به ، وبالمثل فإن قرار العمل مع عبد الناصر وضد فاروق كان غريبا ، يكشف عن مرونة غير عادية فى التفكير ، حيث أن روزفلت فى لحظة ما ، كان يفترض أنه يعمل لحماية الملك وإبقائه ، ولكنه فى اللحظة التالية يعمل للتخلص منه ـ وهذه بالتأكيد طريقة شاذة لإدارة عمل سياسى ، يحتمل بطبيعة أن يكلفهم أرواحا .

وثمة جانب آخر جدير بالتأمل ، وهو السر الذى يبدو أنه تسرب ، بشأن إبلاغ البريطانيين بالكيفية التى كان الأمريكيون يعملون بها مع الضباط ضد فاروق .

وكان جوليان ايمرى هو الذى أبلغنى فى لندن أن بات دومثيل ضابط المخابرات السابق فى السلاح الجوى الملكى البريطانى قد التقى به فى لندن قبل الإنقلاب لابلاغه بهذه الحقيقة ، ولكن عندما نقلت الرسالة إلى انطونى ايدن وزير الخارجية أجاب قائلا : « إن معلوماتنا هى أن ضباط الجيش جميعا مخلصون للملك » . وكان مصدر بات دومثيل على الأرجح من بين الضباط الأحرار ، ولسنا فى حاجة إلى البحث بعيدا عن دافع مصرى . لقد كان الضباط فى سعيهم لابلاغ البريطانيين عن التورط الأمريكى إلى جانبهم ، يحتاطون ضد أية تحركات للقوات البريطانية الى القاهرة من منطقة القناة ، وبهذا يصبح التضمين واضحا وهو أن البريطانيين كانوا على علم بتحرك وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد فاروق قبل تنازله عن العرش بكثير .

بيد أن هناك مسألة أخرى تخطر بالبال ، تتعلق بطلب حيدر باشا إرسال جنرال ألمانى . ومرة أخرى أبلغت فى لندن بواسطة عضو سابق فى « فريق هجوم » كيرميت روزفلت ، فإن الجنرال فارمباخر أحضر إلى مصر بواسطة جيمس هـ . كريتشفيلد ، أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى ألمانيا . وهنا أيضا تصبح أجزاء اللغز متناسبة معا إلى حد كاف . إذ أن طلب جنرال ألمانى لابد أن يكون قد نقل إلى الجنرال جيهلن الرئيس السابق لمخابرات

رانيلاغ ص ٣٠١

الجيش الألمانى ، والذى كان ـ كما يقول رانيلاغ ـ قد نصب منذ أوائل ١٩٤٩ رئيسا لجهاز مخابرات حكومة ألمانيا الغربية فى قاعدتها فى بوليتش خارج ميونيخ . ومن هناك كان يعمل بصورة وثيقة مع الأمريكيين . كما كان لوكالة المخابرات المركزية مكتب فى بوليتش يرأسه فى ذلك الحين كريتشفيلد ، وفضلا عن ذلك فقد كانت للجنرال جيهلن اتصالات وطيدة مع أجهزة المخابرات الاسرائيلية ، كما يشهد على ذلك دوره فى المساعدة على غرس الجاسوس الاسرائيلى فولفجانج لوتس فى القاهرة .

ومن ثم فإنه لا تزال هناك مجموعات مختلفة من الأسئلة تتطلب ردودا فى هذه المسألة برمتها ، وخاصة من الحكومة الأمريكية ، وقد يمكن إيجازها كما يلى :

١ ـ كيف ومتى اكتشف الأمريكيون وجود الجنرال شميت الذى جلبه فاروق إلى القاهرة ؟ وهل لاتزال الولايات المتحدة تنفى اشتراكها فى تجنيد الجنرال فارمباخر ؟

٢ ـ إذا كان التورط قد اعترف به الآن ، فكيف وعن طريق من قدم طلب الحصول على جنرال ألمانى بديل ، وهو ما حدث بعد ذلك ؟ وماذا كان التعليل المنطقى الأمريكى وراء الامتثال لهذا الطلب ؟ وهل كان متصورا أن الجنرال فارمباخر سيكون مجرد مستشار ، أم إنه سيعمل بصورة أكثر إيجابية كعميل أمريكى ـ إسرائيلى ؟ (وجيهلن بطبيعة الحال مشتبه فيه هنا بصفة خاصة فى ضوء إسهامه المعروف فى مسألة الجاسوس لوتس) .

٣ ـ ماذا كانت خلفية القرار الذى اتخذه بيدل سميث وآلن دلاس لتشجيع الثورة ضد فاروق ؟ هل صدر هذا التوجيه على مستوى عال جدا ؟ وعلى أية حال ما هى الدوافع المنطقية وراء القرار بإرسال كيرميت روزفلت إلى القاهرة ، وماذا كانت التعليمات التى لديه بالضبط ؟ وانطلاقا من ذلك ، ما هو الدور الذى قام به السفير كافرى فى السفارة الأمريكية ، وما هى الأنشطة التى نفذت فى ميدان العمليات ضد فاروق ؟

٤ ـ ما هو الجدول الزمنى لأنشطة كيرميت روزفلت فى القاهرة ؟ وهل تمت المقابلة التى ذكرتها الشائعات بينه وبين عبدالناصر فى قبرص (وهو مايبدو أمرا غير محتمل) ؟ وإلى أى مدى كان التنسيق بين فريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمصريين ؟ وما هو التمويل ـ إن كان هناك تمويل ـ الذى قدم للواء محمد نجيب قبل الانقلاب ؟ وما هى الظروف والتعليلات وراء هدية الاثنى عشر مليون دولار للضباط الأحرار إذا كانت قد قدمت فعلا ؟

لقد مر ما يقرب من أربعين عاما على هذه الأحداث ، وقد أصبح من الواجب ، من وجهة نظر الحقيقة التاريخية ، السعى لتقديم الحقائق بلا تزويق . وقد حان الوقت الذى ينبغى فيه اغلاق الأبواب نهائيا على المبالغات ، والاستنتاجات غير المضمونة والاهتمام بإذاعة معلومات حقيقية دقيقة . وقصدى هنا هو إثارة

الأسئلة أملا فى أن يستفيد منها الباحثون مستقبلا ..

وفى الوضع الراهن لمعلوماتنا ، فإن السؤال هو : (من كان يتلاعب بمن) مازال بلا اجابة ، غير انه سيكون من الخطأ القفز الى استنتاج ان وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قامت بأى دور فعال حقا فى الثورة المصرية . لقد كان استيلاء الجيش على السلطة مسألة مصرية أساسا ، ولم تؤثر أنشطة روزفلت على النتيجة ضد فاروق بأية صورة ..

وقد يكون من الأفضل النظر الى مغامرة الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية برمتها على انها تمثل مباراة مشوقة فى الجودو السياسى . كان كيرميت روزفلت ومساعدوه شبابا جذابا من الهواة ، كفلت لهم روح المغامرة والموارد الضخمة للولايات المتحدة مكانة وسمعة تحجب كفاءتهم الحقيقية الى حد بعيد . وقد صور مايلز كوبلاند فى كتابه العجيب « لعبة الأمم » مقدار خداع الذات الذى يمكن أن تولده مثل تلك الظروف ، إذ أن المرء يحصل على انطباع من روايته بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هى الرأس المخطط للثورة ضد فاروق . وأن قدرا مذهلا من الألفة قد نشأ بين عبدالناصر وعملاء الوكالة ، وأن البريطانيين الخبراء القدامى فى شئون الشرق الأوسط وجدوا أنفسهم مهزومين وما الى ذلك ..

ويبدو أن الأكثر اقناعا هو افتراض أن الضباط الأحرار استخدموا بنجاح مدو اتجاها سياسيا طبقه فاروق قبل ذلك ، وأعنى به استخدامه الأمريكيين ضد البريطانيين . وعند التخطيط للانقلاب .. كانت هناك مشكلة رئيسية ينبغى مواجهتها ، تلك هى وجود قوة بريطانية كبيرة فى منطقة القناة لا تبعد أكثر من ساعة عن القاهرة . وقد أشيع فى أواخر ١٩٥١ أن فاروق اتصل بالبريطانيين عن طريق رئيس ديوانه الجديد حافظ عفيفى باشا المحب للبريطانيين ، للحصول على تأكيدات بحدوث تدخل بريطانى فى حالة وقوع اضطرابات فى القاهرة ؛ وكان المعتقد أن هذه الخطوة أعقبها بالتالى اجتماع تم فى باريس بناء على تعليمات من فاروق ، بين السفير المصرى فى لندن عبدالفتاح عمرو باشا (الذى كان قد سحب قبل ذلك من لندن بسبب احتجاج مصرى) وبين انطونى ايدن وزير الخارجية البريطانى . وقد أجبر مثل هذا التوالى للأحداث الضباط الاحرار على أن يعتبروا التدخل البريطانى فى حالة الانقلاب احتمالا حقيقيا . وهكذا فإن الطريق الوحيد لمنع أى تحرك بريطانى هو استخدام الأمريكيين . وكان وجود كيرميت روزفلت وطموح السفير كافرى لتحقيق سلام بين مصر وإسرائيل يمثلان عوامل يمكن تعبئتها بصورة ايجابية ضد الملك . والظاهر أن هذا هو ما حدث .

ومن الممكن فقط الاعجاب بالمهارة التى استطاع بها ضباط الجيش الشبان الذين تنقصهم الخبرة التغلب على الدبلوماسيين المحنكين لاحدى الدول العظمى وهو ما يمكن استنتاجه من حقيقة انهم حققوا أهدافهم تماما ، ولكن دون أن يعطوا أى شىء مقابل ذلك ..

وكان من أبرز الضباط المصريين فى ذلك الحين قائد الجناح على صبرى رئيس مخابرات السلاح الجوى المصرى . وردا على الأسئلة التى وجهتها اليه رد على صبرى قائلا :

« لم يكن ممكنا أن يكون للضباط الأحرار أية تعاملات مع المخابرات المركزية الأمريكية لأننا كنا نعتبر الأمريكيين يقفون الى جانب الملك . وأية اتصالات كانت موجودة كانت ذات طبيعة اجتماعية أساسا . وكان الأمريكيون بطبيعة الحال مهتمين بالأحداث التى تجرى فى مصر . وكنت من جانبى أتمتع بعلاقات اجتماعية طيبة معهم ، لا عن طريق رئاستى لمخابرات السلاح الجوى فحسب ، بل أيضا لأننى تلقيت دراسات متقدمة فى الولايات المتحدة . وكنا حريصين فى كل محادثاتنا مع الأمريكيين على ابقائهم غير عالمين بنوايانا ، وأن نغذيهم بمعلومات مضللة . وهذا ما حدث بصفة خاصة عندما سألونا عن الأزمة التى تحيط بانتخابات نادى الضباط (وهو حدث رئيسى فى اشعال الثورة) فإننا أبلغناهم أن هذه مسألة داخلية تتعلق كلية بمسألة النادى وليست لها أية تضمينات أخرى » .

« وبالنسبة للسؤال عما اذا كان الأمريكيون قد استغلوا ضد البريطانيين ، فإنها لم تكن مسألة استغلال ، بقدر ما كانت استخداما للأمريكيين كقناة لتوصيل المعلومات الى البريطانيين . وقد حدث ذلك بعد الانقلاب مباشرة ، وكانت الرسالة التى أعطيناها للأمريكيين لنقلها هى اننا لسنا شيوعيين ولا فاشيين ، واننا ضد فاروق لأسباب معروفة ، واننا ننصح البريطانيين بقوة بعدم التدخل . ولوكانوا قد فعلوا ذلك ، فإن خططنا كانت ستلقى بالبلاد كلها فى حرب عصابات كبرى . وكانت لى من جانبى علاقات شخصية طيبة بالملحق الجوى الأمريكى الذى كان صديقا لى . وقد سمعته بنفسى وهو يبلغ السفير كافرى بوجهة نظرنا ، ولا أشك فى أن الرسالة قد نقلت الى لندن ، حيث كان لها الأثر المطلوب » .

ولا حاجة للقول بأن تقييمات منتفخة عن أهمية الروابط الأمريكية مع نظام عبدالناصر مازالت داء متوطنا فى الدوائر الأمريكية . ومؤلف هذا الكتاب هو نفسه تلقى دفعة من التأكيدات فى ذلك الحين من مستشار السفارة الأمريكية بيل ليكلاند ، والسفير كافرى ، الذى كان يميل الى اعتبار الانقلاب الناجح ضد فاروق انتصارا شخصيا له . وقد مضى كافرى فى توثيق علاقاته الحميمة بالضباط الأحرار الى حد انه كان يشير اليهم بقوله « أولادى » فى حين أن ليكلاند ، وهو مسئول سياسى كبير بالسفارة ، استمر يشير الى الضباط الأحرار فى محادثاتنا بكلمة « نحن » بطريقة تظهر انه يعتبر نفسه واحدا منهم تماما ! ..

وهناك عميل لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، يبدو أن ضميره كان يؤنبه

أكثر من الباقين ، انهار ذات مساء فى بيت الأميرة فائزة ، واعترف بأنه تدرب فى أحد مراكز الوكالة فى الولايات المتحدة على تنظيم ثورة فى دول الشرق الأوسط . وكان قد حظى بالكثير من اللطف وكرم الضيافة من الأميرة ، حتى انه أحس بالذنب عندما عرف أنه عمل ضدها وضد شقيقها .. ولكن السؤال البارز الذى يبقى هو : لماذا انحازت الولايات المتحدة فجأة إلى جانب جماعة من ضباط الجيش المنشقين ، وهى دولة أجنبية كانت تتمتع فى البداية بعلاقات ممتازة مع فاروق ؟ وكيف يمكن أن يبرر ذلك بخدمة المصالح الأمريكية ، وخاصة عندما نفكر فى الطريقة التى دفعت بها الثورة المصرية مصر الى صراع مرير مع الولايات المتحدة ـ ذلك الصراع الذى أدى الى تغلغل مزعج للنفوذ السوفيتى داخل مصر ، وهو تغلغل أدى بدوره مباشرة الى شبه استيلاء على الاقتصاد المصرى بواسطة مجموعة الكوميكون الشيوعية ..

غير أن هناك سؤالا آخر قد يكون هناك مبرر لتوجيهه ، وهو : كيف تسنى للقائد العام أن يتعاون بهذه الصورة الوثيقة ضد ملكه وفى زمن الحرب مع قوة أجنبية كانت اتصالاتها الوثيقة مع اسرائيل معروفة جيدا ؟ وانطلاقا من ذلك يبقى السؤال النهائى والذى لا يقل أهمية وهو : ما هى بالضبط الشكاوى العميقة التى يمكن وحدها أن تبرر مثل هذا الغدر من حيدر ؟

وللبحث عن رد عن هذين السؤالين ، جعلت شاغلى أن أبحث عن أشخاص مختلفين لسؤالهم عن رأيهم ، وكان بينهم حلمى بك مسلم ، وهو دبلوماسى عثمانى مخضرم ، وسكرتيرا سابقا لسعيد حليم الوزير الأكبر ، كما كان مسئولا سياسيا فى أركان حرب الجنرال كريس فون كريسنشتين مع القوات التركية على قناة السويس فى عام ١٩١٦ .. وكان مصريا من أصل تركى انضم الى جماعة تركيا الفتاة عشية الحرب العالمية الأولى ، طويل القامة مهيب الطلعة ، وكان مظهره الهزيل وجسمه شديد النحول نوعا ، يؤكدهما الطربوش العالى ومعطفه العسكرى الكبير الذى كان يرتديه عادة . وكان حلمى بك مراقبا دقيق الملاحظة للمسرح السياسى فى مصر والشرق الأوسط ، فى الوقت الذى كان فيه ممثلا لمنظمة كردية غامضة مقرها باريس .. وها هو ذا ما قاله حلمى بك :

« فى رأيى أنه ليس هناك شك كبير فى أن محاولة فاروق ، بالتعاون النشيط لعبدالرحمن عزام باشا لايجاد شكل جديد من الوحدة العربية تقوم على أساس دولة فيدرالية عظمى ، وتجنيد مستشارين ومساعدين عسكريين من الألمانيين لبناء فرقة تدريب نموذجية ، كنمط لجيش عربى من مليون رجل ، وإنشاء سلاح جوى من ألفى طائرة ، وفوق كل شىء الامكانية الواضحة لمثل هذه العملية ، كانت كافية لازعاج اسرائيل ومؤيديها الأمريكيين ، إذ أن النجاح الكامل أو حتى الجزئى لمثل هذه الخطة سيحدث خللا خطيرا فى توازن القوى فى هذه المنطقة ويشكل تهديدا خطيرا لبقاء اسرائيل »

« والشيء الذى لم أفهمه هو سذاجة تفكير الملك وعزام .. فهل كان عزام والملك يعتقدان حقا أنهما يستطيعان الافلات ؟ ربما لو كانت السرية المطلقة قد طبقت عليها فإن العملية كان يمكن أن تتقدم بصورة تكفل صمودها أمام المعارضة الدولية .. ولكن ألم يكن الملك يتوقع رد الفعل من جانب حيدر بعد أن أطلعه على خططه وعلى وجود شميت ؟ »

وقد حدث فى صيف ١٩٥٠ أن اتصل بى صديق يهودى هو روبى حمصى ، كان رئيسا لشركة مستودعات بوندد بالاسكندرية ، وهى شركة لها مستودعات بجانب أرصفة ميناء حيفا ، ومارسيليا وأماكن أخرى . وقدم لى اقتراحا عجيبا .. قال انه على وشك الاحتفال برفع الحراسة عن شركته ، التى كانت باعتبارها يهودية ، قد تم الاستيلاء عليها بصورة مؤقتة بسبب حرب ١٩٤٨ مع اسرائيل ، وهو الآن ينوى اقامة حفل كبير بمناسبة انتهاء الحراسة فى مسكنه الفاخر بسيدى بشر !

وقال لى : « سيكون الجميع هناك » عمر فتحى باشا كبير ياوران الملك ، وقائد حامية الاسكندرية وكبار موظفى الحكومة ، وعلية القوم فى الاسكندرية .. فليس هناك من لا يود أن يرى نهاية لهذه الحرب السخيفة مع اسرائيل .. هل يمكننا التحدث عنها بصراحة ؟ »

قلت : « طبعا » ..

قال : « أن صديقا كبيرا لى هو مستر جيفرسون كافرى سيصل الى هنا قريبا ، وهو كما تعلم من كبار السفراء الأمريكيين ، وستكون القاهرة هى منصبه الأخير ، ومطمحه الكبير هو أن يشجع السلام بين مصر واسرائيل ، ولديه ثقة كبيرة فى قدرة الملك فاروق على أن يقود العالم العربى فى ابرام معاهدة صلح مقبولة . ان الأمريكيين يشعرون بقلق شديد من تهديد الشيوعية فى الشرق الأوسط ، وهم يعرفون أن فاروق يشاطرهم هذه المخاوف . واستمرار النزاع مع اسرائيل لن يؤدى إلا الى دعم الخطر الشيوعى ، ومن ثم فإن على فاروق أن يتعاون معنا فى ذلك . وأنا فى وضع طيب للقيام بدور هنا ، حيث اننى صديق لكافرى وصديق لوزير العدل الاسرائيلى ، الذى هو مستعد وراغب فى التعاون .. فهل يهمك ياعادل أن تقيم اتصالا مع عزام والملك فى هذه المسألة ؟ .

وتوجهت الى عزام باشا الذى نصح بالحذر ، ولكنه اقترح أن نحصل على المزيد من المعلومات ، ومن ثم فقد رأيت روبى مرة أخرى فى ساعة متأخرة من الليل فى أحد النوادى الليلية بالاسكندرية ، حيث رسم صورة مزعجة .. قال : « ان أغلبية حاشية فاروق وقادة جيشه أيضا قد تم جس نبضهم ، وقد وافقوا جميعا على انه ينبغى ابرام صلح » ولسوء الحظ كان فاروق مثاليا وعنيدا وفوق الرشوة بالتأكيد ، وكان الرجل الوحيد الذى يمكن أن يؤثر عليه فى هذا الاتجاه هو عبدالرحمن عزام ..

وقال روبى : « هل يمكنك ياعادل اقامة اتصال معه ، وسوف يسمح لنا ذلك بترتيب لقاء بالغ السرية فى باريس مع الوزير الاسرائيلى »

ووعدت بأن أبذل ما فى وسعى ، وعندما رأيت عزام فى اليوم التالى قال لى : « ان ما ذكرته لى تؤكده أجهزة مخابراتنا . انك لا تستطيع أن تثق فى أحد . ولابد أن نعتبر عرض المعاملات السرية فى باريس مع وزراء اسرائيليين يشكل وعدا « بصفقة » مالية ، ولا أعتقد أن الملك سيوافق على أى شىء من هذا القبيل » .

وعندما أثرت المسألة مع الملك بعد بضعة أيام ، قال الملك ضاحكا : « إذن فهم يعتقدون انهم يستطيعون رشوتى .. ما أعجب ذلك ! »

وتوجهت الى حفل حمصى ، وتصادف أن كان هناك نائبان بريطانيان صديقان هما بيلى ماكلين وجوليان ايمرى فى الاسكندرية فى ذلك الحين فاصطحبتهما معى أيضا . وكان لدى انطباع بأنهما دهشا لرؤية « العلاقة الحميمة » القائمة بين روبى حمصى الموضوع تحت الحراسة والعدو المفترض ، وبين كل هذا العدد من كبار المصريين الذين كانوا منذ بضعة أسابيع فقط يقومون بمراقبته !

وبفضل روبى التقيت فيما بعد مع جيفرسون كافرى عقب وصوله مباشرة الى القاهرة ، حيث أكد لى اعجابه بفاروق ، واقتناعه بأن الملك سيقوم بدور هام فى الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية . وبعد اجتماعى بكافرى بوقت قصير ، نشرت مجلة « تايم » الأمريكية صورة لفاروق على غلافها ، وكان ما نشرته عنه على غرار ما ذكره كافرى تقريبا .. ولا داعى للقول بأن كل هذه المحاولات لتحطيم ولاء الملك للقضية الفلسطينية قد فشلت ، ومن ثم فإن البديل الوحيد الذى كان لديهم هو التحريض على الثورة ضده ..

ولم يكن عزام باشا الذى كنت أقدم تقاريرى له ، يلوم الأمريكيين فى ذلك تماما ، ويرى انهم من ناحية تفكيرهم كانوا منطقيين ولديهم مبررات كاملة فى عزمهم على التخلص من فاروق . لقد كان الملك قبل الحرب زعيما للجانب العربى فى الحرب ، ورغم الضغوط القوية ، فقد قرر البقاء مخلصا للقضية الفلسطينية . وفى أنشاص كانت له اليد العليا على بعض الزعماء العرب الوقورين ، مثل السياسى العراقى المخضرم نورى السعيد ، وملك الأردن الماكر عبدالله ، وإجبارهم على التجمع من أجل قضية الحرب . وكانت مصر رغم عدم كفاءتها ، قد دفعت جيشها المحترف الى خوض حرب ١٩٤٨ ، والآن بعد هزيمتها ، كان فاروق يدبر بنشاط للانتقام على نطاق يمكن أن يمثل هزيمة ساحقة للاسرائيليين ، واضطرابا دوليا خطيرا للغرب .

وقد حاول كافرى فى البداية كسب فاروق للمشاركة فى عملية سلام على حساب الفلسطينيين ، غير أن الملك رفض تأييد ما كان يعتبره غدرا بالعرب الفلسطينيين ، وقد فعل ذلك رغم « نصيحة » أقرب مساعديه .

لقد كان بوضوح مثاليا لا يمكن رشوته ، وكان لابد من البحث عن أولئك الذين لديهم استعداد للغدر بالفلسطينيين فى أماكن أخرى ..

وفيما يتعلق بالضباط الأحرار أنفسهم فإنه يبدو أن خلافهم مع فاروق لم يبرز بقوة متنامية الا حول ما كانوا يفترضونه عن مسئوليته عن سوء ادارة حرب ١٩٤٨ . وكانت السرية التى تحيط بالسياسة العليا ، وافتقارهم للهدف السياسى جعلتهم يستمرون فى تخميناتهم حول الطبيعة الحقيقية لنشاط فاروق وأهدافه .

وقد أثرت هذه المسألة بعد بضع سنوات مع صديق لى كان له دور بارز فى انقلاب الضباط الأحرار ، فقال معقبا :

« من الواضح أن السرية التى كانت تحيط « بالسياسة العليا » لفاروق وافتقارنا الى الاتصال به ، أبقتنا فى الظلام فيما يتعلق بأى نشاط وطنى ربما كان يقوم به . وكانت صورته لدنيا سيئة . الى جانب محاولات حيدر لالقاء لوم الهزيمة على عاتقه . ولو كان الملك يعتزم الاعداد لجولة ثانية بصورة فعالة ، فإنه بالتأكيد لم يكن يثق فى ضباطه ، وبدلا من ذلك سمح لعصبة القصر بأن تعزله عنا . وكان الأشخاص الذين نتحدث معهم فقط من أمثال كريم ثابت ، واسماعيل شيرين زوج أخت الملك ، وحتى هؤلاء لم يعرفوا شيئا عن خطط الملك ، وكانوا يميلون الى انتقاده من وراء ظهره ، وهكذا كانت صورة فاروق لدينا صورة ملك محب للهو ، فاسد ، لا احساس لديه بالمسئولية ، من الأفضل إبعاده قبل أن يتمكن من قيادة مصر الى كارثة نهائية أسوأ حتى من هزيمتنا فى ١٩٤٨ » ..

وقد قامت مافيا قصر فاروق ، التى عزلته بصورة فعالة عن بقية البلاد ، بدور أكثر ايذاء . وكان لابد من اعدام حيدر باشا مباشرة بعد فشله التام ، ولكنه بقى عن طريق الضغط النشيط الذى كان يمارسه اسماعيل شيرين ..

ورغم هذا فإن فاروق ظل مترددا .. لقد كان دور حيدر هنا يحوطه الغموض ، إذ كان يقوم بدور مزدوج على الملك ، فمن ناحية كان يبدو مخلصا لصاحب الجلالة ، فى حين انه فى الناحية الأخرى كان يشن حملة ضده ، والأسوأ من ذلك أنه بذل ما فى وسعه للاقلال من خطر احتمال أى تمرد . وكان حيدر يعرف جيدا نوايا الضباط الأحرار ، ومع ذلك فقد كان يهدىء شكوك الملك بنشاط ..

ويبدو أنه ليس هناك شك كبير فى انه بينما كان ضباط الجيش يعتبرون حيدر التابع الأمين لفاروق ، الذى قادهم الى موقف عسكرى مستحيل ، فإنهم يعتبرونه حليفا نافعا ضد الملك .

وبعد أن انتهت مهمة شميت وعاد الجنرال الى ألمانيا ، ضاع كل أمل فى أية اصلاحات فعالة فى الجيش . وأظهر فاروق عجزه تجاه دسائس القصر ، فى حين

أن احتفاظ حيدر باشا بالسلطة كان يعنى اننا نستطيع أن نتوقع هزائم أخرى على أيدى الاسرائيليين . واذا كان الضباط قد لاموا فاروق على ذلك ، فقد كان لديهم ما يبرر هذا الاتجاه ..

٢٤ ـ العـــام الأخيـر

تبين أن جنرالا ألمانيا آخر قد استدعى الى مصر ، مما جعل شميت يقرر الرحيل . وكان وصول الجنرال الجديد فارمباخر ، الذى تم احضاره بواسطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لا يمكن اعتباره إلا غدرا رخيصة من حيدر باشا ومساعديه بمشروعات الملك فيما يتعلق بشميت . وكانت حقيقة أن صاحب الجلالة لم يفعل شيئا ، وإذعانه المفترض سببا كافيا يجعلنا جميعا ـ عزام وشميت وأنا ـ نفقد كل ثقة فى فاروق ونتخلى عن الجهود لتشجيع التغيير . وعلى أية حال فإن الأحداث كانت تتحرك نحو ذروتها ..

وفى يونيو ١٩٥١ صحبت عزام باشا فى زيارته الرسمية لتركيا . وكان قرار السفر جزءا من سياسات فاروق ذات الوجه الجديد ، وكان علينا أن نعود الى التقارب مع تركيا ، التى أرجئت طويلا . وقد جرت زيارتنا فى جو ودى رائع . وعندما وصلنا الى استانبول قرر عزام عن قصد ارتداء الطربوش ، رغم أن رجاله ظلوا عاريى الرؤوس بناء على تعليماته . وقبل أن نهبط ، عقد مؤتمر صحفى جيد الاعداد على متن الطائرة ، تحدث فيه عزام ، أحد قدماء ثوار تركيا الفتاة ، باللغة التركية ، وقال للأتراك انه جاء الى وطنه ، وأن تركيا دولة يعجب بها كل المسلمين ، واننا لن ننسى أن الأتراك كانوا الدرع المهيب للمسلمين فى مواجهة أوربا .

وكان استقبال الصحافة التركية له حماسيا ، ولم يرتفع أى صوت نشاز .. حتى أحمد أمين يالمان الذى ينتمى الى طائفة دونمى شبه اليهودية ، كتب مقالا

وديا رائعا فى صحيفة « وطنى » وعكس عدد من مانشتات الصحف أن من الأفضل لتركيا أن تترك حلف شمال الأطلنطى والأوربيين وأن تنضم الى الجامعة العربية . وهكذا تحطمت أخيرا سنوات ابقاء المصريين والأتراك متباعدين ، وهى الدعامة الأساسية للسياسة البريطانية منذ وقت طويل . فقد كانت العلاقات الطيبة مع تركيا أمرا جوهريا من أجل انشاء دولة عربية متحدة . وكان فاروق باعتباره حاكم مصر يتصدر الاطراءات التركية .

ولكن كانت هناك أحداث أخرى أكثر انذارا بالسوء تختمر . فقد شهد أكتوبر من ذلك العام الانهيار النهائى للمحادثات المصرية - البريطانية حول الجلاء الأخير للقوات البريطانية . وقررت الحكومة الوفدية برئاسة النحاس باشا ، التى عادت للحكم بعد انتخابات ١٩٥٠ ، أن تلعب بورقة الخط الوطنى . وفى محاولة أخيرة لايجاد حل وسط حول الاحتفاظ بقاعدة قناة السويس للغرب ، وخاصة حلف شمال الأطلنطى ، عرض على مصر وضع فى المركز الأول ، فى منظمة جديدة سيطلق عليها « ميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط » ، بحيث تكون مصر على قدم المساواة مع بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، بالاضافة الى دول الكومنولث الأخرى ، حيث تشترك معا فى ادارة قاعدة قناة السويس . ورفضت الحكومة المصرية الاقتراح ، بعد أن اعترضت بصورة منطقية على اغفال الدول الأخرى الأعضاء فى الجامعة العربية ، التى يعد اهتمامها بالدفاع عن الشرق الأوسط على الأقل أكثر تبريرا وأهمية من اهتمام نيوزيلندا واستراليا والدول الأخرى الأقل اشتراكا مباشرة . أن مصر لا يمكنها أن تغدر بأعضاء الجامعة العربية الآخرين بانضمامها الى مثل هذا الميثاق . وقد قررت الحكومة الوفدية ، التى أدركت جيدا انها بلغت نهاية الطريق فيما يتعلق بالمفاوضات المصرية - الانجليزية ، إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، كما انها أعلنت رسميا فاروق ملكا لمصر والسودان ، مستنكرة خلال ذلك ترتيبات الحكم الثنائى التى سادت منذ أعاد كيتشنر فتح السودان فى أواخر القرن التاسع عشر . وكانت تلك الاجراءات بمثابة اعلان الحرب على الوجود البريطانى فى منطقة قناة السويس ..

وبمجرد انتهاء الجلسة البرلمانية لتأييد هذه الاجراءات ، اتصل بى عزام باشا ليقول لى : « أبلغ الملك أن الأمور بلغت الآن ذروتها ، ويجب أن يتولى القيادة فى هذا الكفاح الجديد ضد البريطانيين . انه يجب ألا يسمح للوفديين أن يكونوا العقل الموجه للنضال ، واذا لم يتزعم القتال ضد بريطانيا فإنه سوف يخسر مركزه وربما فقد عرشه » ..

وقمت بواجبى فى نقل الرسالة . ولكن عصبة « مصر الصغرى » فى القصر كانت فى ذلك الحين قد وطدت مركزها ، وكان فاروق فى حالة ذعر .. ونتيجة لنبذ المعاهدة وازدياد الأمن تدهورا فى منطقة القناة ، سحبت مصر سفيرها عبدالفتاح

باشا عمرو من لندن . وفى نفس الوقت كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تجتمع فى باريس ، والأزمة المصرية ـ البريطانية تتصدر جدول أعمالها ، حيث دارت مناقشات مريرة وحادة ضد البريطانيين ..

وعند هذه النقطة اتخذت أعمال فاروق شكلا يثير الاشمئزاز بصفة خاصة ، فقد عين حافظ عفيفى باشا الموالى للبريطانيين رئيسا للديوان الملكى فى القاهرة ، وقيل انه لم يضع أى وقت فى الاتصال بالسفارة البريطانية لجس النبض عما اذا كانوا سيدافعون عن الملك عسكريا اذا أفلت زمام الأمور فى القاهرة ، كما أصدر فاروق تعليماته الى السفير الذى سحب من لندن لاجراء محادثات مع انطونى ايدن فى باريس داخل السفارة البريطانية فى ضاحية سان أونوريه (وقد شك الضباط الأحرار أنفسهم فى أن ايدن بعث رسائل مطمئنة الى القاهرة) وبالنسبة لنا نحن الذين حضرنا المناقشات فى الأمم المتحدة ، بدا لنا أنه الغدر النهائى ، ومنذ ذلك الحين فقد فاروق تأييد كل مصرى سليم الفكر ..

كان عام ١٩٥١ يقترب من نهايته فى حالة قريبة من الفوضى . فقد نشبت حرب عصابات عنيفة ضد البريطانيين بمنطقة القناة ، وانسحبت كل الأيدى العاملة المصرية تقريبا ـ حوالى مائة ألف رجل ـ من العاملين فى القاعدة ـ وهو أمر لم يتوقعه البريطانيون ، وأصبحت حامية قناة السويس البريطانية معزولة فعلا عن بقية البلاد ، وبعد أن أصبحت الحرب غير المنظمة هى السائدة ، فتحت الحكومة المصرية ترساناتها لتزويد المواطنين بالأسلحة . وبدا المستقبل مظلما حقا ..

غير أن باريس فى شهر نوفمبر من ذلك العام كانت مدينة مثيرة للمشاعر ، وهى تستضيف اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة . وكانت الجامعة العربية تتأهب لاثارة مسألة استقلال دول شمال افريقيا الثلاث : المغرب والجزائر وتونس ، وكان عزام باشا قد حصل على تفويض من الأحزاب السياسية الرئيسية فى هذه الدول للتفاوض للحصول على استقلالها عن فرنسا ، وكنت أنا نفسى عضوا فى اللجنة التى ضمت كل زعماء المغرب السياسيين ، وكان الحافز السرى هو جامعة عربية تصبح فى النهاية دولة عربية . ان ليبيا والمغرب والجزائر وتونس الحديثة سوف تصبح كيانات وطنية جديدة يمكن أن تنضم الى الاتحاد الفيدرالى فى الوقت المناسب . وكانت فرنسا التى سيكون الحصول على استقلال افريقيا الشمالية على حسابها تقف فى حالة تأهب ..

وكان عزام باشا قد دعى قبل ذلك لمناقشة موضوع افريقيا الشمالية فى كى دورسيه ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس .. بواسطة مسيو شوفيل السفير الفرنسى فى لندن . وبعد أن جاء الآن يحمل تفويضا للتفاوض ، استقبله الفرنسيون ببرود ، وأبلغوه أن هذه مسائل داخلية فرنسية لا يمكن التفاوض بشأنها . ومن ثم فقد تقرر اللجوء الى الأمم المتحدة . وبدا من المصادفات يومئذ

أن الجمعية العامة سوف تعقد اجتماعاتها فى قصر شايو بالعاصمة الفرنسية ..

وسرعان ما كانت المناقشات تجرى فى ١٩٥٢ لانتزاع استقلال المغرب من فرنسا . وقد استمعنا الى صورة خطابية ملهمة للغاية عندما وقف السفير عدلى اندراوس ، المندوب المصرى اللامع الذى يميل الى الفرنسيين يتحدى مسيو شومان وزير خارجية فرنسا .. كان خطاب اندراوس باللغة الفرنسية رائعا .. وباستخدام مزيج حاذق من التاريخ وتملق فرنسا وثقافتها وحضارتها ، مع تبنى المبادىء والمواقف الفرنسية ، هدم اندراوس القضية الفرنسية ، وحظى بذلك بالتصفيق الحاد من جمهور فرنسى أساسا . وكان هناك مشروع قرار بإدانة الاستعمار الفرنسى على وشك الاقتراع عليه ، ولم ينقذ الموقف إلا تدخل من المندوب الفرنسى ختمه بقوله : « أرجوكم ألا تدينوا فرنسا ! » .

كانت فعالية الجامعة العربية كأداة دبلوماسية دولية للتحرير قد ظهرت بوضوح فى الجمعية العامة . فقد عملت كل الوفود العربية معا بسلاسة تحت قيادة عزام باشا المصرى ، ومما يثير السخرية ان القضية الوحيدة التى تصدعت .. كانت قضية مصر نفسها ، فقد كان على الوفد المصرى أن يتابع قضيته ضد بريطانيا ، وهو يعرف أن الملك كان يتفاوض فعلا مع البريطانيين من وراء ظهره !

وقد أوفدت الى لندن بواسطة عزام باشا ، ومحمد صلاح الدين وزير الخارجية المصرى لجس ردود الفعل البريطانية وابلاغها لهما فى باريس . وكانت الرسالة التى طلب منى تسليمها هى : « ان المصريين الذين تسمونهم متطرفين اليوم سوف تعتبرونهم معتدلين غدا » ولم يكن أصدقائى فى الخارجية البريطانية . مستعدين للمساعدة ، وقال لى متحدث بالوزارة : « لقد تعبنا من الاستماع اليكم وأنتم تتحدثون عن الروح الوطنية المصرية مع انها لا وجود لها ببساطة . انها خرافة خلقها السياسيون عندكم لتغطية أخطائهم وفسادهم » ..

وعن طريق المساعى الحميدة لأحد أصدقائى ، وهو الملحق العسكرى الفرنسى ، استطعت الحصول على رد فعل بريطانى أكثر معقولية ، عندما قالوا له : « اننا نعرف المصريين حقا . فالحكومة الوفدية - مثل حكومات عديدة قبلها - شجعت هيستريا جماهيرية . انهم يسلحون أكثر العناصر غير المرغوب فيها ، ونتيجة لذلك أخذ موقف الأمن الداخلى يتدهور . وبينما تمضى هذه العملية ، سوف تبرز معارضة داخلية مصرية ضد الحكومة ، وبعد ذلك فان ضربة حاسمة منا سوف تطيح بهذا الشىء كله » .

والواقع أن الضربة حدثت فعلا فى يناير ١٩٥٢ ، عندما دمرت القوات البريطانية فى منطقة القناة أحد مواقع البوليس فى الاسماعيلية مستخدمة المدفعية والدبابات ، وقتلت عشرات من المدافعين الأبطال العزل . وفى اليوم التالى أضرب رجال البوليس فى القاهرة ، وانطلق المواطنون يحرقون كل شىء ..

وقد عزيت مسئولية أعمال الشغب الى مصادر مختلفة ، تتراوح ما بين الشيوعيين والاخوان المسلمين ، بل وحتى الملك . وكان صاحب الجلالة يقيم مأدبة لضباط فى قصر عابدين فى ذلك اليوم ، وكانت السنة اللهب من القاهرة التى تحترق تشاهد بوضوح من النوافذ الباروك البديعة لقصر عابدين ، غير أن فاروق امتنع عن اصدار الأمر بالتدخل العسكرى الى أن بلغت الحرائق مرحلة متقدمة للغاية .

ولم يكن فى استطاعة الحكومة الوفدية الا أن تنظر فى عجز ، بينما مأدبة صاحب الجلالة مستمرة . ثم حدث فى الرابعة بعد الظهر أن قام الجيش بتطويق المدينة التى يتصاعد الدخان من حرائقها ، وكان لا مفر من أن تقدم الحكومة الوفدية استقالتها ، وتحققت النبوءة التى سمعتها فى لندن .. لقد بدأ انحدار فاروق على السفح الذى أدى الى تنازله عن عرشه ..

وبينما أنهت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورتها فى باريس فى ربيع ١٩٥٢ ، وقع تطور آخر هام .. ان الاتحاد السوفيتى الذى كان قد اختار حتى ذلك الحين تجاهل الجامعة العربية باعتبارها أداة لاستعمار بريطانى مقنع ، اكتشف فجأة أنه بعد المناقشات حول استقلال المغرب ، وقضية مصر ضد بريطانيا ، أن النظام برمته قد تحول ضد الدول الغربية .. وكانت الجامعة العربية جديرة بوضوح باعتراف روسى ، ومن ثم فقد جاء مستر فيشنسكى الى القاهرة ليقترح عقد اجتماع بين الروس والمصريين ، وقد اشترك فيه فيشنسكى ، وبوجومولوف من السفارة السوفيتية فى باريس ، بينما مثل المصريين عزام باشا ومحمد صلاح الدين . وفى الاجتماع أبلغ فيشنسكى وفدنا استعداد الروس للمساعدة فى النضال ضد البريطانيين وغيرهم من الامبرياليين . ولا داعى للتأكيد بأن هذه الخطوة السوفيتية التى أحدثت فى النهاية تقاربا كبيرا مع مصر ، قد حدثت قبل مقدم عبدالناصر ، وقد تعامل معها ممثلو النظام القديم ..

وعدنا الى القاهرة التى كانت لاتزال خاضعة لنظام حظر التجول ، ولاتزال مظاهر التخريب واضحة فيها .. كان السخط فى كل مكان ، واصبح الملك الهدف الأساسى للاستياء .. وفى القصر كانت حرب الدسائس مستمرة ، والملك نفسه يتوسط الجدل الذى يدور فى الجيش . ومن ناحيته كانت عصبة حيدر باشا تحاول فى يأس الاحتفاظ بثقة الملك ، ومن الناحية الأخرى كانت هناك مجموعة أخرى برئاسة اللواء حسين سرى عامر تمد الملك بتقارير دقيقة عن الضباط الأحرار . وقد ذكرنى أحدهم بحادث يبدو انه جدير بالذكر ..

« كان حسين سرى عامر قد استطاع أن يعد تقريرا كاملا بالأسماء ، والأفعال والطموحات الخاصة بمجموعة عبدالناصر .. وعرفنا أنه تقرير ملعون ، وانه فى طريقه الى فاروق فى الاسكندرية ، حيث كان قد توجه لتفقد يخته

« المحروسة » الذى كانت تمت عملية تحديثه وتجديده فى ايطاليا . وكان لابد من عمل شىء ، حيث كان هناك دائما خوف من أن فاروق قد يتخذ اجراء ما . وكنا نعرف أن حيدر باشا قلق بشأن ارتفاع مركز حسين سرى عامر فى التقدير الملكى ، ومن ثم فقد أرسلنا عبدالحكيم عامر ، وهو أحد أفراد أسرة حيدر باشا ، لتحذيره بأن حسين سرى عامر يختلق حكايات عن الضباط الأحرار لكى ينال الحظوة لدى فاروق . وكان رد حيدر هو : « اننى أعرف ماذا تدبرون .. أنتم أولاد أشقياء وتلعبون لعبة شديدة الخطورة » ..

وعند هذه المرحلة كان حيدر قد انحاز الى جانب متمردى الجيش ضد فاروق ، لأنه كان يعرف جيدا أن مستقبله ـ أى فاروق ـ قد انتهى ..

وانطلق حيدر على الفور الى الاسكندرية لابلاغ الملك أن تقرير عامر متحيز وغير صحيح ، وهكذا أقنع فاروق بعدم اتخاذ اجراء فى ذلك الحين ، حتى يمكنه أن يحبط العملية بأسرها . وكان من نتيجة ذلك أن فاروق فضل تأجيل الأمور ، حتى بدأت الأزمة الحقيقية مع ضباط الجيش تكشف عن نفسها فى الصيف » ..

وكان الحدث الذى عجل بالأمور ، هو تعيين رئيس جديد لنادى الضباط بالقاهرة . ولما كان مرشح الملك هو اللواء حسين سرى عامر ، فقد عارض عبدالناصر ومجموعته التى كانت تتمتع فعلا بنفوذ فى دهاليز العسكريين هذا الترشيح ، واقترحوا بدلا منه اللواء محمد نجيب . وكان هذا أول تمرد علنى من الضباط فى وجه طلب ملكى ، وقد أقنع فاروق بأن أقوال حيدر باشا المطمئنة كانت زائفة وأن اللواء حسين سرى عامر كان على صواب . وتحرك على الفور لتعيينه وزيرا للدفاع ، وهو منصب يتوقع منه أن يتخذ اجراءات فورية ضد الضباط الأحرار ، غير أن هؤلاء قد أصبحوا الآن فى مركز يتيح لهم ممارسة الضغط على الحكومة . وعندما عرضت رئاسة الحكومة على الهلالى باشا . رفض أن يأخذ فيها حسين سرى عامر ، وبالمثل رفض المرشح الآخر لرئاسة الوزارة ، وهو حسين سرى باشا خال الملكة فريدة عندما اتصلوا به لتشكيل حكومة يكون فيها عامر وزيرا للدفاع ، وكان قد تلقى معلومات من زوج ابنته برفض الترشيح ، وكان زوج ابنته شقيقا لأحد الضباط الأحرار ..

وعندما وجد الملك أن كل الأبواب مغلقة قرر الوصول الى حل وسط مع الضباط الأحرار . قال انه مستعد لجعل اللواء محمد نجيب وزيرا للدفاع اذا استطاع حسين سرى عامر أن يصبح رئيسا لنادى الضباط . وكانت تلك بطبيعة الحال صيغة لانقاذ ماء الوجه تستهدف طمأنة الضباط الأحرار ، ولكن امكان نجاحها فى مثل تلك الساعة المتأخرة كان أمرا مشكوكا فيه . وعلى أية حال فإن العرض لم يحدث قط ، حيث انه لم يكن هناك أحد ينقله للضباط الأحرار ، بعد أن رفض حيدر حمل مثل هذه الرسالة حتى لا تكشف مركزه الغامض كوزير للدفاع ، الذى قدم استقالته ولكنها لم تكن قد تأكدت بعد . وبفضل السنوات

الطوال من الدسائس ، كانت عصبة القصر قد أخفت نفسها فى أحد الأد
بينما كان فاروق المعزول عن جيشه فى تلك النقطة الحرجة بالحواجز التى
رجال بلاطه ، يواجه انهيارا تاما للاتصال مع ضباطه ..

وفى حركة يائسة ، استدعى الملك مرة أخرى أحمد نجيب الهلالى
لتشكيل الحكومة ، ولكن شخصية وزير الدفاع الجديد لم يكشف عنها
التاسعة من مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، عندما وصل أعضاء مجلس الوزر
القصر لأداء اليمين ، وهناك قيل لهم أن اسماعيل شيرين ابن شقيقة
باشا ، وزوج شقيقة الملك سيكون هو الوزير المنتظر . وقد أظهرت هذه الـ
دليلا على سوء تقدير خطير بواسطة الملك ، فقد كان واضحا أن شيرين
يكفل الواجهة التى يتخذ من خلفها حسين سرى عامر ومرتضى المراغى
الداخلية الجديد النشيط اجراء ضد عبدالناصر ، وبالفعل فانه بعد ساع
أداء اليمين فى الاسكندرية ، وصلت الأوامر الى القيادة العليا للجيش بالا
لاعتقال الضباط الأحرار !

ولما كان عبدالناصر على اطلاع جيد بمسيرة الأحداث من شركائه فى الجيـ
فإنه لم يكن أمامه خيار الا أن يبدأ العمل . وحتى اللحظة الأخيرة ظلت ا
تتحرك بسرعة . وتم ايقاف كبار الضباط خلال دقائق ، بعد أن استطاع
عبدالناصر الاستيلاء على مقر قيادة الجيش ، فى الوقت المناسب لاعتقال
الضباط الذين أدهشهم الأمر ، لدى وصولهم .. لقد بدأت الثورة ، بعد ا
فاروق الزناد بسوء معالجته للأزمة !

٢٥ ـ ملك يرحل

كانت ليلة ٢٣/٢٢ يوليو ١٩٥٢ فى الاسكندرية يسودها جو منعش وكانت الأميرة فائزة قد قررت القيام بنزهة فى ميناء الاسكندرية فى الرملة البيضاء حيث تصيد الجمبرى ومخلوقات البحر الأخرى . وكانت « الرملة البيضاء » منطقة مفضلة للسباحة فى الميناء ، حيث كان القاع الأكثر ضحالة رمليا .. وكان الميناء فى تلك الليلة أشبه بمكان ساحر يتلألأ بالنور . وكانت السفن والأنوار الكاشفة تتنافس مع قصر رأس التين الذى تغمره الأضواء ، وهو القصر الذى أقامه محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، تعلوه قباب بهيجة من طراز الروكوكو الذى كان سائدا فى ذلك الحين ..

وأقلعنا الى منطقة صيدنا فى أحد القوارب الشراعية المكشوفة ذات الصارى المرتفع الذى يستطيع حمل ثلاثين شخصا على الأقل براحة معقولة . ولكن لعل المياه ذاتها كانت أكثر العناصر اثارة ، فقد كان فى امكاننا أن نرى المخلوقات البحرية ومن بينها الأسماك الزرقاء ، وأسرابا من الأسماك الصغيرة التى تترك فى أعقابها خطوطا فوسفورية دقيقة وهى تغدو وتروح بنشاط فى المياه المظلمة . وكان الغوص فى ذلك البحر من الضوء ، والتحول الى شكل جذاب مضىء أشبه بالآلهة ، يغوص بسرعة فى المياه الأكثر عمقا وبرودة فى ضباب رقيق من الفقاعات المتوهجة ، تجربة رائعة .. كنا جماعة كبيرة تضم الى جانب الأميرة وزوجها الأمير محمد على رؤوف ، المركيز دى بيرينات ، وجوجو نعوم ابن الحاخام الأكبر لليهود ، وميراوهبة ، والحشد المعروف فى قصر الزهرية ..

كان الصيد فى تلك الليلة ممتازا واستطعنا فعلا التقاط الجمبري من الماء .. وياله من جمبرى ! كان طوله خمس بوصات يمتلىء بلحم أبيض نظيف .. وكان الطعام الذى يحوى الشمبانيا مع الجمبرى والكافيار شيئا رائعا يتناسب مع المناسبة والجماعة ..

وفى الرابعة صباحا أقلعنا عائدين الى مرسى نادى اليخت الملكى ، وبينما كنا نمر بجوار مدمرتين بحريتين ، سمعنا أصوات الأبواق التى توقظ أطقمها . وقال أحد أعضاء جماعتنا معلقا فى مزاح : « ياللروعة ! .. ان البحرية المصرية تتفوق على البريطانية فى نوبة الاستيقاظ فى الصباح المبكر ! »

وقال آخر فى سخرية أكثر : « لابد أنه وقعت أزمة حكومية أخرى ، وقد أعلنت حالة التأهب ! » .

وعندما وصلنا الى السيارات التى تقف خارج النادى ، أدهشنا أن نلاحظ وجود حشد صغير من طلبة الكلية البحرية فى الشارع ، ونظروا الينا فى فضول .. كان هناك توتر واضح فى الجو . غير أن الساعة كانت الرابعة صباحا ، ولم يكن فى استطاعتنا أن نفكر فى شىء آخر غير الفراش . وعدت الى بيتى ، ولكن فى الساعة السابعة تماما أيقظنى زميل من الجامعة العربية ، وأبلغنى أن هناك شيئا حدث خلال الليل فى القاهرة ..

ولو أن فاروق ، فى هذا الصباح الأول للانقلاب أخذ سيارته وقادها مباشرة الى قيادة حامية الاسكندرية بثكنات مصطفى باشا ، لاستطاع أن يتولى قيادة قوة عسكرية كبيرة ، يزيد عددها كثيرا على متمردى القاهرة . وبالاضافة الى ذلك فقد ظلت البحرية المصرية موالية ، ومن الممكن الاعتماد عليها للتدخل لصالح جلالته ، ولكنه قرر أن يبقى ساكنا وترك الأحداث تسبقه .

وبعد بضع سنين أعربت عن دهشتى لهذا الخمول السلبى لاسماعيل شيرين ، فقال : « لقد اراد الملك تجنب سفك الدماء وان يقاتل المصريون المصريين » وبالفعل فانه عندما قام حرس الملك الذى يدافع عن قصر رأس التين بصد هجوم للقوات الثورية ، طلب الملك بوقف اطلاق النار . فقد كان مصمما على احباط اية حرب اهلية دموية محتملة ..

ولم يستغرق الأمر أكثر من ٤٨ ساعة لكى يؤمن فريق عبدالناصر موقفهم ، وأن ينقلوا قوات كافية من الموالين لهم لتأكيد قبضتهم على الاسكندرية . وبعد أن تحقق ذلك ، فإن الخطوة التالية كانت مطالبة الملك بالتنازل عن عرشه . وتحركت الأحداث بسرعة مذهلة . ففى خلال ثلاثة أيام من الانقلاب ، كان فاروق يتأهب للرحيل ، وتم تنازله عن العرش فى ٢٦ يوليو . وكانت الأوامر قد صدرت لليخت الملكى بالاستعداد ، ونظم حفل رسمى للرحيل فى رأس التين ، شهده اللواء محمد نجيب الزعيم الاسمى للانقلاب ، وضباط آخرون من زعماء الانقلاب ..

وكان غياب عبدالناصر واضحا .. ولكن شخصين آخرين لم يتغيبا ، هما الأميرتان فائزة وفوزية اللتان قررتا ضرورة رؤية شقيقهما قبل مغادرة البلاد وجاءتا بصحبة زوجيهما ، ولابد أن يعجب المرء بشجاعة هؤلاء الشبان الاربعة الذين كان لديهم اكثر من سبب يدعوهم الى الخوف ، ولاسيما بعد حادث اطلاق النار فى رأس التين فى نفس اليوم ، واحتشاد الآف المتظاهرين عند مشارف القصر ، والذين قد يكونون معادين إلى حد خطير لشقيقتى الملك المطرود .. لقد أقررت عزمهما ، وشجاعتهما فى وجه مجموعة ثورية خطرة غير معروفة . وتوجهت لرؤية عزام باشا ؛ الذى توجه على الفور الى التليفون للاتصال بعلى ماهر ، الذى دعاه الضباط الأحرار لرئاسة وزارة الثورة الأولى ..

وتحدث على ماهر الى أنور السادات ، الذى أحال المسألة بدوره الى عبدالناصر .. وخلال دقائق تمت الموافقة على الطلب ، وكان عليهما أن تكونا فى قصر المنتزه فى الرابعة بعد الظهر لوداع شقيقهما ..

وفى عصر ذلك اليوم توجه السفير الأمريكى كافرى بصحبة أنور السادات وصديقنا بوب سيمبسون فى طريقهم أيضا لحضور رحيل فاروق ..

وسأل مستر كافرى : « حسنا ياقائمقام .. هل ستبرمون صلحا مع اسرائيل الآن ؟ »

فأجاب أنور السادات : « سوف نفعل ذلك بمجرد تطهير الفساد » ..

وقد فعل ذلك بعد ثلاثين عاما !

ملحق (١)

نسخة طبق الاصل

من خطاب استقالة الجنرال شميت

(النسخة الاصلية مكتوبة بخط اليد)

الاسكندرية فى ٢٨ يوليو ١٩٥٠

عزيزى عادل :

عندما أبلغتنى منذ حوالى شهرين بأن منصب مستشار وزير الحربية لشئون المعدات العسكرية قد عرض علىّ ، على ان يكون ، وفقا لكريم ثابت باشا ، بدون أى سلطة ، فقد طلبت منك ان تتخذ ترتيبات لاعفائى من ذلك فى مثل تلك الظروف ، بطريقتك الخاصة .

وكانت اسباب طلبى هى كما يلى :

اننى بهذا العرض ادرك انه ليس هناك احد فى الجيش المصرى لديه اية فكرة عما يمكن عرضه على لفتنانت جنرال المانى ، ومن ثم فإننى يجب ان اعتبر العرض مهينا لى .

ولقد اغرانى على البقاء فى مصر كل هذا الوقت الطويل أن أصدقائى المصريين كانوا كلما نفد صبرى ، يشيرون مرة بعد أخرى الى حقيقة اننى استطيع ان اعتمد على كلمة صاحب الجلالة الملك ، الذى كان قد وعدنى بوحدة مستقلة تحت قيادتى المباشرة .

ويبدو لى الآن اننى اعتبر شخصا يقدس العمل ، ولايزال سعيدا للحصول على مثل هذا العرض ، ولدى انطباع بأن الدوافع لعرض خدماتى لايمكن ادراكها فى هذا البلد .

ومن ثم فاننى يجب ان اؤكد ان المهمة التى يمكن ان يتوقعها أو تكون جذابة لضابط قديم ذى خبرات افريقية فى حربين عالميتين ، عندما سألنى الوسيط عما اذا كنت راغبا فى خدمة الحكومة الملكية المصرية ، فاننى كنت آمل ان اتمكن من القيام بعمل فعال فى الجيش ، لأنها كما هو معروف فى بلدى ، دولة محبة للألمان ، وخاصة انه منذ اقامتى الأولى فى مصر بعد فشل الحملة الفلسطينية الأخيرة أحسست ان خدمات الألمان فى القوات المصرية المسلحة يمكن ان تكون ميدانا لنشاط لجهاد جديد لبلوغ اهداف رفيعة .

وخلال اقامتى فى مصر ، استطعت ان ارى دائما ، اذا عرف اننى ألمانى ، مدى مشاعر العطف التى كانت كل طبقات الشعب تقريبا تظهرها لنا نحن الألمان ، لافرق بين رجل الشعب البسيط أو المتعلم ، كما كانت لى نفس التجربة مع بعض الضباط وبينهم من هو فى رتبة القائمقام ، ممن تعرفت بهم مصادفة ، وقد أعلن هؤلاء انهم يرحبون كثيرا بضباط المان فى مراكز قيادية فى الجيش . ولقد كانت لى تجربة على النقيض تماما عند لقائى بالقائد العام للقوات المصرية المسلحة . ولا أود ان اكون غير منصف ، ولكننى لا أستطيع الا ان استنتج ، بعد دراسة دقيقة ، بأن هذا الضابط أحس انه مهدد منى ، منذ اللحظة التى طلبت منه فيها اذنا لدراسة الحرب الفلسطينية ، وانه يخشى ان أشير الى أخطاء هذه الحرب ، والى العيوب التى لا تزال موجودة فى تدريب تنظيم الجيش ، مما قد يضر بسلطانه عند الملك .

وكان من سماته المميزة انه وافق اولا على ان يبعث لى ضابطا لهذا الغرض ، وانه ظل شهورا عديدة يرجىء ، ويمنعنى عندما حاولت دراسة هذه الحملة حتى أتمكن من استخراج الدروس من هذا القتال الأخير . واليوم فإن رأيى الثابت ، هو ان الحرب ضد اليهود فقدت بواسطة قيادة غير قادرة ، وقد اكد لى ذلك ايضا قراءة الكتاب الذى تفضل جلالته بارساله لى عن الحرب فى فلسطين ، رغم ان هذا الكتاب الذى ألفه يهودى ويمجد الجيش اليهودى ، كان بطبيعة الحال منحازا لجانب واحد . ولكن اذا كان التفوق اليهودى فى الأسلحة خلال الأسابيع أو الأشهر الأخيرة من الحرب ، والعجز فى ذخائر القوات المصرية ، أو السلوك الغادر للفيلق العربى الأردنى ، يمكن ان تكون قد أسهمت فى الفشل ، فان هذا لم يكن الا نتيجة لقيادة مصرية غير قادرة ، عاجزة عن استخدام مزايا الاسبوع الأول ، وفرض قانون العمل على اليهود ، والقضاء على الدولة الاسرائيلية بحملة خاطفة لمدة اسبوعين على الأكثر .

واذا كان القائد العام تواقا حقا الى التدريب الجيد ، والمكانة المرتفعة للجيش ، فلماذا عمل على تخريب مقاصدى من دراسة الحملة الفلسطينية ، رغم انه عرف منى اننى حصلت على اذن الملك بذلك ؟ ألم يكن ينبغى له ان يسعد بالحصول على حكم ضابط خبير بالحروب ، اذا كان هدفه غير الأنانى ، هو

تحقيق أفضل حالة ممكنة للقوات المسلحة التى أؤتمن عليها ؟ والاكثر من ذلك ان الجيش حتى اليوم لم يستخرج الدروس من الحملة ، وهذا يجب ان يعتبر اهمالا خطيرا .

لقد عشت فى مصر فترة طويلة كافية ، وسمعت ورأيت مايكفى لمعرفة انه كان ينبغى ان تكون لدى امكانية القيام بعمل مفيد وذلك فى حالة اعطائى السلطة ، وخاصة مع مراعاة المقاومة المتوقعة من جانب القائد العام ورجاله . واننى مقتنع بأن أغلب الضباط المصريين وبالتأكيد اغلب الضباط من الشباب ، كانوا سيرحبون بعملى ومن كل الذين يريدون خدمة بلدهم وانشاء جيش حقيقى على الأقل . كما اننى اقتنعت ايضا بأن اغلب كبار الضباط لم يكونوا ليقاوموننى ، لأنه لم يكن فى نيتى ان اتصرف كناظر مدرسة ، بل ان اكسب الثقة والمودة .

غير انه من الواضح اننى لا أستطيع العمل بصورة مفيدة ازاء عداء القائد العام ، الذى اظهره لى بطريقة تخلو من اللياقة والسلوك المهذب . وبعد المحادثات مع كريم ثابت (الذى كان قد ابلغنى ان كل شىء تمت تسويته) الا اذا كنت مستقلا عن القائد العام ومنحت السلطة اللازمة .

وفيما يتعلق بالمركز المقترح ، فاننى سأكون مجرد « شخص يتلقى مرتبا » ـ كما اعتدنا فى الجيش الألمانى ان نسمى بازدراء الضابط الذى يكون اداؤه لايتطابق مع مرتبه .

ومثل هذه الوظيفة غير واردة بالنسبة لى .

عزيزى عادل : بعد حديثى معك المشار اليه آنفا . بوقت قصير ، طلبت الاذن لكى تسلم رسالتى لصاحب الجلالة ، بعد بضعة ايام ، حيث اراد القائمقام اسماعيل شيرين ان يتحدث معك عن مسألتى ، وقد وافقت على ذلك ، غير أن الحديث لم يسفر عن أية اخبار . غير ان الشىء الذى أدهشنى مرة أخرى هو ذلك التجاهل الذى ثبت مرة أخرى بشأن الجيش الألمانى . لقد ظن القائمقام اننى كنت « جنرال تموين » غير مدرك اننى لم يكن من الممكن ان اعين لفتنانت جنرال الا اذا كنت قد أثبت قدرتى على اكون قائدا لقوات فى الجبهة . وكان فى استطاعتى ان اعرض على القائمقام هنا رسالتين من الجنرال روميل يقر فيهما بجدارتى كقائد قوات موثوق به . وفضلا عن ذلك فانه من البديهيات فى الجيش الالمانى ، ان أى ضابط لم يكن يستخدم بشكل مستمر فى مناصب ادارية ، أو فى الاركان ، اذ ان القوات المقاتلة يجب ان تكون دائما أهم جزء من الجيش الحقيقى ، وهكذا أخذنى الجنرال رومل من منصبى ككبير للضباط الاداريين بالفيلق الأفريقى فى طرابلس بعد ان بقيت هناك ثلاثة ايام فقط ، وعلى الفور عينت قائدا لجبهة السلوم المستقلة (الحلفاية ـ البردية ـ السلوم) لفرقة البردية الألمانية ـ الايطالية ، وفرقة سافونا الايطالية ، بينما ارسلت الأجزاء الأخرى من قوات رومل لغزو طبرق (ونظيرى فى هذا منصب يومئذ هو الجنرال

البريطانى روبرتسون الذى أصبح قائدا عاما فى فايد)

ولو كان القائد العام أو أى ضابط من مساعديه اظهر اهتماما ، لأبلغتهم اننى حصلت فى الحرب العالمية الأولى على وسام الصليب الحديدى من الطبقتين الأولى والثانية ، واننى حصلت فى الحرب العالمية الثانية وانا قائد لمسافة حوالى ٢٠ مترا من خط الجبهة ، على جبهة الراين العليا على وسام الصليب الحديدى من الطبقة الثانية كقائد لمجموعة القتال فى شراسبورج ، والصليب الحديدى من الطبقة الأولى ، واخيرا فاننى بناء على اقتراح الجنرال رومل حصلت على وسام صليب الفارس للصليب الحديدى كقائد لجبهة السلوم ، والذى انشىء فى ١٩٣٩ كأعلى وسام حربى المانى ، وذلك عن انتصارى فى الدفاع عن البردية فى ديسمبر ١٩٤١ . وكما هو معروف فى الأوساط العسكرية ، فان أوسمة الصليب الحديدى وخاصة من طبقة صليب الفارس ، لايمكن الحصول عليها الا بقيادة ممتازة وشجاعة بارزة . اما « جنرال التموين » فلم يكن يستطيع الحصول حتى على الصليب الحديدى من الطبقة الثانية ، فما بالك بصليب الفارس !

عزيزى عادل : كنت قد أبلغتك قبلا ان بقائى الطويل فى مصر كان له تأثير غير ملائم للغاية على الإحترام الشخصى ، ومن ثم فقد طلبت منك بعد كل شىء ان تقوم بالاستعدادات اللازمة لعودتى مع زوجتى الى المانيا ، وحيث ان عزام باشا قد أعرب عن رأيه بأننى ينبغى ان انتظر فترة ، اذ انه يحتمل الا يكون فاروق قد أتيح له الوقت للوصول الى قرار لأسباب لانعرفها خارج الأحداث السياسية الجديدة ، واننى أرجو ابلاغه اننى لايمكننى احتمال اهمال مصالحى الشخصية اطول من ذلك ، وان كرامتى كجنرال المانى تتطلب منى وضع نهاية لاقامتى هنا ، وتجنب اية فرص أخرى اضطر فيها الى تعريض نفسى لمعاملة غير جديرة بى .

واعتقد اننى اظهرت دائما قدرا كبيرا من الصبر ، ويؤسفنى ان اضطر الى كتابة هذا القرار . ولاسيما ان من رأيى انه كان فى امكانى ان أحدث تأثيرا عميقا بمساعدة ضباط المان آخرين على القوات المصرية المسلحة ، وفضلا عن ذلك ، لأننى أرى ـ ان هذا الجيش تحت النظام الحالى ـ لن يقوم أبدا بالدور الذى يستطيع ان يقوم به بحق ، سواء كان ذلك ضد اليهود ، أو كعامل قوة فى الحرب العالمية الثالثة الوشيكة . ويكفى ان افكر فى المركزية المعيبة لتدريب مساعدى القائد العام ،والتى دمرت كل شعور بالمسئولية والاستقلال لدى قادة الجيش الآخرين ، والتى بمقتضاها سيصبح تدريب الضباط برتبة اللواء انفسهم ، اى الضباط الذين سيكون عليهم قيادة القوات فى أى حرب مستقبلا أمرا وهميا .

ومن ناحية اخرى ، فقد علمت ان الجيش اليهودى يستفيد من دروس القتال ، وانه يتابع اهدافه باطراد ولايبدد اية اموال وهو مالا يستطيع اى خبير

عسكرى ان يؤكده عن الجيش المصرى . اذا كان يتابع معلومات الصحف عن مسائل الجيش

ان مايعتقده الخبراء فى الدول الأوربية او فى الولايات المتحدة عن القوات المصرية المسلحة كعوامل فى استراتيجية الدول الكبرى . ظهر منذ بضعة أيام بمجلة « ايكونوميست » البريطانية عن « المدافعين عن الشرق الأوسط » وهو يقول « ان الجيش المصرى على الورق قوة ينبغى وضعها جيدا فى الاعتبار كعنصر الدفاع عن الشرق الأوسط » ولكن فعاليته لسوء الحظ ـ ولأسباب مختلفة ضعفت الى حد كبير والسبب الرئيسى لهذا التقييم قد أخفى لعدم ابداء مشاعر شخصية فالحقيقة هى ان على رأس الجيش المصرى ادارة من الهواة . لم تتدرب او تتأهل لمثل هذا المنصب الحافل بالمسئولية . والى جانب ذلك فانه عقب فشل حرب فلسطين ضعفت الثقة فى الضباط والجنود بصفة عامة ..

عزيزى عادل كنت أقول لك دائما اننى أريد ان ابعد نفسى عن السياسة وخاصة الشئون الداخلية لبلدكم فالواجب الوحيد على الجندى ان يكون مخلصا للقائد الأعلى صاحب الجلالة الملك . واذا كنت قد عزمت الآن على مغادرة مصر . وكنت اكثر صراحة وبساطة فى الحديث فى هذه الرسالة . فقد فعلت ذلك لأننى اعطيته كلمة شرف عندما عرضت خدماتى بأن اخدم مصر مثلما اخدم لوطنى ولما كنت اتمنى الخير لمصر . فاننى اعتبر من واجبى ان اذكر الحقيقة كما عرفتها . وان أشير الى أمور سوف يتبين بعد وقت غير بعيد انها غير ... انى لا أهتم كثيرا بالأشخاص . بل اهتم فقط بالجوهر . وهو مبدأ كنا نشدد عليه نحن ضباط الجيش الألمانى القديم . وان كان هذا المبدأ كثيرا لايفهم فى الشرق

و ... ان أطلب منك ان تعرب لعزام باشا عن شكرى الحار للود الذى أظهره نحوى وكرمه ولطفه لشخصى . فاننى ياعزيزى عادل . صديقك المخلص .

ملحق (٢)

مذكرة عن الخلفية التاريخية والسياسية للأسرة المالكة المصرية

أقيمت الملكية فى مصر فى عام ١٩٢٣ ، فى وقت كانت البلاد فيه لاتزال تحت الاحتلال البريطانى . وكان منح وضع السيادة المستقلة من الناحية النظرية ، لكى يتبعه بعد ذلك توقيع معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، غير انه عند التطبيق ، سمحت هذه الاتفاقية لبريطانيا ـ بين حقوق اخرى مختلفة ـ بالحق فى الاحتلال العسكرى للبلاد ، وان تنشىء قاعدة حربية فى منطقة قناة السويس ، لما وصف بأسباب تتعلق بأمن الامبراطورية .

ومع ذلك فان المعاهدة حولت فعلا التمثيل البريطانى فى مصر من مندوب سام الى وضع السفارة ، وكان من أثر ذلك خفض شخصية الحاكم العسكرى البريطانى للسير مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد-) من مندوب سام الى سفير ، وان كان قد تبين عند التطبيق ان هذا ترتيب « تجميلى » الى حد كبير .

وكانت احدى السمات المسيطرة فى السياسات المصرية مستمدة من وضع دستور ١٩٢٣ تحت تسلط بريطانى . وقد تعرضت تلك الاتفاقية للانتقاد فى مصر، لأنها صيغت وهى تضع فكرة توازن القوى فى الحسبان . وكانت تحوى مجالا من الغموض فيما يتعلق بالسلطة النسبية للملك ومجلس الوزراء ، وبذلك يستطيعون ان يضربوا أى حزب بالآخر .

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك مرارة معينة يمكن تبينها داخل صفوف الوطنيين المصريين ، الذين كانوا يجادلون بأن مبدأ الاصلاح الدستورى تحقق

فعلا خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر ، عندما وافقت الجمعية الوطنية بأغلبية الأصوات على دستور شريف باشا ، وسحبت السلطة التنفيذية من الحاكم بصورة فعالة . وفى ضوء ذلك اعتبر دستور ١٩٢٣ بمثابة عودة للوراء ، وان صياغته تمت وفقا لخطوط تلائم المصالح البريطانية . ولاشك ان هذا الموقف شجع على وجود نزعة جمهورية كامنة فى البلاد ، وأدت فى النهاية على اختفاء الملكية .

كان كل من الملك فؤاد والملك فاروق يميل نحو وجهة نظر أوتوقراطية ، مما لايتفق مع النظام الحزبى المصرى ، الذى كان حزب الوفد يسيطر عليه الى حد كبير ، كما انه بالمثل شجع على الانشقاق وانفصال شخصيات سياسية وفدية طموحة عن الحزب الأصلى للانضمام الى كيانات تحت رعاية القصر ، كانت تصطدم دائما بالوفد . وكان من بين هذه الفئات الحزب السعدى ، وحزب الاتحاد ، وحزب الأحرار الدستوريين .

وقد اكتسب حزب الوفد اسمه لأنه شكل من اعضاء الوفد المصرى الذى تكون بزعامة سعد زغلول للتفاوض مع البريطانيين حول شروط الاستقلال عقب الحرب العالمية الأولى . وفى تلك المرحلة كان الوفد يتمتع بتأييد حماسى من الشعب المصرى برمته مما اتاح له ان يخطط لثورة ١٩١٩ ضد البريطانيين ، والتى كانت بدورها عاملا رئيسيا أدى الى الاستقلال .

وبعد ان كان حزب الوفد يوصف بأنه « جبهة وطنية » فإنه أخذ يتآكل بصورة خطيرة بخروج الكثير من اعضائه انحيازا للقصر ، ومع ذلك ، فإن الحزب الأم استطاع منذ ايام الملك فؤاد فصاعدا ان يستمر ممثلا لأمانى الشعب الوطنية .. ويرجع ذلك الى حد كبير الى استمرار القوة الدافعة لثورة ١٩١٩ والاحتفاظ باسم « الوفد » ووراثته لتنظيم انتخابى وطنى أصيل . ولعل الاحتفاظ باسم الوفد قد أصبح أثمن رصيد وحيد له .

وكانت الحرب العالمية الثانية هى التى اثارت معركة فاصلة فى المواجهة الأساسية ، وبحادث عابدين فى ١٩٤٢ الذى فرض فيه السفير البريطانى على فاروق حكومة وفدية تحت التهديد باجباره على التنازل عن عرشه ، انكشفت الطبيعة الحقيقية للتحالف المصرى ـ البريطانى ، وبدأ خلل خطير فى التوازن الداخلى . فقد وجد الوفد نفسه مشوه السمعة من خلال دوره « كوكالة » بريطانية والاتهامات بالفساد التى وجهها له واحد من أهم أعضائه ، هو وليم مكرم عبيد ، وعندما سحب البريطانيون مساندتهم للوفد مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وجد فاروق ان اقالته من الحكم مسألة بسيطة .

وبخروج البريطانيين من الصورة نتيجة لمشاغلهم فى اعقاب الحرب ، تولى فاروق حكم البلاد وأصبح هو السلطة التنفيذية الأساسية فى مصر ، يحكم من خلال احزاب تميل الى القصر ضد معارضة وفدية أصابها الضعف الى حد ما .

ولكن فى ١٢ يناير ١٩٥٠ عاد الوفد الى السلطة ، وقيل ان ذلك كان تحت ضغط بريطانى . وكان التعليل المنطقى وراء ذلك حاجة بريطانيا للتفاوض مع مصر لابرام معاهدة جديدة على اساس شعبى قوى . وخلال تلك الفترة قادت مصر العالم العربى فى معارضته لانشاء دولة اسرائيل واصطدمت مع بريطانيا فى الأمم المتحدة ، وأصيبت بهزيمة فى حرب فلسطين المشئومة فى ١٩٤٨ .

وكان عام ١٩٥١ عام الحد الفاصل مؤذنا ببداية النهاية لفاروق . ففى اعقاب فشل المفاوضات فى لندن ، مضت الحكومة الوفدية المنتخبة حديثا فى اثارة اخطر الأزمات مع بريطانيا منذ ايام عرابى . ففى اكتوبر من ذلك العام نبذت معاهدة ١٩٣٦ وترتيبات الحكم الثنائى للسودان ، واعلنت حرب عصابات ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة . وكان الرد البريطانى الوحشى هو القيام بمذبحة لموقع امامى للبوليس فى الاسماعيلية ، مما أدى بدوره الى احراق القاهرة وسقوط الحكومة الوفدية ، وبعد بضعة شهور قصيرة تنازل فاروق عن عرشه وقامت هيمنة عسكرية .

وهكذا انتهت المواجهة التاريخية بين القصر والوفد بحل كل الأحزاب ، كما كان ذلك علامة على انتهاء لعبة توازن القوى ، بعد أن أبعد المتنافسون الثلاثة انفسهم عن مسرح الأحداث . وقد تبين على المدى الطويل ان حزب الوفد هو الوحيد الذى بقى من المشتركين فى اللعبة ، حيث استطاع فى السنوات الأخيرة ان يعود بصورة غير متوقعة على المسرح السياسى المصرى .

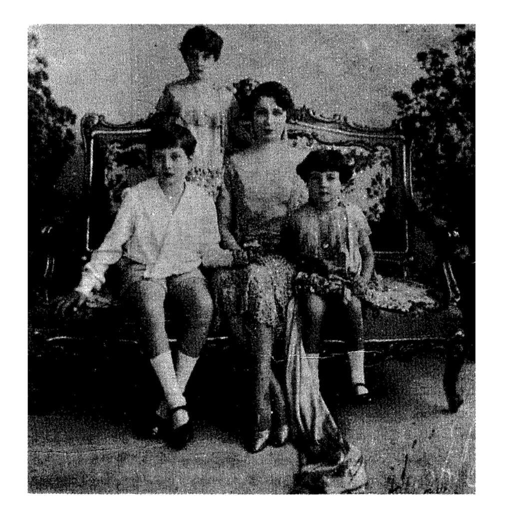
ومن اعجب الآثار التالية لدستور ١٩٢٣ التى تبينت .. هى تلك الطريقة التى سهل بها فرض الحكم الشمولى فى مصر . فعقب النهاية الناجحة لاستيلاء العسكريين على السلطة فى ١٩٥٢ ، وجد الرئيس عبدالناصر نفسه من الناحية الدستورية فى وضع يحسد عليه ، يستطيع فيه ان يجمع بين يديه السلطة السياسية ومهابة السفير البريطانى ، وملك مصر ، والأنظمة البرلمانية والحزبية ، وفى التحليل الأخير ، السلطة التنفيذية ، اذ لم يكن هناك أى جهاز دستورى ينازع سلطته فى تعيين رؤساء الوزارات واقالة الحكومات .

وهكذا بلغ حكم اسرة محمد على فى مصر منتهاه .. لقد بدأت بمحمد على ، الذى كان اول حاكم عثمانى ثم نائبا للخليفة العثمانى على مصر ، وبعد وفاته منح خلفاؤه لقب الخديو ، وهو اسلوب استمر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، عندما طرد لوردكيتشنر الخديو عباس حلمى واعلن السلطان حسين حاكما للبلاد . وبدأت اسرة الملوك بالملك فؤاد فى ١٩٢٣ ، وانتهت بتنازل ابنه فاروق عن عرشه فى ١٩٥٢ . ولو كان قد سمح لعملية الاصلاح الدستورى التى بدأها محمد شريف باشا جد الملك فاروق والشيخ رفاعة الطهطاوى فى ١٨٧٩ بأن تستمر .. لبدا من المحتمل ان تبقى الملكية فى مصر ، ولو على النمط البريطانى .

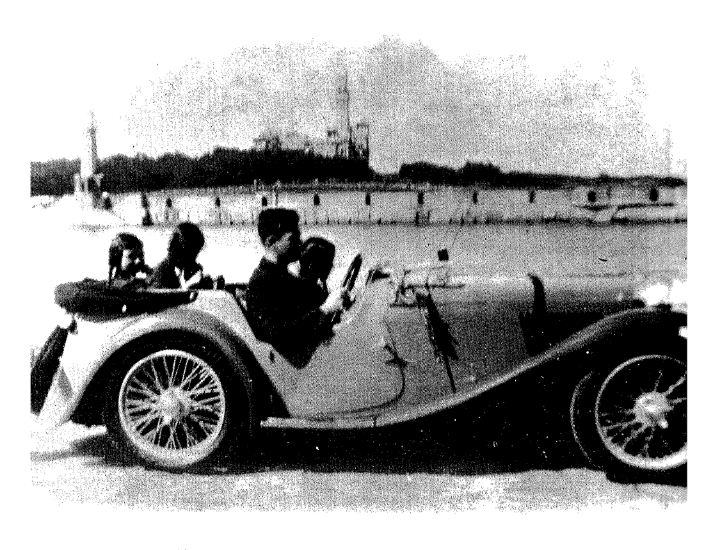
صـور نــادرة



فاروق فى طفولته كان جميل الشكل ميالا إلى المرح ومداعبة الآخرين .. ظلت الصفة الأخيرة ملازمة له حتى النهاية .. يرتدى فى الصورة طربوشا .. لباس الرأس التقليدى للمصريين فى ذلك الحين . ومعه دميته المفضلة : (تيدى) الدب !



صورة عائلية الملكة نازلى (الأم) مع أبنائها . فاروق وفوزية
وفايزة .. بينما لم تكن فائقة ولا فتحية قد ولدتا بعد ..



صيف عام ١٩٣٦ فى المنتزه بالاسكندرية وأول سيارة فى حياة فاروق .. كان عمره يومها ١٦ عاما والسيارة ماركة (چ . م) وكان يهوى القيادة بسرعة رهيبة !



صورة نادرة لفاروق فى سن المراهقة يتدرب على الملاكمة !



الملكة نازلى مع ابنها فاروق فى أوروبا ! فى (ثانى) رحلاته الى أوروبا .. الأولى كانت الى انجلترا وهو ولى للعهد .. وهذه فى رحلة (الخطوبة) الملكية حيث صحبتهم الآنسة فافيت أو صافيناز ذو الفقار ـ الملكة فريدة فيما بعد ..



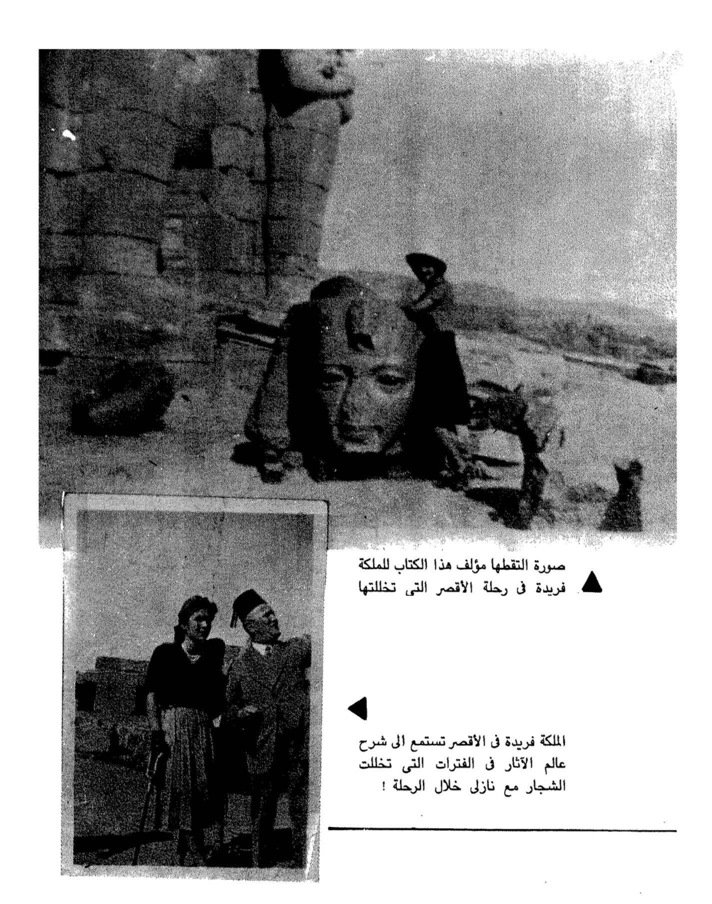
(فـافيت) ذو الفقـار أو فريدة ـ الملكة فيما بعـد ـ خلال الـرحلة العائلية فى سان مورتيز بسـويسـرا وحـولهـا الأميـرات شقيقـات فاروق . فى أعقاب العودة أعلنت الخطوبة الملكية !



الملكة نازلى فى جلسة مريحة بدون رسميـات ولا مجوهـرات .. كان جمالها مصريا صميما .. داكنة العينـين سوداء الشعـر فارعـة القامة ..



فاروق فى أوج شبابه عندما كان لايزال الملك المحبـوب والأمل الذى يتطلع اليه الشـعب ..



صورة التقطها مؤلف هذا الكتاب للملكة فريدة فى رحلة الأقصر التى تخللتها

الملكة فريدة فى الأقصر تستمع الى شرح عالم الآثار فى الفترات التى تخللت الشجار مع نازلى خلال الرحلة !



الملكة نازلى فى كامل الأبهة الملكية وهى ترتدى طاقم مجوهراتها الماسية الشهيرة .. التاج والقلادة والقرط وزوج من الأساور الماسية ارتدتهما فوق بعضهما .. الصورة التقطت لها فى عهد ابنها الملك فاروق .. عندما بدأت تعوض مرحلة حرمانها من الظهور فى المجتمعات على عهد زوجها الملك فؤاد



(طـورتة) العـرس الملكى .. دخل المصور الى المطـابخ الملكية
وقام بتصوير الطباخين وهم يعدون حلوى زفاف فاروق الى فريدة !



صينية الشراب أو (الشربات) الملكى . وتقديم الشربات بعد القران الى المدعوين هو تقليد مصرى صميم ولكنه هنا شربات ملكى فى أكواب ملكية من الكريستال (البكاراه) والشراب المفضل فى المناسبات الملكية كان (السوبيا) وشراب الفستق وشراب اللوز



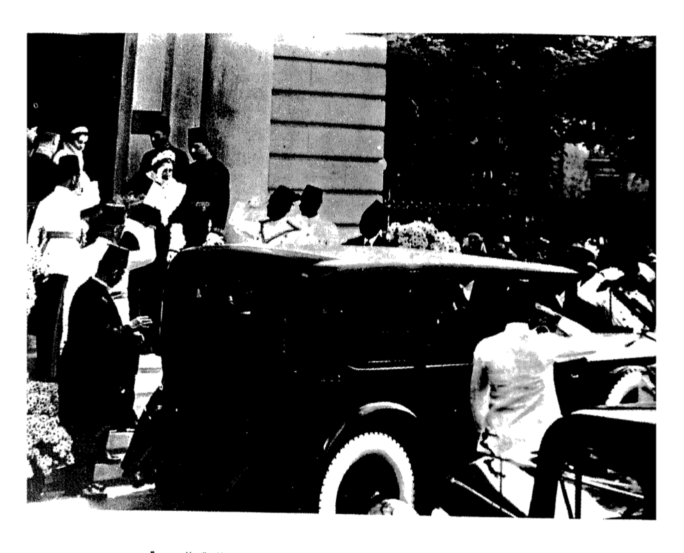
حفلة تنكرية كل أعضائها من عائلة محمد على (العائلة المالكة السابقة فى مصر) .. فاروق فى الوسط يرتدى الزى البدوى ، وإلى جانبه فريدة فى ملابس فتيات الغجر بوسط أوروبا .. هذه الحفلة أقامتها فى قصرها الأميرة سميحة حسين ابنة السلطان حسين كامل وزوجة وحيد يسرى باشا .



الملك والملكة عقب عقد القران .. وتظهر تورتة زفافهما على البوفيه الملكى يعلوها التاج ومعهما السلطانة ملك أرملة السلطان حسين كامل الذى كان يجلس على عرش مصر قبل الملك فؤاد ..



احتفال عيد جلوس الملك على العرش .. فى الصورة الملك ـ والملكتان . وفى أقصى اليمين السلطانة ملك



الملكة نازلى تستعد لركوب إحدى السيارات الملكية الرسمية
التى كانت تتميـز باللون الأحمر الفاقع .. وكان هذا اللون
مقتصرا على العائـلة الملكية فقط ، ووراءها الأميرة فايزة



الملك فاروق (وقد أطلق لحيته) والى جانبه الملكة
فريدة فى أوج تألقها فى الأعوام الأولى من الزواج ..



الملكة فــريدة فى ثـوب العـروس بالطـرحة والتاج الماسى الذى تم تصميمه خصيصا فى باريس وأصبح تقليده هو موضة ذلك العهد . وترتدى مع ثوبها وشاح الكمال من الطبقة الأولى الذى أهداه الملك اليها فى أعقاب عقد القران ..



الملكة نازلى وبناتها الأميرات شقيقات فاروق يرتدين (اليشمك) المميز ، وهو لباس رسمى للرأس فى المناسبات الملكية لا يخفى الوجه وإنما يزيده بهاء .. ويعتبر تطويرا للحجاب التركى .. بينما الأميرتان فائقة وفتحية ترتديان القبعة التى كانت سائدة بين الطبقات العليا فى ذلك العهد ..



الملكتان رقم (١) ورقم واحد مكرر .. ولا أحد يعرف أيهما كانت الأولى وأيهما كانت (المكرر) لذا كانت المنافسة بينهما والخلاف .. فريدة ونازلى فى احدى المناسبات الاجتماعية الخيرية ومعهما الأميرة فائقة ..



بعد زواج الأميرة فوزية من ابن شاه ايران أصبح عدد الأميرات شقيقات الملك ثلاثا فقط يصحبن (الأولى) نازلى فى كل مكان .. الكبيرات باليشمك .. والصغيرات بدونه .. (يلاحظ فى أقصى اليسار سيدة ترتدى الحجاب الكامل)



فى افتتاح موسم الأوبرا .. نازلى والأميرات فى اللوج الملكى .. وكان مخصصا للملكة والأميرات فقط .. وأمامه من الناحية الأخرى لوج آخر مخصص للملك وحده ..



الأميرة شويكار .. أغنى أميرات عائلة محمد على .. والزوجة الأولى للملك فؤاد (عندما كان أميرا) والتى طلقها فيما بعد .. وكانت الملكة فريدة تكرهها لأنها تقدم الفتيات الجميلات الى فاروق فى حفلاتها التى كانت حديث المجتمع المصرى ..



النبيل عباس حليم يرتدى زى طيار فى الجيش الألمانى خلال الحرب العالمية الأولى .. ويحمل على صــدره عدة أوســمة نالها من دول أوروبيــة . وكان الــود مفتقــدا بينه وبين فاروق ..



توحيدة يكن زوجة النبيل عباس حليم .. التى أقامت حفل كوكتيل فى قهوة بلدى تواجه سجن القلعة الذى اعتقلوا فيه زوجها وذلك لتغيظ الملك فاروق !



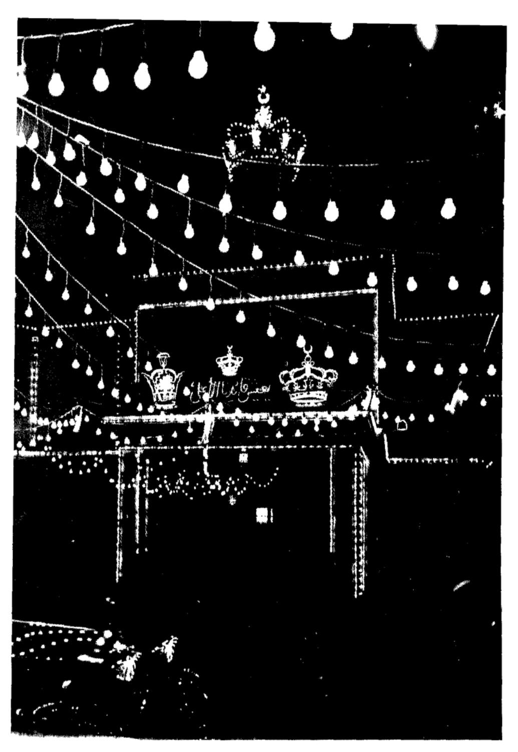
النبيلة نيفين حليم ، وكانت احدى أجمل أميرات العائلة المالكة هى وأختها الفيا .. نيفين قامت بدور البطلة فى فيلم (الهواة) الذى قامت بتأليفه وانتاجه واخراجه شلة الزهرية المكونة من الأميرة فايزة وزوجها رؤوف ، وشارك فيه السلك الدبلوماسى والأجنبى ككومبارس دون أن يعلموا !



القطار الملكى .. وهو ذات القطار المخصص للملك والملكتين والأميرات .. يسافرن به الى الاسكندرية والى الصعيد .. وكان هناك محطة سكة حديد ملكية خاصة ملحقة بقصر القبة .. فى الصورة الملكة نازلى والأميرة فوزية (قبل زواجها) والأميرة فائزة بزى الخروج الرسمى (اليشمك) تصحبهن الوصيفات وحرس الشرف ..



لح الحكومية والوزارات .. كانت تتبارى فى الاحتفالات الملكية فى تقديم استعراضات حية
ع العاصمة .. وهذه صورة لمشاركة مصلحة البريد فى احتفالات زفاف الأميرة فوزية من
د رضا بهلوى .. ساعى البريد فوق الموتوسيكل التقليدى مزين كله بالورود مع صورة
موجهين الى العروسين الملكيين ..



الأنوار والزينات التى لم تشهد لها القاهرة مثيلا فى العصر الحديث فى احتفالات قران الأميرة فوزية من ابن شاه ايران .. الصورة التقطت فى الليل وتظهر فيها (التيجان) الملكية للعائلة المالكة المصرية والايرانية مرسومة بأضواء اللمبات الكهربائية ..



فى قصر عابدين عقب قران فوزية من ولى عهد ايران .. الملكة نازلى ، وتجلس على طرف الكرسى الأميرة العروس فوزية .. بينما على الكرسى الآخر تجلس الأميرة شمس الملوك شقيقة العريس ، وإلى جانبها الأميرة أشرف (توأم) العريس .. فى الصورة أيضا الأميرة نعمت مختار عمة الملك فاروق ..

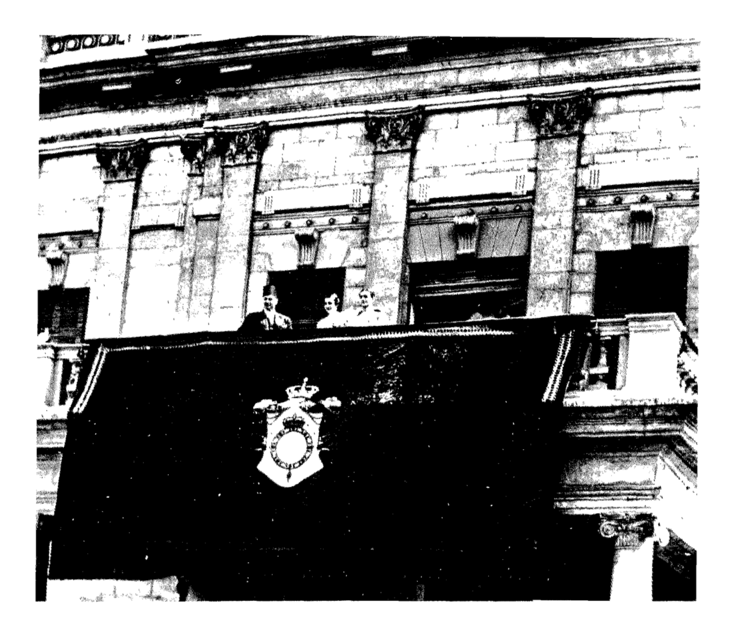


أمام البوفيـه الملكى بعد عقد القـران .. الملك فـاروق وإلى جانبه محمد رضا بهلوى
ومعهما بعض الباشوات من الوزراء

بدله « التشريفه » .. فى مؤخره الصورة الى اليميـن يظهر جزء من وجه
لـورد كيلرن سفير بريطـانيا (العظمى) وجـزء من وجه شريف صبرى باشا خال فاروق ..



الصورة الرسمية لما بعد القران .. العروسان الى يسار الملك .. الملكة فريدة الى يمينه ..
وفى أقصى يمين الصـورة الملكة نازلى .. يلاحظ عدم ظهور التيجان الملـكية فى هذه الصورة !



١٥ / ٣ / ١٩٣٩ .. التقطت فى أعقاب عقد القران مباشرة .. الملك والعروسان فى الشرفة التى تطل على ميدان عابدين .. وكان من عادة فاروق أن يطل من هذه الشرفة فى المناسبات ليحيى الشعب ..



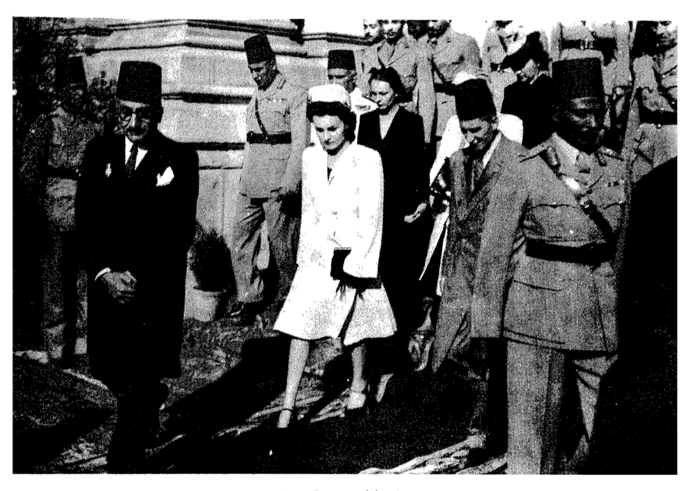
صورة نادرة للاستقبال الرسمى الذى أعد لعريس الأميرة فوزية عند وصوله الى محطة السكة الحديد بالقاهرة قادما من الاسكندرية .. وكان فى استقباله الأمير محمد على ولى العهد والذى يجلس بجانبه فى (الحنطور) وكلاهما بملابسه الرسمية وحولهما موكب الخيالة ..



صورة نادرة التقطت فى طهران لوالدة العريس محمد رضا بهلوى .. وكان
رضـا بهلوى يجمع بين ثلاث زوجات كل منهن تحمل لقب امبراطورة .. وتد
جانب الامبراطورة الملكة نازلى ، والتى كان الشاه رضا يخشى على زوجاته
تقـليدها فى ملبسها وتصـرفاتها .. كان يعتبـرها متحررة أكثر من اللاز



احتفالا بزفاف العروسين فى طهران .. الامبراطور رضا بهلوى يجلس بزيه الامبراطورى فى الوسط ، وإلى يمينه العروس ،وإلى يساره الملكة نازلى .. يليها العريس شاه بور محمد رضا بهلوى شاه ايران فيما بعد ..



'مبراطورة فوزية عندما جاءت الى القاهرة بتدبير من أخيها الملك
ـد بعدها الى طهران .. ويلاحظ هزالها الشديد !



ليفتنانت ـ جنرال ارتور فيلهلم شميت .. الجنرال بجيش هتلر الذى استدعاه فاروق بعد هزيمة ١٩٤٨ ليعيد تنظيم الجيش المصرى .. ولم يقدر للمهمة أن تتم ..



الملك فاروق بزيه الرسمى توجه الى الميناء لاستقبال الملك عبدالعزيز آل سـعود الذى وصل على ظهر الباخرة فى زيارة رسمية الى مصر .. ووراءهما عبدالرحمن عزام باشـا أول أميـن للجامعة العـربية الذى وضـع أسـس التحالف المصرى السعودى ..



الملك فاروق ـ كما يبدو فى أواخر أيام عهده كملك لمصر ـ ويلاحظ تضخم جسده والنظارة الداكنة التى كان يرتديها دوما فى السنوات الأخيرة وأصبحت علامة مميزة له ..

المحتويات

الجزء الأول : ملك فى الانتظار

١ ـ دادات ومربيات ١٩
٢ ـ الأمير طالب الكلية العسكرية ٢٩
٣ ـ الملكة الأم ٣٧
٤ ـ خلفية عائلة الملكة نازلى ٤٧
٥ ـ تركة الملك فؤاد ٥٧
٦ ـ سياسات القصر ٦٥
٧ ـ زواج ملكى ٧١
٨ ـ المتاعب الأولى ٧٧
٩ ـ القصر والأحزاب ، والقمصان الزرقاء ٨٥
١٠ ـ أطوار ملكية غريبة ٩٩
١١ ـ عيد الميلاد ورأس السنة فى الأقصر ١٠٧
١٢ ـ حادث عابدين ١١٣

الجزء الثانى : الفجوة الايرانية .

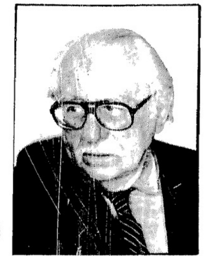
١٣ ـ تحالف بين الأسر الحاكمة ١٢٥
١٤ ـ زائرون من أسرة الأمبراطور ١٣١
١٥ ـ امبراطورة فى محنة ١٣٧
١٦ ـ فى فيللا انطونيادس ١٤٩
١٧ ـ مجموعة الزهرية ١٥٣

الجزء الثالث : ملك كائن .

١٨ ـ « مصر الكبرى » ضد « مصر الصغرى » ١٦٣
١٩ ـ الجامعة العربية والحرب الاسرائيلية ـ العربية الأولى ١٧٣
٢٠ ـ أسباب الهزيمة وعواقبها ١٨١
٢١ ـ التعرف على الجنرال ١٩١
٢٢ ـ الاهتمام بسعادة الجنرال ١٩٩
٢٣ ـ الضباط الأحرار والاتصالات الأمريكية ٢١١
٢٤ ـ العام الأخير ٢٢٥
٢٥ ـ ملك يرحل ٢٣٣
ملحق أول : نسخة من مسودة خطاب استقالة الجنرال شميث ٢٣٧
ملحق ثانى : مذكرة عن الخلفية التاريخية والسياسية للأسرة المالكة المصرية ٢٤٣
صور نادرة ٢٤٧

رقم الايداع ٨٦٧٨ / ١٩٨٩ الترقيم الدولى : ٣ ـ ٣٣٧ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧

طبع بمطابع الأخبار



مؤلف هذا الكتاب

عادل محمود ثابت مولود فى القاهرة عام ١٩١٩ . عين رقيبا على الصحف الفرنسية والانجليزية فى فترة الحرب العالمية الثانية . ثم عهد اليه فى عام ١٩٤٥ بمهمة شديدة الحساسية وهى السعى لدى شاه ايران من اجل طلاق الامبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق وكان أبوه محمود ثابت باشا سفيرا لمصر فى طهران فى ذلك الحين .. وعندما عادت الامبراطورة فوزية الى مصر عين ياورا خاصا لبلاطها . ثم عين فى عام ١٩٤٦ مديرا للبروتوكول بجامعة الدولة العربية وكان من أقرب المقربين الى عبدالرحمن عزام باشا اول أمين عام للجامعة العربية والذى كلفه بانشاء اول مكتب اعلامى للجامعة العربية فى نيويورك وحضر بعض المباحثات السياسية بين عزام باشا واكبر رجال السياسة الامريكيين فى ذلك الحين .

وفى عام ١٩٥٤ وبتشجيع من جمال عبدالناصر وتأييد وزارة الارشاد قام باصدار مجلة اقتصادية مصرية باللغة الانجليزية لاقت رواجا كبيرا فى مصر وفى الخارج .. والقى القبض عليه عام ١٩٦٢ نتيجة وشاية من المخابرات العامة فى ذلك الحين واودع السجن الحربى وقدم للمحاكمة مع البعثة الدبلوماسية الفرنسية بتهمة التآمر ضد الدولة ومحاولة اغتيال « الرئيس » والتخابر مع جهات اجنبية ، والتجسس لحسابها ، والتآمر مع بعض العناصر الرجعية بغية قلب نظام الحكم !!

وبعد خمسة أشهر من السجن الانفرادى افرج عنه بعد ان تكشفت براءته من جميع التهم التى وجهت اليه .

وقد حاول بعدها ان يغادر مصر ولكنه فشل حتى اضطر الى الهرب عن طريق ليبيا ومن هناك سافر الى المانيا .

وهو حاليا يملك دارا للنشر تحمل اسمه متخصصة فى المطبوعات والكتيبات الاعلامية عن مصر ومركزها الرئيسى دوقية لوكسمبرج . وقد صدرت عنها عدة كتب أهمها . خلفيات ثلاث لدولة عريقة فى القدم مصر

الطبعة العربية تصدر عن



ادارة الكتب والمكتبات